# زوجة رجل مسجون

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: زوجة رجل مسجون
تـأليـــــــف: هشام سلمان
القـطـــــع: 21X14
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنـة النشـر: 2025
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 2025 / 4062
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 610 - 4

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

# زوجة رجل مسجون

رواية

هشام سلامة سلمان

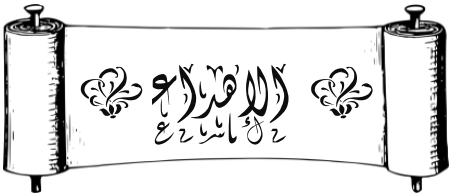


# لكلا من

# الأستاذ /عصام قاصد

# الأستاذ/ جمال محمود

# هما الشاهدان على هذا العمل

فتش عن المرأة في أعماقها

نقب عن منحوتات جدرانها

وما أن تفك طلاسم أسرارها

سوف تعلم وقتها

إنك أذا امتلكت قلبها

إذن أنت ملكتها

وبذلك تكون ملكت الدنيا كلها

لذلك هي تستحق منك أن تخلد ذكرها

هشام سلامة سلمان

# مقدمة

في غياهب الليل الحالك، حيث تتلاشى الأصوات وتنام العيون، وجدتُ نفسي أمام مرآة الذات، أتأمل صفحات عمري المطوية، وأستنطق الأيام الخوالي. لم يكن في الحسبان أن أخط بأنامل الحيرة سطور قصتي، أو أن أنثر على أوراق الزمن شذرات من حكايتي، إلا أن القدر - ذلك المايسترو العجيب - عزف لحنًا غريبًا، فإذا بي ألوذ بمحراب القلم وقداسة الورق، كأنهما ملاذي الأخير في صحراء الوحدة القاحلة.

كنتُ كظمآن يبحث عن قطرة ماء في سراب الحياة، أو كغريق يتشبث بقشة في محيط الخذلان. سعيتُ جاهدةً، بعين الرجاء وقلب المحب، عن صدرٍ رحب يحتضن أسراري كما تحتضن الأرض بذور الحياة، أو عن نبع صافٍ يروي ظمأ روحي المتعبة بماء الوفاء العذب. لكن - وا حسرتاه - لم تقع عيناي إلا على وجوه كالأقنعة الشمعية، باهتة كأوراق الخريف، تفتقر إلى رحيق الإيثار وشهد التضحية.

تأملتُ عند ضفاف الشك، كأنني أفتش عن إجابة في محيط من التساؤلات.، وقد اعتصر قلبي ألم الخيبة كما يعتصر الدهر أحلام الحالمين، متسائلاً بمرارة تفوق علقم الصبر: "هل أضحت التضحية وصمة عار على جبين صاحبها؟ أغدت كلمة منبوذة في قاموس الحياة، يتيمة بين سطور الوجود، لا تجد لها مأوى إلا بين ركام الذكريات وغبار النسيان؟ أيكون مصيرها الفناء، كما طوى الزمن العابر صفحة الديناصورات في كتاب الحياة؟"

غاصت روحي في لجة من التساؤلات، كسفينة تائهة في بحر الظلمات، تتقاذفها أمواج الشك وتعصف بها رياح الريبة: "أحقًا بلغ بي المطاف هذا الشاطئ القاحل من فقدان الثقة في بني جنسي؟" لم أجد لهذه الأسئلة المضنية جوابًا يشفي غليل نفسي الظامئة للحقيقة، غير أن قلبي - يا للعجب - ما زال ينبض بنبض الحب لهم، فمن ارتشف من كأس المحبة الصافية لا يرتضي بغيرها بديلاً، ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

ثم انجلت عن بصيرتي غشاوة الغفلة، كما تنقشع سحب الصباح عن وجه الشمس، فانتبهتُ إلى خطأ شائع يتردد على ألسنة الناس كالنغمة النشاز في سيمفونية الحياة. يظن جُلُّهم أن قصص الحب هي تلك الملاحم التي تُختَم بزفاف العاشقَين وكأن الستار قد أُسدل على المسرحية. كنتُ أنا نفسي - في غمرة السكر بخمر الأوهام - أعدُّ هذه الخاتمة السعيدة ذروة القصيدة وقمة الجبل، إلى أن تجلت لي الحقيقة كالبدر في ليلة تمامه: أن هناك فصولاً أخرى في كتاب الحب، وأبوابًا موصدة تنتظر من يفتحها بمفاتيح الصبر والتضحية.

وهنا تتدفق الأسئلة كشلال هادر لا يعرف السكون: "من ذا الذي يملك عين البصيرة ليميز بين الحب الحقيقي الذي يشبه الماس في صلابته ونقائه، وبين النزوات العابرة التي تشبه فقاعات الصابون في هشاشتها وزوالها؟ ومن يستطيع أن يضمن صمود هذا الحب أمام أعاصير الحياة وزلازلها، فلا ينهار كبيت من ورق أمام أول نسمة عاتية؟"

إنها رحلة الحياة بأفراحها وأتراحها، تضعنا وجهًا لوجه أمام سؤال يهز أركان الوجود ويزلزل قلاع اليقين: "هل الحب سراب خادع نسجته مخيلتنا الخصبة كما ينسج العنكبوت خيوطه الواهية، أم أنه حقيقة متجذرة في أعماقنا كجذور السنديان في أعماق الأرض؟"

إنها تجربة الحياة بحلوها ومرّها، تضعنا وجهًا لوجه أمام سؤال جوهري يهز أركان الوجود: "هل الحب وهمٌ نسجته مخيلتنا الخصبة، أم أنه حقيقة متجسدة في أعماق بعضنا، كالجوهرة المكنونة في قاع البحر؟" فلنتأمل معًا - أيها القارئ الكريم - مفهوم الحب في حياتنا، ولنضعه على محك التجربة بين سندان الواقع القاسي ومطرقة الأيام الثقيلة، لنرى بأعيننا إن كان حقيقة راسخة كالجبال الشامخة، أم مجرد إحساس عابر يتبدد مع مرور الزمن كما تتبدد قطرات الندى تحت أشعة شمس الصباح

الإمضاء

أنتي ليس إلا

(١)

أسمى غادة حمدي أبوالوفا، ابنة الثلاثين ربيعًا التي ازدانت بها حديقة العمر. خريجة كلية الآداب، قسم اللغة العربية، أحمل بين جنبات صدري قلبًا نابضًا بعشق الحياة، وروحًا طموحة تأبى أن تعرف لليأس سبيلاً. قدر الله لي أن أقترن بفارس أحلامي، أسامة فؤاد الشايب، رجل يجسد في كيانه كل معاني الشرف والكرامة.

يعمل زوجي محاسبًا في وزارة الزراعة، يكد ويكدح، باذلاً جهدًا جهيدًا لينسج لنا حياة كريمة بخيوط العرق والتعب. وقد من الله علينا بثمرة حب طاهرة، طفلة تدعى ديمة، هي نور عيني وبهجة قلبي. بلغت من العمر ست سنوات، وها هي تخطو خطواتها الأولى في دروب العلم، تلميذة في الصف الأول الابتدائي بمدرسة خاصة تناسب إمكانياتنا المادية.

حياتنا نحن الثلاثة تشبه حديقة غنّاء، يرويها الحب، وتظلّلها السعادة وتفوح منها رائحة التفاهم. نحترم بعضنا البعض ونقدّر بعضنا البعض، عائشين في كنف القناعة، راضين بما قسمه الله لنا، لا نمد أعيننا إلى ما في أيدي الغير، ولا نحسد أحدًا على ما حباه الله.

وفي صباح يوم من الأيام، ارتفع نغم المنبه كلحن عذب من أوتار الزمن، يعزف سيمفونية بداية يوم جديد، معلنًا قدوم الساعة السادسة والنصف صباحاً. إنها لحظة ميلاد يوم جديد في حياة أسرتي الصغيرة. نهضت من فراشي، أعد وجبة خفيفة لأسامة قبل أن يغادر إلى عمله. فهو، كعادته، يستيقظ في تمام السابعة إلا ربعًا، ولا يحبذ أن يخرج من البيت دون أن يتناول لقيمات تسد رمقه وتمنحه الطاقة لمواجهة يوم عمل شاق. وهكذا بدأ يومنا، ككل يوم.

أسامة، ذلك الفارس الذي اختارته الأقدار ليكون حارس قلبي، في عينيه أرى مرآة روحي، وفي صوته أسمع همس أحلامي. فكأنما خُلقنا من شطرين متكاملين، نلتقي في كل شاردة وواردة، حتى في محراب الصلاة أقف خلفه، نناجي ربنا في صلاة الفجر.

يحترم أسامة الوقت، أما أنا فكنت كفراشة تطير بين أزهار الحياة، لا تأبه بعقارب الساعة، لكن على مدى سبع سنوات من الزواج، علمني كيف أقدر قيمة كل لحظة.

أما ديمة، يا لها من قطة شقية صغيرة! تملأ أركان بيتنا بضحكاتها كأنها جداول من الفرح تتدفق في أرجاء المنزل. وجودها يبعث فينا الأمل، نحترم رغبات بعضنا كما يحترم البستاني كل زهرة في حديقته، فهذا هو سر استقرارنا وأساس سعادتنا.

عندما تشير عقارب الساعة إلى السابعة صباحًا، أتسلل إلى غرفة النوم كنسمة رقيقة. أجد أسامة غارقًا في نومه. أنحني فوقه، أطبع على جبينه قبلة رقيقة كأنها همسة محبة، وأهمس في أذنه:

- أسامة حبيبي، الساعة السابعة، استيقظ.

يفتح عينيه، فأرى فيهما بحرًا من الحب يتلألأ. يقبل راحة يدي كأنه يقبل وردة نادرة وأرد له القبلة على يده كأنني أبايع ملكًا على عرش قلبي.

ينهض أسامة بعزيمة فارس يستعد لمبارزة يوم جديد. شعوره بأهمية دوره في حياتنا يملأ قلبه بالامتنان، وهذا الشعور المتبادل هو الينبوع الذي تتدفق منه سعادتنا الزوجية.

نتحدث أنا وأسامة بسلاسة الماء الجاري عن سبل مواجهة أعباء الحياة، ونواجه معا غول الغلاء بحكمة وتدبير.

أسامة، ذلك الرجل النبيل، يؤدي واجباته كرب أسرة بتفانٍ. يلبي احتياجات البيت قبل أن تنطق بها شفتاي كأنه يقرأ أفكاري. إنه النموذج الحي للزوج الملتزم.

وفي خاتمة المطاف، أرفع أكف الضراعة إلى السماء، داعية الله أن يحفظ أسامة ويرعاه، وأن يديم علينا نعمة الحب والسعادة، فهي أغلى ما في الوجود.

حان موعد إيقاظ ديمة، توجهت إلى غرفة نومها، هامسة بصوت يشبه همس النسيم بين أوراق الشجر:

- ديمة حبيبة ماما، ديمة روح قلب ماما.

وبعد مداعبات ومحاولات متكررة كالعادة، نهضت ديمة في كسل، قالت وهي تتثاءب كقطة صغيرة تستيقظ من حلم جميل:

- هل أستيقظ والدي؟

فأجبتها بحنان الأم:

- انهضي أنتِ فقط يا زهرة الياسمين.

عانقتني وأنا أنهض بها، كأنها غصن رقيق يلتف حول شجرة قوية، ثم وضعت رأسها على كتفي الأيمن.

وبعد دقائق من الشد والجذب الممزوج بالحب، ارتدت ديمة أخيرًا ملابس المدرسة.

سمعنا صوت حافلة المدرسة تقترب، أمسكت ديمة بيد أسامة، الذي اكتملت أناقته بوضع العطر الذي أحبه. نظرت في عينيه، وأنا أستنشق ما يسرقه

الهواء من عطره، كأنني أحاول حفظ رائحته في ذاكرتي طوال اليوم. قلت منبهرة على سبيل الدعابة:

- أرى أنك بهذه الأناقة تحاول جذب اهتمام النساء أكثر إليك!

ضحك أسامة من قلبه، ضحكة وقال:

- أنتِ فقط وكفى.

ثم وضع قبلة على خدي الأيمن، ووضعت ديمة قبلة على خدي الأيسر.

ودعنا ديمة، وانطلقت حافلة المدرسة حاملة، ثم توجه أسامة إلى عمله، تاركًا وراءه عبق الحب والسعادة يملأ أرجاء المنزل.

يا لها من أسره سعيدة!

أشعر وكأنني أعيش في واحة من الجنة، ورغم هبوب بعض العواصف التي تحاول أن تعكر صفو حياتي الزوجية، إلا أنها تعود خائبة، لأنها تجد أمامها حائطًا منيعًا من الحب، يقف شامخًا لحماية سعادتنا.

تحمَل أسامة، الكثير من أجلي. لقد تحدى عائلته للزواج مني، وذلك لأن عائلته كانت ترغب في أن يتزوج من ابنة خاله، الوريثة الوحيدة لأملاكه. كانت والدته، السيدة إنعام، أكثر من استنكرت زواجنا، وذلك على الرغم من أنها لم ترني مطلقًا وقتها، ولا تعرف أي شيء عني. لذلك وضعت حاجزًا بيني وبينهم بعد زواجي من أسامة، لتجنب أي تصادم بينهم وبيني أنا في غنى عنه.

كذلك كان هناك رفض من أهلي لهذه الزيجة، بعد أن تسربت إليهم أخبار عن رفض عائلة أسامة لها، وأنهم يرغبون في زواجه من فتاة أخرى. ظل هذا الصراع طوال فترة ثلاث سنوات، هي مدة عمل أسامة مع خاله في

دولة الكويت. لم يخطر في ذهن خاله فكرة زواج أسامة من ابنته من عدمه، فالزواج بالنسبة له قسمة ونصيب.

أما أسامة، حبيبي وزوجي، فقد كان مصممًا على الزواج مني، ووصل حبه لي إلى حد التحدي الرهيب. كانت فترة الثلاث سنوات كافية لعودة أسامة بمبلغ معقول لإتمام زواجنا، وشراء قطعة أرض صغيرة تبعد حوالي خمسة كيلومترات من منزل أهلي، الذي يقع في منطقة ريفية تبعد حوالي خمسة عشر كيلومترًا عن القاهرة.

كنت أعمل قبل الزواج معلمة في مدرسة خاصة، وادخرت أنا الأخرى مبلغًا ماليًا معقولاً. وبالحب والتفاهم، استطعت أنا وأسامة بناء منزل صغير على قطعة الأرض، لكنه زاخر بالحب والتفاهم.

بعد الزواج، اتفقت أنا وأسامة على أن أتخلى عن عملي كمعلمة مقابل عدم سفره إلى الكويت مرة أخرى. فأنا لا أقدر على فراق أسامة وبعده عني، حتى لو كان ثمن بقائه بالقرب مني هو تركي للعمل والتخلي عن أحلامي وطموحاتي كمعلمة لغة عربية.

كانت القراءة ملاذي وعشقي الأول. في صفحات الكتب، وجدت عالماً يتسع لأحلامي وطموحاتي. الأدب العربي والعالمي كان زادي، والشعر كان نبض قلبي. كنت أخط بعض الأبيات البسيطة، وكأنها همسات روحي الخجولة التي لم ترتقِ بعد لمصاف الشعراء.

وبعد أن جمعتنا الأيام بأسامة، ونسجت الحياة خيوط قصتنا، راودتني فكرة جريئة. بعيني الحالمتين، رأيت في سطح منزلنا والدور الأرضي فرصة لإحياء هواية قديمة ورثتها عن أمي الغالية. تلك المرأة البسيطة التي حملت على كاهلها أعباء الحياة، لتنير لنا أنا وأخواتي دروب العلم والمعرفة.

كان مشروع تربية الطيور حلماً صغيراً، لكنه كبر في قلبي. أقنعت أسامة بالفكرة، وكم غمرني الفرح حين رأيته يشاركني الحماس ويبذل الجهد لإنجاحه. كان المشروع بسيطاً ومحدوداً، لكنه كان بالنسبة لي رمزاً للطموح والنجاح، تحدياً أثبت به ذاتي، وفرصة لأقف يداً بيد مع رفيق دربي.

ثم جاءت البشرى، حصل أسامة على وظيفة حكومية في وزارة الزراعة. رأيت في عينيه بريق الطموح والإصرار، وشهدت كيف تقدم في عمله بخطى ثابتة في وقت وجيز.

بفضل مرتب أسامة وعائد مشروعنا الصغير، استطعنا أن نتغلب على مصاعب الحياة المادية. كنا راضيين بما قسمه الله لنا، قانعين بحياتنا البسيطة، لا نطمح لما هو فوق طاقتنا. ومع نمو المشروع، بدأنا نجني ثمار تعبنا. ادخرنا مبلغاً مكّننا من بناء الطابقين الثالث والرابع. كانت الجدران من الطوب فقط، لكنها كانت بالنسبة لنا قصراً من الأحلام.

هذا التوسع فتح آفاقاً جديدة لمشروعنا، فنما وازدهر، وأصبحت أحوالنا المادية مستقرة بشكل كبير. كان بيني وبين أسامة اتفاق: طفل واحد في العشر سنوات الأولى من زواجنا. ورزقنا الله بأبنتي ديمة، زهرتنا الصغيرة التي نمت في بستان حبنا.

رأيت في ديمة ما كنت أفتقده في نفسي: الثقة، الجرأة، الشجاعة. كانت مرآة تعكس أحلامي وطموحاتي. أما أنا، فكنت أميل للرومانسية والهدوء، أرى الحياة بعين الشاعر الحالم، لا بعين المحارب المكافح.

لكن بدأت المشاكل تلوح في أفق حياتنا من حيث لا نحتسب. أسامة، ذلك الرجل الشريف النزيه الذي وجد نفسه فجأة في خضم معركة لم يخترها.

ذلك بسبب اختياره ضمن لجنة لتقييم أراضي الدولة، كان بداية لسلسلة من الضغوط والتهديدات التي لم نكن نتوقعها.

كان الألمُ يتجلى في عينيهِ كلَّ مساءٍ حينما يفضي إليَّ بهمومهِ. صوته المتعب وهو يشرح لي عن عالم مافيا سرقة الأراضي كان يمزق قلبي. كيف لهؤلاء الأشرار أن يسرقوا المال العام باسم القانون؟ كيف يتلاعبون بالقوانين لخدمة مصالحهم الدنيئة؟

سعيت بكل ما أوتيت من قوة لأكون له سندًا لا يتزعزع، وأحاول إبعاده عن بؤرة هذه المشاكل.

- دعهم وشأنهم يا حبيبي'

كنت أهمس له بحنان، محاولة حماية قلبه النقي من قذارة عالمهم.

لكن الضغوط كانت أقوى من احتماله. رأيت بعيني كيف بدأ مرض السكر يتسلل إلى جسده كالثعبان الماكر، يعبث في صحته ويستنزف قواه. كان قلبي ينزف ألماً كلما رأيته يعاني.

في تلك اللحظات المظلمة، اتخذنا قراراً حاسماً: ترك هذا العمل في أقرب وقت ممكن. كنا نأمل في إيجاد فرصة عمل أخرى، في بيئة تليق بأخلاقه السامية. وإن لم نجد، فقد كان مشروع تربية الطيور ملاذنا الأخير.

حدقتُ في الساعة، كانت الثانية والنصف ظهراً، موعد عودة ديمة من المدرسة. كنتُ قد انتهيت للتو من تحضير الطعام.

فتحتُ ذراعيّ بشغف لاستقبال ديمة العائدة من المدرسة. احتضنتها بقوة، وقبلتُ خدها الأيمن بحنان. جلستُ معها على الأريكة وسألتها عن يومها الدراسي. تحدثت وهي مبتسمة عن حصة الرسم وعصفورتها الجميلة، وعن درجتها النهائية في اختبار الحساب البسيط. وكيف صفق لها زملاؤها

عندما كتبت أول ثلاثة حروف من الأبجدية الإنجليزية وشهادة معلمتها بتفوقها ومهارتها.

شعرتُ بالفخر الشديد وأنا أستمع لها. ديمة أسامة الشايب، اسم رنان، تنبأتُ لها بالتفوق العلمي والعملي، إن شاء الله تعالى.

طلبتُ من ديمة أن تذهب للاستحمام، ثم جلستُ أنتظر قدوم أسامة في موعده المعتاد. لكن الوقت مر، وتأخر أسامة. انتظرتُ ساعة أخرى ولكنه لم يأتِ. اتصلتُ به على هاتفه المحمول، فوجدته مغلقاً. فكرتُ أنه ربما في اجتماع بالعمل، لكن هذا لم يحدث من قبل! احتملتُ أن يكون هذا ضمن مهام الترقية التي حصل عليها أخيراً، رغم أنف رؤسائه في العمل.

أو لعلّه ذهب لزيارة أهله، فهذا احتمال وارد. فهو دائماً ما يحرص على صلة الرحم. على الرغم من وجود اختلافات بيني وبين أهله دون مبرر منهم، إلا أنني أحمل لهم جميعاً كل الاحترام والتقدير والمشاعر الطيبة. ذلك لأنهم أهل أسامة، وأي شخص يحبه أسامة لا يمكنني التفكير في أن أكرهه.

تغمرني السعادة الغامرة عند ذهاب زوجي أسامة إلى أهله، فهذا يدل على طيبة قلبه وصفاء روحه ونقائها. وهي صفات عظيمة تنعكس على سلوكه تجاهي أيضاً. أشعر بسعادة بالغة عندما يطلب مني الذهاب معه إلى هناك، فأنا أحب أن أكون معه في كل مكان، وأريد أن أدعمه في علاقته بأهله.

أستطيع أن أتجاهل كل ما يحدث منهم، وهذا ليس برود مني، بل لأنه لا يوجد في قلبي مكان للكره، مهما فعلوا. هذه الصفة لا أقدر أن أتحكم فيها، إنها ببساطة السماحة، أعتقد أن السماحة هي مفتاح السعادة، فهي تجعلنا نعيش في سلام مع أنفسنا ومع الآخرين، وتجعلنا نرى العالم من منظور

أجمل. أدعو الله أن يرزقني السماحة، وأن يجعلها صفة ملازمة لي في حياتي.

تنساب الحياة في شارع شبرا كنهر متدفق لا يعرف السكون. هناك، حيث يقطن أهل زوجي أسامة، تتراقص أضواء المحلات والمطاعم في عيون الساهرين، أما منطقتنا، فهي واحة ريفية بسيطة، نبتت من رحم أرض زراعية تحولت بتحدٍ صارخ للقانون إلى مساكن بشرية.

مع يأسي من عودة أسامة في موعده المعتاد، قدمت الطعام لديمة قبل أن تغفو. جلسنا على سريرها، نسرد بعض الحكايات، غفت ديمة وغفوت بجوارها.

استيقظت بعد نصف ساعة، الساعة تشير إلى الخامسة والنصف. عاودت الاتصال بأسامة، لكن هاتفه لا يزال مغلقاً. نهضت متجهة إلى عالمي الصغير، عالم الطيور. قدمت لهم الطعام والماء، وجلست أتأمل هذا الكون العجيب الذي يعكس حياة البشر بصدق مذهل.

انتبهتُ لصوت ديمة وهي تبحث عني كفراشة تائهة. ناديتها:

- أنا هنا في الطابق الرابع

صعدت إليّ، وجهها الصغير يحمل غيمة من العبوس. سألتها برفق: - ما بكِ؟

- أين أبى؟

تساءلت بصوتٍ يفيض شوقاً

- لم يأتِ بعد" أجبتُ بهدوء.

- لماذا؟ ألم يكن من المفترض أن يأتي من العمل مبكرًا؟

عيناها تطلبان تفسيرا.

- ربما ذهب إلى بيت جدك وجدتك

قلتُ محاولةً تهدئة روعها.

- لماذا لم يخبرني؟

صوتها يحمل عتاباً طفولياً.

- ربما لم يكن لديه وقت ليخبرنا

طمأنتها، ولتغيير الموضوع، اقترحتُ عليها رحلة إلى حديقة الحيوانات غداً. وافقت بحماس طفولي، واقترحت بدورها

- هيا نتصل بأبي لنطلب منه أن يحضر لنا بعض من الفول السوداني والموز لنطعم بها القرد والببغاء.

ابتسمتُ لخيالها الواسع وقلت:

- لدي خس، يمكننا أن نأخذه لإطعام الفيل وأنتِ فوق ظهره.

- لا أخشى أن أصعد فوق ظهر الفيل.

قولت بشجاعة مصطنعة:

- لا تخافي، الفيل مخلوق طيب، ويحب الطيبين

طمأنتها، تشجعت وقالت:

- حسناً، سأصعد فوق ظهره، ولكن بعد ذلك نذهب لرؤية الزرافة والتمساح.

لقد خططت برغبة متقدة، فوافقت بحب.

فجأة، قفزت فكرة إلى ذهنها:

- هيا نتصل بأبي لنتحدث مع جدتي وجدي وماجد.

- ماجد! هذا تطاول، أنه عمك ماجد.

ردت بمنطق طفولي ساحر:

- كيف يكون عمي وهو يشاهد معي أفلام الرسوم المتحركة؟ اعترفتُ بهزيمتي أمام منطقها:

- لن أستطيع هزيمتك يا ابنة أسامة.

بفخر طفولي، أعلنت:

- ديمة أسامة فؤاد الشايب، ألا تتذكرين اسمي؟

ضحكتُ بشدة، وأنا أهز رأسي في ذهولٍ عميق من قوة شخصيتها الصغيرة.

تنهدتُ بعمق وأنا أحدق في شاشة هاتفي الصامت. قلبي يخفق بقلق متزايد مع كل دقيقة تمر دون أن يعود أسامة. حاولتُ أن أهدئ من روعي قائلةً لنفسي: لعله تأخر في العمل أو نفد شحن هاتفه... لكن الهواجس لم تتركني.

التفتُ إلى ديمة، عيناها الواسعتان تنظران إليّ بتساؤل. ابتسمتُ لها مطمئنةً وقلت بصوت حاولتُ أن أجعله ثابتًا:

- هيا بنا يا حبيبتي، لننزل ونكتب واجباتك المدرسية. فغدًا سنقضي يومًا ممتعًا في حديقة الحيوان

أمسكتُ بيدها الصغيرة الدافئة، وكأنني أتشبث بها لأستمد القوة. نزلنا الدرج وعقلي يدور كالرحى. لماذا هاتف أسامة مغلق؟ هذا ليس من عادته أبدًا. حاولتُ أن أطرد الأفكار السوداء التي بدأت تتسلل إلى ذهني كالظلال.

توجهتُ إلى سجادة الصلاة، ألتمس السكينة في مناجاة ربي. ثم انكببتُ على مساعدة ديمة في دروسها، أشغل نفسي بتحفيظها سورة الماعون. صوتها الطفولي العذب يتلو الآيات يبث في نفسي بعض الطمأنينة.

مرت الساعات ثقيلة. خرجنا لمشاهدة التلفاز، عيناي تتابعان الشاشة لكن عقلي شارد. ديمة تقلد شخصيات المسلسل الكوميدي بمرح، وأنا أبتسم لها ابتسامة باهتة.

حلّ الليل ولم يعد أسامة بعد. قلبي يكاد ينفطر من القلق. هاتفه لا يزال مغلقًا، وكذلك هاتف أخيه ماجد. الشكوك تنهش عقلي كالوحوش. هل حدث مكروه؟ أم أنها مجرد سلسلة من المصادفات المزعجة؟

في لحظة يأس، اتصلتُ بأختي الكبرى إيناس. صوتها المألوف جاءني عبر الهاتف، لكن نصائحها لم تكن بالفائدة التي توقعتها. اقترحت أن أتصل بوالد أسامة متعللة بالاطمئنان على صحته. فكرة بدت لي ساذجة وغير مجدية.

أنهيت المكالمة وأنا أشعر بخيبة أمل. إيناس، بكل خبرتها في الحياة، لم تستطع أن تقدم لي حلاً مقنعًا. أنها دائمًا ما تتأثر وتتقمص شخصية نساء الخمسينات والستينات.

رغم حيرتي وقلقي، وجدت نفسي أبتسم ساخرة من تناقضات أختي. متزوجة بلا حب، تعيش بمبدأ "الخبز قبل الحب"، همها الأول والأخير هو المال والذهب. كيف يمكنني الاعتماد على نصائحها في أمر يتعلق بالقلب والمشاعر؟

عدتُ إلى الواقع المرير. الساعة تقترب من منتصف الليل، وأسامة لم يعد بعد. ماذا أفعل الآن؟ القلق يعصف بأفكاري. ليتني أعرف ما الذي يخبئه لي القدر في الساعات القادمة.

اتصلت بعدها بوالد أسامة، عم فؤاد، رجلاً هادئًا وراقًا في حديثه، كان يعمل موظفًا في وزارة السياحة، لكنه الآن على المعاش، رد على مكالمتي قائلاً: "كيف حالك يا غادة؟" حاولت أن أبدو متماسكة في حديثي، فقلت: "الحمد لله يا عم، كيف حالك؟" قال: "الحمد لله" سألته عن حال السيدة إنعام، فقال: "الحمد لله أنها بجواري الآن وتبلغك السلام." قلت: "الله يسلمها، بلغها سلامي." كانت نبرة صوته متوترة بعض الشيء، مما يدل على دهشته من اتصالي في هذا التوقيت المتأخر، سألني فجأة: "أين أسامة؟ وأين ديمة؟" نظرت إلى ديمة التي كانت قد نامت على الأريكة بجواري، وقلت: "أسامة! اتصلت بك لأسأل عن أسامة، هل جاء إليكم اليوم بعد خروجه من العمل؟ لأنه لم يأت إلى المنزل حتى الآن" تغيرت نبرة صوته إلى نبرة مليئة بالخوف والقلق، وقال: "كيف لم يأت إلى المنزل حتى الآن؟ أين هو أذن؟" سيطر الخوف والقلق على قلبي بشكل رهيب، أخذت والدة أسامة الهاتف من يد زوجها، وقالت: "ماذا يعني أنه لم يعد إلى المنزل حتى الآن؟ لماذا لم تخبرينا منذ تأخره عن موعد رجوعه الطبيعي للمنزل؟ كيف تفكرين؟" لم أتمكن من الرد على أسئلتها المتتالية، فتابعت حديثها قائلة: "اتصلت به اليوم أكثر من مرة، وكان هاتفه مغلقًا، أحذرك أنه لو حدث له أي مكروه، فسأحاسبك يا غادة، أنتِ السبب في كل المصائب التي تحيط به، ولا يريد أن يخبرني عنها أي شيء، أبني قد أرهقه العجز والشقاء في ريعان شبابه، حتى بدأ الشيب يغزو شعره وهو لم يتجاوز منتصف العقد الرابع من عمره، كل ذلك من أجل أن يوهمنا بأنه عندما تحدانا وتزوجك، إنه يعيش في سعادة، وبذلك يكون فاز بالتحدي، أنا لن أسامحك أبدًا لأنك أخذتِ ابني من بين أحضاني." أنهت المكالمة، وأنا أعلم أن عم فؤاد لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة لإيقافها. لقد كان مرتبكًا ومصدومًا بسبب اختفاء أسامة، شعرت بالأسف عليه، لأنه كان دائمًا رجلاً لطيفًا ومتفهما، تساءلت مرة أخرى عما حدث لأسامة، هل حدث له شيء ما؟ أم أنه بخير؟ كان قلبي يؤلمني من القلق عليه، فكرت في كلمات والدة أسامة.

هل كانت صحيحة؟ أم أنها تلقى التُهم جزافاً؟ هل كنت السبب في كل المصائب التي يواجهها أسامة؟ لا أعتقد ذلك! أنها بسبب عمله في هذا المنصب، أحبه حب مجرد من أي شيء، وهو كذلك يحبني بجنون، أنا وأسامة حالة عشق استثنائية.

تنهدتُ بعمق، وأنا أشعر بثقل المشاعر المتضاربة تجتاح صدري. كلمات إنعام القاسية لا تزال تتردد في أذني، تثير في نفسي مزيجًا من الألم والغضب. لماذا لم تتغير بعد كل هذه السنوات؟ لماذا لا تزال تحمل لي كل هذه الكراهية؟

شعرت بالدموع تترقرق في عيني، وقلبي ينقبض خوفًا على أسامة. الفكرة المجردة لأن يكون قد أصابه مكروه جعلت الدم يتجمد في عروقي. حاولت أن أطرد هذه الأفكار السوداء، لكنها ظلت تلح على بإصرار مؤلم.

لم أجد مفرًا سوى الاتصال بأختي إيناس مرة أخرى. انفجرت في نوبة بكاء شديدة بمجرد سماع صوتها. أنا من النوع الذي يبكي بسهولة، والآن كنت أبكي كطفلة صغيرة فقدت أمها في زحام.

حاولت إيناس جاهدة فهم كلماتي المتقطعة وسط نشيجي. سمعتها تقول بنبرة حانية أنها ستأتي مع أخواتي ووالدتي خلال نصف ساعة. شعرت ببعض الارتياح لفكرة وجودهم معي قريبًا.

إيناس ووسام ونهى، أخواتي المتزوجات، يسكن بالقرب من بيت أبي بينما أعيش أنا بعيدًا نوعًا ما . قبل أن تمر ساعة كاملة، سمعت صوت سيارة تتوقف أمام المنزل. كانت إيناس ووسام ونهى وأمي قد وصلن في سيارة زوج وسام.

رأيت وسام تترجل من مقعد السائق. تذكرت أنها تعلمت القيادة مؤخرًا بعد شراء زوجها للسيارة، رغم أنها لم تستخرج رخصة قيادة بعد. في ظروف

أخرى، كنت لأقلق من قيادتها دون رخصة، لكن الآن كل ما شغل بالي هو وجودهن معي في هذه اللحظة العصيبة.

فتحت الباب وارتميت في أحضان أمي، أبكي بحرقة وأنا أشعر بيدها تربت على ظهري بحنان. دخلنا جميعًا إلى المنزل، وأنا أشعر بمزيج غريب من الراحة لوجودهن والخوف مما قد يحمله الغد. كل ما أتمناه الآن هو أن يعود أسامة سالمًا، وأن تكون كل مخاوفي مجرد وهم عابر.

كانت أمي حريصة على قرب بناتها منها، فكان شرطها الوحيد عند زواجنا أن نسكن بالقرب من منزلها. تزوجنا واحدة تلو الأخرى، كأننا حبات عقد تنفرط ببطء. وها أنا اليوم، في منتصف العقد، أرى أخواتي يدخلن منزلي في صمت يشبه الليل وحذر يشبه الخوف.

رأيت وجه أمي المضطرب، كأنه لوحة رسمها الحزن بفرشاة من دموع. وتلك الثياب السوداء التي ترتديها أخواتي، كأنها ظلال تمشي على الأرض. انقبض قلبي في صدري، كعصفور سجين يحاول الفرار من قفص ضلوعي. هل أصاب زوجي أسامة مكروه؟

لكن إيناس لم تمهل أفكاري وقتاً لتنمو. قالت بصوت يحاول أن يكون هادئاً: "لا تقلقي من ثيابنا السوداء." وكأنها تقول لي لا تخافي من الظلام وهو يحيط بنا من كل جانب. ثم أخبرتني عن وفاة خالة أمي وكأنها تخبرني عن سقوط نجمة من السماء.

قالت إنهن أخفين عني الخبر لضعفي أمام الموت، وكأن الموت شبح يمكن إخفاؤه خلف ستائر الكتمان. وأنهن ارتدين السواد خوفاً من سخرية الناس، وكأن الحزن يحتاج إلى تبرير.

فجأة، قطعت وسام خيط أفكاري المتشابكة بسؤال حاد: "هل علمتِ بأي شيء عن سبب اختفاء أسامة؟ هل تم فتح هاتفه؟

أجبتها، وصوتي يرتجف: 'لا، لا يوجد شيء جديد.' لكن الشك كان يلتهم قلبي كنار مستعرة.

بدأت أسأل عن خالة أمي، لكن صوت نهى الساخر قطع حبل أفكاري: "ما الذي تفكرين فيه؟ لقد كانت عجوزًا جدًا، هل كانت تريد أن تأخذ زمنها وزمن الآخرين؟"

صمت أمي كان أثقل من جبل، وأعمق من بحر. كان صمتها يصرخ في أذني، يؤكد مخاوفي التي تتراقص في عقلي كأشباح.

وسام حاولت الاتصال بأسامة، لكن هاتفه كان صامتاً كقبر. نظرتها إلي كانت كمرآة تعكس مخاوفي، تقول بصمت: نعم، يا غادة، شكوكك في محلها.

نظرت حولي، كان يتجنب نظراتي، كأنهم يخشون أن تكشف عيونهم سراً دفيناً. شعرت وكأنني في مسرحية غامضة، حيث الجميع يعرف النهاية إلا أنا.

الخوف والشك كانا يتسللان إلى قلوب الجميع، كنا جميعاً نقف على حافة هاوية من الغموض، ننتظر أن يأتي من يدفعنا إلى الحقيقة، أياً كانت.

الصمت كان يخنقني، حتى قطعه صوت جرس البوابة. انتفضنا جميعاً كأوتار قيثارة مشدودة، لكنهم عادوا للسكون حين رأوا القلق يرتسم على وجهي كلوحة حزينة.

هرولت نحو الباب، والأسئلة تتصارع في رأسي كجيوش متحاربة. هل هو أسامة؟ ولماذا لم يستخدم مفتاحه؟ فتحت الباب لأجد وجوهاً مألوفة، لكنها بدت غريبة في تلك اللحظة. ماجد، عم فؤاد، السيدة إنعام، وشذى

الأخت الصغرى لأسامة. وجوههم كانت كصفحات كتاب مغلق، تخفي أسراراً لا أستطيع قراءتها.

السيدة إنعام، بتوترها الواضح، جلست على الدرج كتمثال حي للقلق. رفضوا الدخول، كأن البيت أصبح فجأة أرضاً محرمة.

ماجد تحدث عن بحثهم عن أسامة، وقبل أن أستطيع الرد، قطع عم فؤاد أفكاري بسؤاله عما حدث قبل ذهاب أسامة للعمل.

ثم جاء صوت السيدة إنعام، حاداً كسكين: من المؤكد أنكما تشاجرتما وتركك وفضل أن يكون بمفرده. كلماتها كانت كسهام مسمومة تخترق صمتي وتزيد من جرح حيرتي.

خفضت عيني للأرض، كأنني أبحث عن إجابات مدفونة تحت قدمي. تظاهرت بعدم السماع، لكن صوتها المرتفع كان كصرخة في ليل هادئ، يوقظ كل الأسرار النائمة.

شعرت للحظة أنها تريد أن تجعل من مأساتنا الخاصة عرضاً عاماً تفتح ستائر بيتنا لتكشف لفضول الجيران عن الحيرة والغموض اللذين يلفان حياتنا كضباب كثيف.

نظرت إلى عم فؤاد، وكلماتي خرجت هادئة: "لم يحدث شيء. كان كل شيء طبيعياً... وعدني بنزهة إلى حديقة الحيوان غداً. " كدت أبوح بقبلته الحارة قبل ذهابه، لكن الحياء ألجم لساني، وأسرارنا الزوجية كانت كنزاً أحرسه بقلبي.

تأملت شذى، ملامحها انعكاس لأمها إنعام، لكنها على النقيض من أسامة وماجد. ماجد كبحر هادئ عميق، كلماته منتقاة بعناية. أما شذى فهي كنسخة

مصغرة من أمها، عنيدة كصخرة في وجه الريح، تزرع الكراهية بكلماتها الحادة.

بالنسبة لهم، الحياة ساحة معركة، إما نصر أو هزيمة، لا مجال للوسط. إن لم تكن معهم، فأنت عدوهم. كل منهما ترى نفسها منارة الحق في بحر من الضلال.

رمقتني شذى بنظرة كسهم حارق، تخترق جسدي من رأسي حتى أخمص قدمي. صوتها ارتفع كموجة غاضبة: "ألم يخطر ببالك أن تبلغينا أنه لم يعد للمنزل إلا في منتصف الليل؟

التفتُ إلى ماجد، عيناي تناشدانه صامتة. فهم رسالتي الصامتة، نظر إلى شذى بحزم، صوته كسيف قاطع: "شذى، يكفي. علينا أن نفكر بوضوح، الأمر لا يحتمل توتراً أكثر من ذلك، الأفضل أن تصمتي. "

ثم التفت إليّ، صوته يلين كنسمة لطيفة: "أستاذة غادة، هل يمكنك أن تحضري لنا القليل من الشاي؟" كلمة 'أستاذة' رنت في أذني كصدى من ماضٍ قريب، تذكرني بهويتي كمعلمة.

لكن طلب ماجد كان أكثر من مجرد دعوة للشاي. كان محاولة لحمايتي، لإبعادي عن سهام شذى وإنعام المسمومة.

إنعام، بصوتها الحاد قالت: "لن أشرب شيئاً في هذا البيت حتى أجد ابني. " وكأنها تعلن حرباً على كل ما هو في منزلي.

شذى، كصدى لصوت أمها، أضافت: "الماء هنا سيءٌ للغاية، لن أشرب شيئاً أيضاً. "

عم فؤاد صمت، لكن عيناه كانتا تتوقان للشاي. لكنه لم يجرؤ على التحدث، خوفاً من غضب إنعام. صمته كان كهدنة هشة في معركة كلامية.

صعدت قاصدة المطبخ، قدماي ثقيلتان كأنهما جبلين. تذكرت فجأة وجود أمي وأخواتي، كأنهم أشباح من حياة أخرى. نظرة خاطفة نحو الشرفة كشفت عن أن أخواتي يراقبن المشهد أمام المنزل كأنه مسرحية درامية.

إيناس، بحماسها المعتاد، اقترحت النزول لمواجهة إنعام. لكن أمي بحكمتها المعهودة، أوقفتهن: "لا، الوضع لا يحتمل أي مشكلة. " وافقتها، رغم إدراكي لعدم اقتناعها الكامل. فقلت، وصوتي يرتجف: "أرجو منكم أن نلتمس لها العذر، فهي أم. "

الصمت خيم علينا كغطاء ثقيل. وسام، كملاك رحمة، أحضرت الشاي همست لي وهي تعطيني الصينية: "كان الله في عونك على السيدة إنعام إنها شخصية صعبة للغاية. أحمد الله أن والدة زوجي توفيت. " كلماتها كانت مزيجاً غريباً من التعاطف والقسوة.

نزلت والصينية في يدي ترتجف. ماجد، بلطفه المعتاد، أخذ الصينية مني كأنه ينقذني من حمل ثقيل. سأل عن أرقام أصدقاء أسامة، وإجابتي جاءت سريعة: "بالطبع لا، لماذا سيكون لدي أرقام أصدقائه؟"

لكن إنعام، بحدة قاطعت: "دعها وشأنها، فهي تعيش في النعيم ولا تشعر بالمسؤولية. تسكن في هذا البيت وحدها، وما تطلبه من ابني مجاب، فلماذا تشغل بالها بأي شيء؟"

فجأة، كبرق يشق سماء ليلية، نزلت إيناس ونهى، تتبعهما أمي ووسام. المشهد تحول في لحظة إلى مسرحية سوريالية. إيناس، بابتسامتها المصطنعة، توجهت للسلام، لكن عيون عم فؤاد اتسعت كدوائر في بركة راكدة. كوب الشاي سقط من يده، محدثاً صوتاً كصرخة مكتومة على الدرج الرخامي.

إنعام، كغزال استشعر خطراً، التفتت بسرعة. عيناها وقعت على الأربعة بثيابهم السوداء، صرختها شقت سكون الليل، أيقظت البلدة النائمة من سباتها بعد صلاة العشاء. "أبني مات! ابني مات! " كلماتها ترددت كصدى في واد عميق، جعلت المنازل تهتز من حولنا.

لكن المنطق غاب عن إنعام. لو تأملت للحظة، لرأتني في أسدالي الأخضر، نقطة ضوء وسط بحر من السواد. لكن الحزن أعمى بصيرتها، وجعل تفكيرها يتخبط كعصفور في قفص.

أمي، بصوتها الحازم كقاضٍ يصدر حكماً، قالت: "لا، لا تقولي ذلك السبب هو وفاة خالتي اليوم. " كلماتها أسقطت ستاراً من الصمت على المشهد. النظرات هبطت كأوراق خريف، وعلامات التعجب ذابت من على الوجوه.

لكن الضجة أيقظت الحي بأكمله. النوافذ والشرفات فتحت كأعين فضولية، والمارة تجمعوا. وزعت نظرات العتاب على أخواتي، متمنية لو بقين في الأعلى، محجوبات عن هذا المسرح المجنون.

لمحت نظرات التواطؤ بين إيناس ونهى، كشرارة خبيثة في عينيهما. نجحتا في مضايقة إنعام، وكأن الأمر كان لعبة صبيانية لا مأساة حقيقية.

وقفت هناك، في عين العاصفة، أشعر كأنني دمية في مسرحية عبثية. كل شخص حولي يلعب دوراً لم يتقنه، وأنا، في قلب هذا المشهد المجنون، أحاول أن أفهم، أن أتماسك، وأن أجد معنى في هذا الجنون المنظم الذي يدور من حولي.

وفي تلك اللحظة المشحونة، نزلت ديمة كطائر صغير مذعور دموعها تنهمر على وجنتيها الشاحبتين. صوتها المرتجف شق الهواء المتوتر: "ماما... ماما. "

أسرعت إليها قلبي يخفق بقوة، والتقيتها عند آخر درجات السلم .احتضنتها بقوة كأنني أحميها من العالم كله، وهمست في أذنها بصوت حنون: "اهدئي يا حبيبتي، كل شيءٍ على ما يرام. "

سألتني بصوت مرتعش: "أين أبي؟"

أجبتها، محاولة إخفاء قلقي: "إنه لا يزال في العمل، ولا داعي للقلق فهو سيعود قريباً. "

عيناها الواسعتان نظرتا إلى بحيرة: "ولماذا إذاً كانت تصرخ جدتي إنعام؟"

حاولت طمأنتها: "إنها تتحدث عن شخصٍ آخر، لا شأن لنا به. هيا نخرج إليهم فعمك ماجد هنا. "

لكنها تشبثت بي: "لا، سوف أظل واقفة مكاني. "

استسلمت لرغبتها: ""حسناً، سأجلس معكِ. "

جلست بجوارها، واحتضنتها مرة أخرى. بدأت أربت على كتفها برفق، وفجأة، كموجة جديدة تضرب شاطئ هذا المشهد المضطرب، سمعت صوت عزة، أخت أسامة الكبرى. نظرت نحو البوابة لأجدها مع زوجها الأستاذ سعيد. خرجت لأرحب بهما، لكن عزة تجاهلتني كأنني شبح، واتجهت مباشرة نحو ماجد الذي بدأ يشرح لها الموقف بهدوء حكيم.

ثم ظهرت أمل، الأخت الوسطى، قادمة من مدينة السادس من أكتوبر في هذا الوقت المتأخر. وصلت وحدها، وكأنها حملت معها توتر الليل كله. دون أن تلقي السلام، باغتتني بسؤال حاد: "أنا أتصل بكِ يا غادة منذ ساعة، لماذا لا تقومين بالرد على اتصالي؟"

ودون انتظار إجابة، أكملت بلهفة: "ليقل أحدكم شيئاً، ماذا يحدث؟"

عزة أجابت بصوت خافت: "أخوكِ اختفى وهاتفه مغلق. "

نظرت إلي أمل نظرة مليئة بالأسئلة الصامتة. شعرت كأنها تريد أن تسألني: "ماذا لديكِ يا غادة؟"

تلعثمت كمتهمة أمام قاضٍ صارم: "هاتفي بالأعلى، وأنا بالأسفل لم أسمع صوت الهاتف. "

أدركت أن إجابتي لا علاقة لها بالسؤال الحالي، لكنها كانت الكلمات الوحيدة التي استطعت استحضارها من بحر التوتر الذي أغرق عقلي.

وهنا، قطعت السيدة إنعام المشهد بصوتها الحاد المليء بالسخرية: "هل سنظل نعيد ونزيد في الأمر؟ لتبحثوا عن حلول. "

كانت ليلة عصيبة، أشبه بكابوس مخيف يلف الواقع بظلاله. الجميع أخرجوا هواتفهم، وكأنها أسلحة في معركة ضد المجهول، يطلبون من كل من يعرفون البحث عن أسامة. صعدت مع ديمة إلى غرفتي، نبحث بين أوراقه الخاصة عن أي خيط قد يقودنا إليه.

نظرت إلى الساعة، فوجدتها تشير إلى الرابعة صباحاً. الوقت يمر كسيل جارف، ونحن نقف عاجزين، بلا أي بصيص أمل يرشدنا إلى أسامة.

وفجأة، كرعد يشق سكون الليل، سمعنا صوتاً مرتفعاً يقترب. نظرنا إلى الخارج لنرى دينا، أخت أسامة التي تصغره مباشرةً، تشق طريقها إلينا كعاصفة هوجاء. وقفت أمامنا، عيناها تلتهمان المشهد، ثم صرخت بصوت يكاد يزلزل الأرض:

"أين أخي؟ أريد أخي! "

أسرعت إليها عزة وأمل ووسام، محاولات تهدئة بركانها الثائر، لكن دينا كانت كنهر جامح، لا يستمع ولا يهدأ. هي أكثر أخوات أسامة ارتباطاً به، قوية ومندفعة، لكن قلبها طيب لا يحمل ضغينة لأحد.

حاولت وسام احتواءها، لكن دينا دفعتها بقوة، مما أثار غضب نهى وإيناس. وجهتا إليها كلمات قاسية، فاشتعل شجار لفظي حاد بين الجميع.

تصاعد الموقف، المشهد أشبه بمسرح مفتوح. الجيران والمارة يشاهدون في ترقب، منهم من يرى في الأمر تسلية، ومنهم من يتطفل بفضول، وآخرون ظهروا بنية تقديم العون.

وقفت وسط هذا المشهد المضطرب، أشعر كأنني في عين إعصار. بيتي الهادئ، ذلك الملاذ الساكن، تحول في غمضة عين إلى مسرح صاخب، ومزار للناس من كل حدب وصوب. تدخلت إنعام، كزيت يُصب على نار مشتعلة، فارتفعت الأصوات حتى كادت تخترق سقف السماء.

وأنا، في خضم هذه العاصفة، لم أكن أرى سوى صورة واحدة: أسامة أين هو؟ ماذا حدث له؟

لم أدرك حجم التطاول بين الفريقين إلا عندما صرخت دينا في وجه أخواتي: "لماذا أنتن في منزل أخي في هذا التوقيت؟ أجئتن للبحث عن الميراث أليس كذلك؟"

سقطت كلماتها على أذني كقنبلة ذرية، أسقطها قائد طائرة على جزيرة أبرياء. قالتها دينا لتقضي على الجميع، وتنتصر في معركتها الكلامية. لكن أخواتي لم يستسلمن، ويا ليتهن فعلن!

تحول موضوع الشجار من اختفاء أسامة إلى صراع على الإرث. غشاوة أسدلت على عيني، فصرت أرى كل شخص مرتين، رغم كثرة الحاضرين من الأساس. عيونهم جميعاً كانت مسلطة علي كأشعة شمس حارقة.

وفجأة، وجدت نفسي أصرخ: "كفى! غادروا منزلي! لا أريد أن أرى أحداً منكم. كل ما يشغل بالكم الآن هو البيت فقط. يا لكم من معدومي القلوب! "

قلت ذلك والدموع تترقرق في عيني، جسدي يرتجف من الداخل. أنا التي تخشى المواجهة منذ الطفولة، لا تستطيع جرح أحد بكلمة حتى لو استحقها. استندت إلى جدار المنزل، أخفي خوفي من تداعيات ما قلت.

وفي مدخل المنزل، وقفت ديمة شاهدة على كل شيء، عيناها تلتقطان المشهد، وأذناها تسمعان كل كلمة.

في تلك اللحظة، شعرت كأنني في مركز دوامة رهيبة، أحاول التشبث بأي شيء يبقيني واقفة.

لكن دينا، كشعلة لا تنطفئ، رفضت الاستسلام أمام كلماتي. بل أعلنت التحدي بصوت يقطر تحدياً وعناداً: "هذا المنزل من حقنا. أخي ليس لديه أبناء ذكور. وإن كان لابد لأحد أن يغادر، فسوف تكونين أنتِ وأمك وأخواتك. "

كلماتها كانت كشعلة ألقيت على بئر من النفط. فجأة، تعالت الأصوات مرة أخرى.

وقفت هناك، مذهولة من هذا التحول المفاجئ. كيف تحول البحث عن أسامة إلى نزاع على الميراث؟ كيف أصبح منزلنا، مملكتنا الصغيرة ساحة معركة؟

نظرت إلى ديمة، واقفة في مدخل المنزل، شاهدة صامتة على هذا المشهد المؤلم. عيناها الواسعتان تحملان ألف سؤال، وأنا، أمها، عاجزة عن تقديم أي إجابة.

وفى تلك اللحظة وَفَدَت السيدة فادية، خالة أسامة وشقيقة إنعام الصغرى، برفقة زوجها المحامي الأستاذ كمال، خيَّم الصمت فجأة. طلب أستاذ كمال الولوج إلى المنزل للحديث، لكن إنعام انتفضت رافضةً، مطالبةً إياه بالإفصاح عن مكان أسامة على عَجَل.

تحت وطأة إلحاح إنعام وهمهمات الحاضرين، نطق كمال بصوتٍ مرتجف: "لقد أُلقيَ القبض على أسامة، وهو الآن في قبضة مباحث الأموال العامة. "

حينها، توقفت عجلة الزمن، وتجمَّد كل شيء حولي، إلا العيون التي راحت تتراقص بين الجموع؛ منها المذهول، ومنها الشامت، ومنها المُحبَط. كلٌّ يُغني على ليلاه.

صاحت عزة عاقدةً حاجبيها: "كيف حدث ذلك؟ ولِمَ قُبِضَ عليه؟"

هوى قلبي إلى أعماق الأرض، لكنني تشبثت بأطراف جَلَدي، متحاشيةً النظرات، وبالأخص نظرات أخواتي.

ثم أطلق الأستاذ كمال رصاصة الرحمة قائلاً: "إنها قضية إهدار المال العام، والمبلغ ليس بالهيّن، مليار جنيه. "

ردَّد الجميع "مليار جنيه" كأنهم صدى لصوت كمال، ثم ران الصمت من جديد، وتبادل الحاضرون النظرات.

بعد هذا الإعلان الجلل، طالبت السيدة فادية بفض التجمع نظراً لحساسية الموقف. بدأ الناس في الانسحاب بعدما أشبعوا نَهَمَ فضولهم مصحوبين بهمساتٍ لم أفقه منها حرفاً، لكن إحساسي التقطها.

في تلك اللحظة، شعرت كأن جسدي يهوي في بئرٍ سحيق، متجهاً نحو القاع، لكنه لم يبلغه بعد.

مع بزوغ فجر يومٍ جديد، تلاشت الجموع من أمام منزلنا كأنهم أطياف تبددها ضوء النهار. لم يبقَ سوى أختي إيناس ترافقني في محنتي. جلستُ صامتةً والدموع تنهمر على وجنتيَّ، متكئةً على الدرج، أحاول استجماع شتات أفكاري المبعثرة.

أين ذهب الجميع الآن؟ أين أولئك الذين كانوا يتلهفون على الإرث منذ لحظات؟ هكذا هي الدنيا! دوام الحال من المحال، حتى لو كنت تسير داخل الجدران لا بجوارها. لقد انتقمت من أسامة عصابةُ الأشرار من رؤسائه في العمل وأعوانهم الخبثاء.

ما العمل الآن؟ كيف لي أن أمد يد العون لأسامة في هذه الظروف العصيبة؟ لا شك أنها مؤامرة دبرت بإحكام للنيل منه. وبينما تتصارع الأحداث والأفكار في رأسي، كان جزءٌ من عقلي يتساءل: "تُرى ماذا يقول الناس الآن عن أسامة؟"

جملة 'مليار جنيه' تتردد في أذهان الجميع كالصدى! ماذا يتناقل أهل البلدة؟ ماذا يتهامس به أهلي الآن؟ وماذا يقول أهل أسامة الذين يعرفونه حق المعرفة؟ أرى في مخيلتي الجميع يحدثون أنفسهم أو يتساءلون فيما بينهم: "ما نصيب أسامة من هذا المليار المزعوم؟"

شعرتُ بألمٍ فظيع يعتصر رأسي. صعدتُ إلى الأعلى فوجدتُ إيناس وديمة غارقتين في نومٍ عميق. أما أنا، فلم أستطع النوم، ولم أقدر على الصراخ، بل عجزتُ حتى عن النطق بكلمة واحدة.

ماذا أفعل الآن؟ أي طريق أسلك؟ وضعتُ يدي على رأسي، ثم رفعتها إلى السماء متضرعةً: "يا رب رحمتك، رحمتك يا رب. "

(٢)

وخزتني أشعة الشمس المتسللة من النافذة كأنياب أفعى سامة، فاغتالت غفوتي القصيرة. فتحتُ عينيَّ بمشقة لأجد نفسي على الأريكة والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً. لم تتجاوز رقدتي الساعة، لكنها كانت ثقيلة كدهر.

اندفعتُ إلى إحياء الهاتف الذي خمدت أنفاسه بسبب نفاد البطارية، فانهالت عليَّ الرسائل والاتصالات من الأقارب والأصدقاء. كان الجميع يتحدث عن انتشار الخبر في الصحف والمواقع ووسائل التواصل الاجتماعي وكأن أسامة متهمٌ بالخيانة العظمى وبيع الوطن لأجانب.

صُعقتُ، وسرى في أوصالي خوفٌ ورهبةٌ من البشر أجمعين. كم حاولتُ مراراً وتكراراً تحذير أسامة من خوض غمار المعركة مع الفاسدين، لكنه أبى الإصغاء. كان يحلم بتغيير العالم وإحقاق العدل للجميع، معتقداً أنه قادرٌ على الصمود أمام الطغاة، غير أنهم كانوا أشد بأساً وأمكر حيلة.

نصبوا له فخاً في منتهى الخسة والبساطة، لكنه كان كافياً ليوقعه في شرك الاتهام. وهكذا، في لمح البصر، تحول أسامة في نظر الجميع إلى الفاسد الأكبر، عدو الوطن، ناهب أموال البسطاء من أبناء الشعب.

في غياهب هذا الكابوس اليقظ، تتراءى لي الحقيقة المرة بوجهها الكالح. أكاد أسمع صرير باب الشرفة وهو ينفتح على مشهد مروع جحافل غاضبة من البشر تزأر مطالبةً بحقها المزعوم في المليار جنيه الذي اتُّهم أسامة بإهداره.

في مخيلتي المضطربة، يتردد صدى تحطم الزجاج، وأزيز الحجارة وفحيح الزجاجات الحارقة وهي تنهال على جدران منزلنا. تتعالى الهتافات الساخطة كعواء ذئاب جائعة، تطالب باسترداد المال المنهوب.

آه من هذا الجمهور الأعمى! لا يكترث بالحقيقة، بل يلهث وراء ما يلقيه الإعلام من فتات أكاذيب. ذلك الإعلام الذي استحال أداةً طيعة لتوجيه الرأي العام كقطيع من الخراف، دونما اعتبار لبراءة المتهمين أو إدانتهم.

كل ما يهم هذا الوحش الإعلامي هو السبق الصحفي، حتى لو كان ثمنه خراب البيوت وتمزيق أستار العفة عن الأبرياء. لقد أضحت برامج التوك شو سوقاً رائجة لجني الأموال على حساب أعراض الناس وهتك أسرارهم.

من خلف ستائر الخوف، تسللت نظراتي المذعورة عبر النافذة، تتلمس الشارع بحثاً عن حشود غاضبة تحاصر المنزل. فجأة، اخترق صوت إيناس سكون أفكاري المضطربة: "ماذا تفعلين؟". ارتجفت أوصالي لكنني تماسكت وأجبت بلسان متلعثم: "لا شيء، مجرد نظرة عابرة على الشارع."

بنبرة الاستغراب، سألتني: "ولمَ لا تخرجين إلى الشرفة؟". تهاويت على الأريكة وأنا أتمتم: "عيناي ملتهبتان من السهر، وأخشى أن تزيد أشعة الشمس الحارقة من لهيبهما."

جلست إيناس دون اكتراث بتصرفاتي الغريبة، فقد كان همها الوحيد هو أسامة. بدأت تستنطقني عن أحواله في العمل، مؤكدة على علمها بنبل مبادئه وسمو أخلاقه.

وبعد مقدمة طويلة، سألتني بنبرة مريبة: "هل يحتفظ أسامة بأمواله في المنزل؟". زعمت أنها تخشى ضياع النقود أو مصادرتها عند تفتيش المنزل، وأنه لابد من إخفائها في مكان أكثر أماناً.

كلماتها نضحت بالطمع المستتر، همست لنفسي: "أهكذا تتحول القلوب عند أول اختبار؟ أين ذهبت الأخوة والمحبة؟". شعرت بمرارة تعتصر قلبي، وأنا أرى الطمع يتسلل حتى إلى أقرب الناس في أحلك الساعات.

حيرتني تناقضات حديثها الصارخة! كيف يكون أسامة ذا فضائل سامية في نَفَس، وفي الآخر يُتَّهم باختلاس أموال طائلة وإخفائها في منزلنا؟ انكشفت لي نواياها الدنيئة كشمس في رابعة النهار.

إيناس، تلك التي أعرف خباياها كظاهرها، لا ترى في الحياة سوى بريق الذهب ورائحة النقود. مستعدة أن تدوس كرامتها تحت أقدام الطمع، وتبيع ضميرها في سوق النخاسة من أجل حفنة من المال.

كظمتُ غيظي المتأجج قائلة: "لم يترك أسامة في المنزل سوى بضع مئات من الجنيهات."

رأيتها تمط شفتيها في عدم اقتناع، وتهز رأسها كمن يقول: "لا تخدعيني". أدركتُ أنها تظنني أخفي كنوز قارون، وأن أسامة قد سطا على خزائن الدولة وأودعها في مخبأ سري بيننا.

وهكذا، في غمضة عين، وجدت نفسي متهمة بالتواطؤ والإخفاء. وممن؟ من شقيقتي الكبرى! فكيف الحال إذن مع بقية الأهل والأقارب؟

لكن ما يعتصر قلبي مرارة هو تساؤلي عما يقوله الناس عني الآن. بعد أن كنت أحسب حساب موقف أسامة من المجتمع، ها أنا أجد نفسي في دائرة الاتهام، وإن كان بصورة مختلفة.

وفجأة، اخترق ذهني سؤال أنثوي محض: ترى ما رأي السيدة إنعام فيَّ الآن؟ هل ستنظر إليَّ بعين الشفقة أم الازدراء؟ أم ستراني شريكة في جريمة لم نقترفها؟

رحلت إيناس خائبة، بعد أن فشل مسعاها في العثور على كنز موهوم. أدركت حينها أن حضورها لم يكن لمواساتي في محنتي، بل لتكون صاحبة السبق في الظفر بغنيمة خيالية، ولو بأسلوب ساذج كعادتها.

استفاقت ديمة من نومها، وبدأت تسأل بعفوية الطفولة، عن أسامة وما حدث بالأمس، وجدت نفسي أنسج كذبة بيضاء، قائلة: "بابا ذهب للعمل في مكان بعيد. الجميع غاضبون لأنهم لا يريدونه أن يسافر، إنهم يخشون عليه من ركوب الطائرة".

ران الصمت عليّ بعدها، خوفاً من المجهول الذي يتربص بأسرتي. انحدرت دمعة ساخنة على وجنتي، لم تلحظها ديمة.

لم أتخيل قط أن يأتي يوم أضطر فيه للكذب على ديمة! أنا التي غرست فيها قيم الصدق والصراحة مهما كان الثمن. ها أنا الآن أجد نفسي حائرة بين صخرة الحقيقة القاسية ومطرقة الكذب الرحيم، متسائلة في مرارة: أيهما أشد إيلاماً لقلب طفلة بريئة؟

ترك لي الأستاذ كمال، قبل رحيله البارحة، رقمًا هاتفيًا. وما إن لاح الصباح حتى هرعتُ أطرق باب الاتصال به، ألتمس منه خبرًا عن حال أسامة، وأستجلي غياهب الموقف الراهن.

فأجابني بصوتٍ يشوبه القلق قائلاً: ستبدأ النيابة في سبر أغوار الحقيقة مع أسامة بعد صلاة الجمعة. وها هو الآن يقبع في أروقة النيابة العامة، ينتظر بدء التحقيقات. وحالما تنجلي غيوم هذا الموقف العصيب، سأطلعك على كل خفايا القضية وظواهرها. فحتى هذه اللحظة، يحظر علينا التواصل مع أسامة."

ثم أخذ صوته يخفت تدريجيًا، حتى صار همسًا يكاد لا يُسمع. وإذا به يقول لي بنبرة المتآمر: "يا أستاذة غادة، عليكِ أن تنقبي في زوايا المنزل وأركانه، باحثةً عن أي أموال قد يكون أسامة قد أخفاها عن أعينك."

وكأنه بكلماته هذه يتهمني ضمنيًا بالتواطؤ، ويلمح إلى أن أسامة يخبئ أموالاً طائلة بعلمي وموافقتي. فثار في نفسي بركان الغضب، وانطلق

لساني بكلمات حادة: "أرى في كلامك اتهام لأسامة واتهام ضمني لي! يشهد الله أن ما في منزلنا من مال إلا نزر يسير لا يكاد يكفي لسد الرمق !" فإذا به يرد بسرعة البرق، وبنبرة مريبة توحي بأنه يعلم ما يدور في خلدي: "نعم، نعم، أعلم ذلك. ولكن ابحثي يا غادة، فما عليك من ضير في البحث. فلعل في الأمر سرًا خفيًا لم تعلميه بعد."

انقطع حبل الاتصال، وقد تركني غارقةً في بحر من التساؤلات المريرة. أهكذا بلغ الحال بأسامة حدًا من السوء يفوق التصور؟ كيف أُحكمت حلقات الأدلة حوله بهذه السرعة المذهلة، حتى بات مدانًا في أعين الجميع؟ أشعر كأنني أقف وحيدةً في واحة البراءة، بينما يحيط بي طوفان من اليقين بإدانته.

ولكن! ما هذا الوسواس الخناس الذي تسلل إلى قلبي؟ أأكذب نفسي وأصدق هذه الأوهام؟ أأقبل فكرة أن زوجي، رفيق دربي، قد خبأ أموالاً حرامًا في بيتنا الطاهر؟ وا أسفاه! لقد استسلمت لهذه الوساوس، وبدأت رحلة البحث المضنية في كل ركن وزاوية من منزلنا.

لم أترك حجرًا إلا قلبته، ولا وعاءً إلا فتشته. حتى حظائر الطيور لم تسلم من يدي الباحثة المرتعشة. وفي كل لحظة، كان سؤال شائك يخز قلبي: أهذا ما آل إليه حالي؟ أأخون ثقة زوجي بهذا البحث المحموم؟ أم تراني بذلك أحمي عشنا وأصون مستقبل ابنتنا من غدر الأيام؟

كانت ديمة، فلذة كبدي، ترافقني في هذه الرحلة المضنية، شاهدةً على ضعفي البشري أمام وسوسة الشك. وكم كان الفرح غامرًا حين لم أجد شيئًا! نعم، كنت أعلم في قرارة نفسي أنني لن أعثر على ما يدين أسامة ولكنه ضعف النفس البشرية أمام سطوة الوسواس.

ها أنا ذا، بعد كل هذا العناء، أقف شامخةً، مرفوعة الرأس، وقد تأكدت من نقاء بيتنا وطهارة زوجي. فليشهد الله على ما في قلبي من ندم على لحظة الشك تلك، وعلى عزمي الأكيد بأن أقف إلى جانب أسامة، أدافع عن براءته بكل ما أوتيت من قوة، حتى يتجلى الحق ويزهق الباطل".

وهكذا ألقيتُ بجسدي المنهك على الأريكة، وقد أثقلتني ساعاتٌ من البحث المضني كأنها دهرٌ من الزمان. رمقتُ هاتفي الصامت بنظرةٍ خاطفة، فإذا به يحمل في جوفه سيلاً من المكالمات الفائتة، وضعتُ الهاتف جانبًا، كمن يضع همومه على رفٍ بعيد، فما عادت لي رغبةٌ في مخاطبة البشر. كل ما يشغل بالي الآن هو انتظار تلك المكالمة المرتقبة من الأستاذ كمال، تلك التي ستحمل إليّ أنباء التحقيقات، وعزمت على أنه مهما كانت نتيجة تلك التحقيقات، ومهما حملت لنا الأيام القادمة من محن، فسنبقى نحن الثلاثة أنا وديمة وأسامة متماسكين كالبنيان المرصوص، نواجه عواصف الحياة بقلوبٍ مؤمنة وعزائم لا تلين".

## (٣)

أنار هاتفي كشهابٍ في ليلٍ مظلم، حاملاً اسم الأستاذ كمال. وما إن فتحتُ خط الاتصال حتى انهالت عليَّ كلماته كسياطٍ من نار، دون مقدمات أو تمهيد:

"لقد تم تجديد حبس أسامة أربعة أيام على ذمة القضية".

يا لهول الصدمة! كأنما هوى عليَّ سقف الدنيا بهذه الكلمات. وتتابعت الأخبار كقطرات السم: "توجه أسامة إلى قسم الشرطة في وسط البلد... أعطيته طعامًا ومياهًا وعصيرًا... يمكنكِ زيارته غدًا في القسم" .

وأنا أستمع إليه، والغصة تكاد تخنقني، والحزن يعتصر قلبي اعتصارًا. فاندفع السؤال من بين شفتيَّ المرتجفتين: "وحال أسامة؟ أهو بصحة جيدة؟ "

فجاءني الجواب: "في مثل هذه الظروف تكون المعنويات ضعيفة... حالته النفسية يُرثى لها... لكنه شبه متماسك... رفض تناول أي شيء، واكتفى بالمياه والعصير على مضض" .

انقطع الاتصال، وانقطع معه خيط الأمل الواهي الذي كنت أتشبث به. وها أنا ذا، أغرق في بحرٍ من اللوم الذاتي والندم القاتل. لِمَ لم أدعه يعود إلى عمله في الكويت؟ أكان يمكن للحال أن يكون غير هذا الحال؟

لكن! ألا يمكن أن يكون هذا من عمل الشيطان؟ ألم يكن من الممكن أن يحدث الأسوأ هناك؟ من ذا الذي يعلم أين يكمن الخير في طيات القدر؟

آهٍ يا أسامة! كم أتمنى أن أكون بجانبك الآن، أشد من أزرك، وأمسح عن جبينك غبار الهم. ليتني أستطيع أن أخترق جدران السجن وأصل إليك، لأخبرك أنني معك، وأن براءتك ستظهر مهما طال الزمن.

غدًا... نعم، غدًا سأذهب إليه. سأحمل إليه مع الطعام والشراب، كل حبي وإيماني به. سأكون له السند والعضد، وسنواجه هذه المحنة معًا، يدًا بيد، وقلبًا بقلب. فمهما اشتدت العاصفة، فإن شجرة حبنا راسخة الجذور، عصية على الاقتلاع.

آه يا أسامة! كيف ستصمد أمام هذا الطوفان من الظلم والقسوة؟ كيف ستتنفس في هذا الهواء الملوث بأنفاس المجرمين؟ وكيف سترى في عيني الحب والحنان حين ألقاك غدًا في هذا المكان البغيض؟ إنه لموقف يفتت الصخر ويذيب الحديد.

وإذ بي أستفيق على ألم في أصابعي، فأجدني قد قضمت أظافري بأسناني حتى كادت تدمى. يا لها من عادة بغيضة تعاودني كلما عصف بي التوتر! مرت ساعة وأنا أغوص في بحر الأفكار السوداء، أبحث عن شاطئ للنجاة فلا أجد. ولكن! أليست هذه طبيعة البشر حين يعصف بهم اليأس؟

وفجأة، كشعاع نور يخترق غيوم اليأس، رن هاتفي معلنًا اتصال أمل أخت أسامة. ترددت في البداية، لكن كلماتها جاءت بلسمًا لجراحي. طمأنتني أنها بريئة مما حدث بالأمس، واعتذرت نيابة عن الجميع. ثم أخبرتني أنها ستزور أسامة غدًا وستصطحبني معها.

يا لها من مفارقة! أن يصل خبر تجديد الحبس للجميع بهذه السرعة، كأنه نعي يتردد صداه في كل مكان. وفجأة، كأنما استفقت من غفلة طويلة، شعرت بثقل الوحدة يجثم على صدري. المنزل أصبح قبرًا موحشًا بلا روح أسامة تدب فيه الحياة.

حملتُ ديمة بين ذراعيّ كأنها درعي الواقي، وانطلقتُ نحو بيت والديّ. كنتُ أسير وعيناي تتلفتان يمنةً ويسرة، أتحاشى نظرات الناس. حتى الغرباء وما أكثرهم! بدوا لي كوحوشٍ متربصة. كل نظرة كانت تخترقني،

وكل شخصٍ يقترب رجلاً كان أم امرأة أم حتى طفلاً كان يثير في نفسي رعبًا لا يوصف.

وما إن وطأت قدماي عتبة بيت والديّ، حتى هدأت نبضات قلبي المضطرب، وحين رأيت والدي، ضمني إلى صدره بقوة، وهمس في أذني: "تماسكي يا ابنتي، خُلق الإنسان ليشكر ويصبر." يا لها من كلمات! كانت كبلسمٍ لروحي المكلومة، كدفقةٍ من الثقة والأمان في لحظةٍ كنتُ أحوج ما أكون إليها.

سقطت دمعةٌ صامتة على كتف أبي، لم يشعر بها، لكنها حملت معها كمًا هائلاً من التوتر والاختناق الذي كاد يخنقني. جلستُ بعدها بجوار أمي، وديمة تتربع على قدم جدها، حين سألتني أمي بصوتٍ خافت كأنها تخشى أن تنكأ جراحي: "ما هي أخبار أسامة؟"

أجبتُها وعيناي تغوصان في الأرض: "لقد تم حبسه أربعة أيام." لم تعلق، لكن والدي، الذي سمع حديثنا، قال بحكمة، دون أن تلحظ ديمة: "هذا أمرٌ طبيعي ولا يعني أي إدانة. لابد أن تتماسكي من أجل زوجك فهو يحتاج إلى أن تكوني صافية الذهن. شيمتك الجلد والإصرار والعزيمة في هذا الموقف العصيب."

وحتى لا أنهار أمام الجميع، هربتُ إلى غرفة نومي القديمة، لأجد أختي منة جالسةً على السرير، تهمس في هاتفها! على الأرجح مع خطيبها. ولأنني لستُ من هواة التطفل، وقفتُ أمام المرآة، أتظاهر بتفقد هيئتي.

ما هذا الوجه الذي يطالعني؟ شاحبٌ كورقة خريف ذابلة، وتحت عينيّ ظلالٌ سوداء خفيفة. شعرتُ للحظة أنني لستُ أنا، بل امرأةٌ أخرى، غريبة، مجهولة، لا تعرف نفسها حتى.

ما إن أنهت منة مكالمتها على عجل، حتى جلستُ بجوارها على السرير. وإذ بها تبدأ في الهمس كمن يُفشي سرًا خطيرًا. أخبرتني أن خطيبها علم بخبر القبض على أسامة، وأنه يُخفي الأمر عن أهله خشية أن يؤثر ذلك على علاقتهما.

يا لها من أنانية! لم تسألني حتى عن حال أسامة، بل اكتفت بسرد همومها الصغيرة. شعرتُ بموجة من الإحباط تجتاحني، وأدركتُ أنها تُحمّلني مسؤولية أي تعكير لصفو علاقتها بخطيبها وأهله.

شعرتُ بالاختناق من جديد، فتركتها وهرعتُ إلى الشرفة. استنشقتُ الهواء بعمق، محاولةً أن أطرد صوتها من رأسي. لكنني سمعتها تعاود الاتصال بخطيبها، فجلستُ على المقعد الخشبي، واضعةً يدي على سور الشرفة، ثم أسندتُ خدي عليهما.

وفجأة، كأنما فُتح باب الذكريات على مصراعيه. عادت بي الأيام إلى فترة خطبتي مع أسامة. تذكرتُ تلك السعادة الغامرة التي كانت تملأ قلبي، والحب العميق الذي جمعنا.

يا إلهي! كم أحتاج إلى هذا الشعور الآن! في خضم هذه العاصفة التي تعصف بحياتنا، ها هي ذكرى حبنا تشع كشعاع شمس يخترق الغيوم.

وفجأة، كأنما الريح العاتية هبت فجأة، فعمّ الفزع والاضطراب، لمحت في الشرفة المقابلة ذلك المخلوق العجيب، عواض، ومعه ابنه الصغير ذو التسع سنوات. آه من عواض! ذلك الكائن الذي طاردني بطلبات زواجه المتكررة قبل أن يتزوج، والذي رفضته بكل قوة عقلي وقلبي مدعومةً بتأييد أهلي الحكيم.

يا له من مشهد غريب! عواض، ذلك الرجل القصير الذي يشبه كرة أرضية وُضعت رأسياً، برأسٍ محمولة على جسد يفتقر إلى العقل المتزن. حاصل

على الشهادة الابتدائية، إن صح ذلك أصلاً، ويعمل حداداً لصناعة بوابات المنازل.

والآن، ها هو يقف في شرفته، يخاطب ابنه عيد بصوت جهوري يشبه صوت جني مصباح علاء الدين: "ألم أقل لك يا عيد أنك سوف تندم أصبح الآن ليس لك غيري." ثم أطلق ضحكة كأنها صادرة عن فرس النهر وهو يفتح فمه الضخم ليلتهم حزمة برسيم.

ثم أكمل بنبرة متعالية: "وعلى كل حال يا عيد أنا في الخدمة في أي وقت من جنيه إلى مائة ألف جنيهاً. اسأل عليّ من أجل أن نفسي بتصعب عليّ. وكما ترى أنت، أنا نظيف، ولست من رواد السجون ولا يحزنون." وعاد يضحك بنفس الطريقة البشعة.

يا إلهي! أهذا هو الوضع الذي وصلنا إليه؟ أن يتشمت بنا أمثال عواض؟ أن نصبح مادة للسخرية لهؤلاء البلهاء.

لكن! ألم يقل الحكماء إن المرء يُعرف بأعدائه كما يُعرف بأصدقائه؟ فإن كان عواض هو من يشمت بنا، فهذا يؤكد لي أننا على الطريق الصحيح. فنحن، أنا وأسامة، أرفع وأنبل من أن نكون محل إعجاب أمثال هؤلاء.

ولجت من الشرفة، وأنا أهز رأسي في سخط بالغ، ولساني يلهج بكلمات مُرّة: "ألا قُبحًا لسخافة ذاك الأحمق، لكأن العقل قد نأى عنه!" فبادرتني منة بالسؤال، وقد وضعت على وجهها قناعًا من المرطبات بعد إنهائها حديثًا هاتفيًا مع خطيبها: "ما خطبُكِ يا غادة؟ ما الذي دفعكِ لإيصاد باب الشرفة بهذه الشدة؟"

فأجبتُها، ونيرانُ الغضب تضطرم في صدري: "ذاك الأحمق عواض! كيف تسنّى له العلمُ بأمر القبض على أسامة؟ وها هو ذا يُطلق لسانه

المريض بحديثٍ سخيفٍ مع ابنه، موجهًا سهام كلامه إليّ بطريقةٍ ملتوية متشدقًا بفصاحةٍ مُصطنعة وبلاغة مُتكلّفة"!

فانبرت منة، وأناملها تعبث بأظفارها قائلة: "لقد غدت أمي إلى المخبز في صباح هذا اليوم، فصادفت خالتك هناك. وما إن استفسرت خالتك عن صحة الخبر، حتى سارعت أمي بتأكيده. وكأنما كان ذلك شرارة أشعلت ما كان هامدًا، فانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وغدا حديث الناس جميعًا".

فهتفت في سخطٍ يكاد يحرق الأحشاء، ونفسٍ تلهث بصعوبة من شدة الغضب: "خالتك! وا حسرتاه على قلبي المكلوم! أوَقد انضمت هي الأخرى إلى زمرة الشامتين بي؟ فها أنا ذي أسقط كالذبيحة في مرمى سهام الحقد والضغينة، والقوم جميعًا يشحذون سكاكينهم استعدادًا لنحري"!

لتنطق منة بكلمات ملتهبة، كأنها تلقي خطابًا سياسيًا حماسيًا، بعدما استشعرت انتماءها لصفوف الحزب: "أرجوكِ يا أستاذة غادة، لا تحملي كلماتي محمل الغضب. إن حديثي عن أسامة لم يكن إلا صرخة تحذير، صوتًا يصدح في ظلمة هذه القضية الشائكة. أردت فقط أن أوقظ في داخلك إدراكًا عميقًا لحجم هذا الأمر الجلل، فهو ليس بالهين أو العابر، بل هو كالجبل الشامخ في ثقله وخطورته." فقلت لها وأنا أعقد يدي الاثنين حول صدري: "هل أصبحتِ محامية وأنا لا أعلم واستطاعتي أن تقدري حجم القضية؟"

لتقل وهي تهز رأسها في استنكار: "لا يا أستاذة غادة، أختك نهى هي التي قالت ذلك، مؤكدة أن المحامي الذي يعمل مع زوجها أخبرهم أن الأمر خطير، وهذا النوع من القضايا معقد جدا".

فقلت لها في استهجان: "الآن فهمت، من الواضح أن الحديث المجمع لكم اليوم كان حولي".

فقالت: "ليس كذلك بالضبط، لكن الكل يريد أن يعرف إلى أي اتجاه سوف تذهب قضية زوجك".

فقلت في حدة: "ما شأنكم أنتم بقضية أسامة، لتشغل كل واحدة منكن بالها بحالها أفضل".

فقالت لي بنبرة ازدراء: "كيف ذلك؟ أختك إيناس قالت إنه من الممكن حبسك أنتِ الأخرى، لأن إخفاءك لمبلغ كبير مثل هذا يعتبر جريمة وأكدت ذلك نهى، لأن بذلك أنتِ مشتركة معه في الجريمة".

انهمرت دموعي ولكن بداخلي وقلت وأنا مصدومة مما قالت: "حسبي الله ونعم الوكيل، جعلتموني سارقة في لحظة، وأسامة أصبح هو الآخر لصا، كيف تفكرون مثل هذا التفكير المريض؟"

لتقول مستنكرة: "بالطبع لا، هذا مجرد هراء، أنا وبابا ووسام وماما رفضنا هذا الوسواس الذي توسوس به نهى وإيناس لنا، ولكن العيار الناري الذي لا يصيب يفتح بابا للنميمة، والتكهنات".

فتردد صدى صوت نهى في أرجاء المنزل، كأنه قذائف مدفعية تدك الجدران. انطلقت كلماتها نحو أبي، مفعمة بالتهكم والمرارة: "لماذا لم أشهدك يومًا تداعب ابنتي زينب فوق ركبتيك، كما تفعل الآن مع ديمة؟ أترى في ديمة عسلاً وفي زينب قاذورات؟"

ارتعدت ديمة من هول صوت خالتها، فهرعت نحوي مذعورة. كانت دائمًا تتحاشى التواجد مع خالتها في مكان واحد، خشية من نبرات صوتها العالية.

اقتحمت نهى الغرفة بينما كنت أحاول تهدئة روع ديمة، مؤكدة لها ألا تخشى صوت خالتها. أخبرتني نهى أن زوجها رآني أمر من أمام المقهى الذي يرتاده باستمرار، فعلمت بوجودي في منزل أبي.

طلبت نهى من ديمة أن تخرج للعب مع زينب بجوار جديهما، حتى لا تسمع حديثنا. غادرت ديمة مسرعة، وهي لا تكاد تصدق طلب خالتها.

رغم الاختلاف الشاسع بين سلوك ديمة وزينب، لم أعترض على اجتماعهما. كان ذهني مشغولاً بالتكهن حول سبب مجيء نهى وإصرارها على الحديث بعيدًا عن مسامع ديمة. لا شك أن أمرًا جللاً ومريبًا يلوح في الأفق!

خرجت ديمة، وجلست نهى بعدها، وبدأت تسرد أحوال عماد بعد علمه بخبر القبض على أسامة. وصفت الخبر كأنه زلزال هز أركان حياته وقلبه رأسًا على عقب. روت كيف تشاور عماد مع محاميه الذي يدير قضايا المتعثرين في السداد، كمن يبحث عن طوق نجاة لأسامة.

أخبرتني أن المحامي صدم عماد بإعلامه أن هذه قضية رأي عام، وأن موقف أسامة فيها بالغ الصعوبة. كانت الصدمة كالصاعقة على عماد أصابته بالذهول والحسرة.

ثم انتقلت نهى لتخبرني عن استعداد عماد للذهاب مع هذا المحامي إلى قسم الشرطة حيث يُحتجز أسامة، للوقوف بجانبه وبذل قصارى جهده في الدفاع عنه.

أخذت نهى تسهب في مدح المحامي، واصفة إياه بذي الخبرة الواسعة والمعرفة العميقة بالقانون والبراعة الفائقة. أكدت أنه يعرف الأساليب الملتوية للتعامل مع الثغرات القانونية، مستشهدة بنجاحه في إخراج عماد من قضية تعاطي وحيازة عقاقير مخدرة بفضل خبرته وذكائه.

أجل، عماد قرين نهى، ذاك الذي يزفر سموم الأفيون في محيا الوجود ويغوص في لجج المسكرات. ارتضت نهى الاقتران به، رغم إدراكها التام لحاله. شقيقتي نهى، تلك الفاتنة المنعمة، التي لُقبت بأميرة القصر كانت درة الجمال في ربوعنا قاطبة. ورثت محاسنها عن جدتي، والدة أبي، التي يُروى أن أصولها تنحدر من بلاد الأتراك.

كانت تمتلك مقلتين كزرقة اليم في صفائه، وذوائب كستنائية ناعمة تنسدل كشلال، وقواماً ممشوقاً كغصن البان. بلغ جمالها حداً جعل والديَّ يخصانها بعناية فائقة، نظراً لروعة حسنها الآسر.

دُهل الجميع حين أعلنت نهى عزمها على الزواج من عماد، ذلك الرجل الذي كان أشبه بفأر شارد، لا يفقه من الحياة سوى تكديس الأموال، والانغماس في مقامرة محمومة، والإدمان على المخدرات المهلكة.

فتَن عماد نهى بورقة اليانصيب التي حازها، ورشة الرخام الموروثة عن أبيه، وحفنة من المال ضغط عليها بأنامله حتى كادت تئن. بهذا السحر الزائف أقنعها بالاقتران به، فانقلبت على أبوينا بتهديد صارخ إن حالا دون زواجها بعماد، فستبتلع من العقاقير ما يكفي لإزهاق روحها.

كانت نهى فتاة جامحة الإرادة، تفرض هيمنتها على الجميع بصرخة مدوية تخرس كل الألسنة. وهكذا، هوت نهى في غرام رجل لا يستحق ذرة من ترابها، رجل أدمن السموم وأهمل مشاعرها. تزوجته رغم تحذيرات الجميع، وما هي إلا برهة حتى حملت بزينب.

وما إن بدأ جمالها يتوارى خلف ملامح الحمل، حتى تجلى عماد على حقيقته القبيحة. أصبح المقهى مسكنه الدائم، يقامر ويتعاطى المخدرات حتى يغيب عن الوعي، مما أجج نار الخلافات بينهما.

جميعنا نعلم خفايا علاقاته المشبوهة مع نساء الحي، ونزواته المتعددة التي أثارت سخط الناس. ورغم هذا كله، كانت نهى ترى في استمرار زواجها ضمانًا لأمومتها واستقرارها المادي. فهي تنعم بفيض من المال تشتري به ما تشاء، ناهيك عن خمسة عشر سوارًا من الذهب تزين معصميها.

بيد أن هذا الثراء الظاهر لم يسد فراغ قلبها المتعطش للحب والدفء الأسري. كانت دائمة العقد للمقارنات بين أسامة وعماد، تقيس الماديات والملابس الفاخرة، وتوازن بين ديمة وزينب، وبين بيتي وبيتها. كانت مقارناتها تثير حنق الجميع في البيت، إذ يرونها وهمًا تكذب به على نفسها. لكن لا أحد يجرؤ على مصارحتها، تجنبًا لإثارة المشاكل.

وكان السبب الأعظم لغضبها المستمر تجاهي هو الفارق في المستوى التعليمي بيننا..

بعد زواج نهى، لاحظت تغيراً سلبي في اهتمامها بنفسها، وكأنها صارت تركز على حياتي بدلاً من حياتها. تدهورت صحتها وزاد وزنها، حتى أصبح الناس يطلقون عليها "زوجة المِعلم" أو "المِعلمة."

صاح صوت نهى مقتحماً شرودي، سائلة: " ماذا قلتِ؟". استفقت من غيبوبة أفكاري متسائلة: "في ماذا؟". فأردفت: "هل أجعل عماد يذهب ويتفق مع المحامي؟ ."

أجبتها بنبرة فاترة: "لا داعي، فالأستاذ كمال محامٍ وهو زوج خالة أسامة، وقد تولى أمر القضية."

عندها، وكعادتها المعهودة، بدأت نهى تنسج خيوط المقارنة بين أسامة وعماد، قائلة بلهجة واعظة: "يا غادة، افهمي. عماد أخبرني أن أسامة في قضية كهذه قد يُحكم عليه بعشر سنوات سجن. هذا ما قاله المحامي صديقه."

واصلت حديثها بنبرة متعالية: "القضية كبيرة، ليست مجرد سيجارة حشيش أو حبتي مخدر يُحكم فيها بالبراءة أو بستة أشهر على الأكثر. زوجك يا غادة غاص في البحر الغريق، بل الغريق العميق جداً."

ابتسمتُ لها ابتسامة واهية تخفي وراءها جبالاً من الألم، وقلت بصوت يحمل في طياته أنين الروح المكلومة: "حقاً ما تقولين، لو كان أسامة قد اقترف ما نُسب إليه". كنت كشجرة تعصف بها الرياح، متماسكة الظاهر، متصدعة الجوهر. ألمٌ عميق نخر قلبي من مواقف أخواتي الثلاث، وتساءلت في أعماق نفسي المضطربة: "أين تقف وسام، أختي الوحيدة الباقية، من هذه المحنة العاصفة؟"

أسندت نهى ظهرها إلى السرير.، وقالت بنبرة الحكيم المتعالي: "لا تخدعي نفسك يا غادة. أيعقل أن يكون كل ما تناقلته الصحف وتداولته الشبكة العنكبوتية محض افتراء؟ رغم أن أسامة رجل فاضل، إلا أنه في النهاية ليس بمعصوم كما كان يُشاع عنه". ثم أردفت: "إن قصدي من كلامي هذا تنبيهك وتحذيرك. وأنتِ، مهما جرى ومهما اختلفنا تظلين أختي الكبرى". سألتني: "أليس كذلك؟"

أومأت برأسي موافقة: "بلى، هو كذلك!" لكن في أعماقي، أدركت أن نهى قد وضعت يدها على موضع الجرح وراحت تذر عليه الملح. هي تعلم أن الملح يزيد من نزيف الجرح ويعيق التئامه، لكنها تجهل أنه عند احتمال الألم، قد يساعد الملح على كيّ الجرح وشفائه في نهاية المطاف.

نهضت نهى ووقفت أمامي، فتحت حقيبتها وأخرجت منها لفافة من النقود. استلت جزءاً منها وقالت: "خذي هذه الخمسمائة جنيه من عماد، احتفظي بها. لقد أقسم عليّ أن أسلمك إياها". أضافت: "وقال إنه لا بد من الوقوف إلى جانب غادة لأنها الوحيدة الرزينة العاقلة بينكن. لا يدري ابن المجنونة

أنه سبب جنوني". قالتها على سبيل المزاح، فقد اعتدت منها مثل هذا الكلام.

رفضت قبول النقود قائلة: "حالنا ميسور بفضل الله. إن احتجت للمال فسأخبرك. نحن كما قلتِ أخوات، والظفر لا ينفصل عن اللحم أبداً". أغمضت عيني وأنا أرد يدها حاملة النقود، مؤكدة: "خير أسامة ما زال يظللنا."

فُجئتُ بصراخ ديمة يشق سكون الدار، فهرولتُ إلى الصالة كطائرٍ مذعور. ما إن وقعت عيناي على وجهها المبلل بالدموع حتى انخلع قلبي من مكانه. سألتها بلهفة الأم المفجوعة: "ما الذي أصابكِ يا ديمة؟"

أجابت بصوتٍ متهدج: "زينب خربشتني في يدي." نظرتُ إلى موضع الأذى فرأيتُ جرحاً سطحياً، لكنه رسم ثلاثة خطوط متوازية على بشرتها الغضة.

التفتُ نحو زينب، والغضب يستعر في أعماقي كبركانٍ ثائر، لكنني كبحتُ جماح انفعالي وسألتها بصوتٍ يحاول أن يكون هادئاً: "لِمَ فعلتِ ذلك بديمة؟"

أسرعت زينب، كغزالٍ فارٍ من صياد، واختبأت خلف نهى. رفعتُ عينيَّ إلى نهى، فإذا بي أرى ابتسامة تعلو شفتيها، والفرحة العارمة تسكن عينيها كنجمتين متوهجتين.

تمالكتُ نفسي، وأنا أحاول أن أفهم هذا المشهد المؤلم. هل هو انعكاس لما يجري في حياتنا الآن؟ أطفال يؤذون بعضهم، وكبار يفرحون بألم الآخرين؟

انبرت نهى بنبرة استفزازية كصواعق البرق: "ما بالكِ يا غادة؟ إنهم مجرد أطفال يلهون. ابنتكِ ديمة مفرطة الحساسية. إن أردتِ لها القوة فأطعميها شوربة الكوارع أو لحم الرأس"!

تصاعد الغضب في صدري كبركان ثائر، لكنني كظمت غيظي وأجبت بصوت يحاول كبح جماحه: "أهذا ما يشغل بالكِ حقاً؟"

تبدلت ملامح نهى، وكأن قناعاً قد سقط عن وجهها، فتجلت شخصيتها الحقيقية. ارتفع صوتها كصفير الريح العاتية: "ما بكِ يا غادة؟ أتتخذين الأمر بجدية؟ أتقيسين عقلكِ بعقل طفلة صغيرة؟"

نظرت إليها، والغضب يتأجج في أعماقي كنار مستعرة، راغبة في صب جام غضبي عليها. لكن طبيعتي أبت عليّ ذلك، فأنا لست ممن يجدون في الصراخ والسباب سبيلاً للانتصار في المشاحنات والمجادلات.

أخذت نفساً عميقاً، محاولة استجماع شتات نفسي، لكن الكلمات أبت أن تخرج من حنجرتي.

فطنت أمي لأبعاد الموقف من ملامح وجهي، نظرت إلى نهى بعينين تشعان غضباً مكبوتاً، وقالت بصوت شبه مرتفع، لكنه رفيع كخيط حرير: " توقفي عند حدك يا نهى، فقد تجاوزتِ كل الحدود، بصراحة، ابنتكِ قد تجاوزت حدود الأدب. أنا جالسة هنا وأرى كل شيء. لقد أصبحت ابنتكِ عدوانية بشكل مفرط".

قالتها وبدأت تلتقط أنفاسها بصعوبة، كمن كان يصارع الأمواج وصعد للتو من أعماق البحر. أمي، هي الأخرى، لا تقوى على المواجهة حتى لو كانت مع ابنتها. حياؤها الجم يقف حائلاً بينها وبين مصارحة أي كان. ظهر ذلك جلياً رغم محاولتها التصنع بخلاف ذلك، حتى لا تدرك نهى هذا الضعف فتستغله لصالحها.

جثوتُ على ركبتيَّ، وعيناي تغوصان في بحيرتي دموع ديمة المتلألئتين. بأناملي المرتعشة، شرعتُ أمسح قطرات الألم المنهمرة على وجنتيها كلؤلؤٍ متناثر. وما إن سكنت عاصفة أحزانها، حتى همست بصوتٍ يشبه حفيف أوراق الخريف: لقد خسرت زينب بسرعة في اللعبة الإلكترونية." فانفرجت شفتاي عن ابتسامةٍ واهنة، لكنَّ زينب، كطلقة البندقية، أطلقت كلماتها الجارحة: "يا ابنة الكلب"!

صُعقتُ كمن مسّته صاعقةٌ من السماء، لسبها لأبى، فزجرتُها بصوتٍ يرتجف غضباً: "لن ألعب معكِ، لأنكِ تتفوّهين بقبيح الكلام؟" فانقضَّت عليَّ، تمزّق يدي بأظافرها الحادّة. حوَّلت بصري المذهول إلى أظافر زينب المخيفة، ثم التفتُّ إلى نهى، وعيناي تقدحان شرراً: "أهذه أظافرُ طفلةٍ أم مخالب وحشٍ كاسر؟"

تلوّى فمُ نهى في ابتسامةٍ، وردَّت بنبرةٍ تقطر سُمًّا: "ما بالكم تنهالون على قطتي الوديعة كالذئاب الجائعة؟ أتظنُّون ديمة ملاكاً هبط من السماء، وزينب شيطاناً رجيماً؟" ثم أشارت بيدها ساخرة: "ياي ياي! انظروا إلى أميرات البلاط الملكي"!

قاطعتها أمي، محاولةً كبح جماح هذا الطوفان الهادر، فقالت بصوتٍ يحمل رنين الفولاذ: "كفى عبثاً أيتها المتجنية! لو تحلّت ابنتُكِ زينب بذرّةٍ من أدب ديمة، لتبدّل حالُها من الحضيض إلى الثريّا".

استمدَّت زينب جرأةً من كلمات أمها الجوفاء، فصرخت كالرعد القاصف: "وما العيب في قولي؟ أليس أبي من يُمطر أمي بوابل السباب 'يا بنت الكلب' في كل حين؟"

تصلّبت نهى كتمثالٍ من الصقيع، التفت أبي، نحوها بعينين تشتعلان غضباً: "أيطال السباب مقامي أيضاً؟ أهذا جزاء من ربّى وأحسن، يا من تدّعين الأمومة؟"

في تلك اللحظة، تحطّم قالبُ الجليد المُحيط بنهى، وصرخت بصوتٍ يزلزل أركان البيت: "نعم! في نهاية المطاف، سأكون أنا الشيطان الرجيم، وسليلة الكلاب! أما غادة وديمة فهما جوهرتا التاج الملكي!" ثم أردفت، والسُم ينزّ من كل حرف: "وماذا عن أسامة، زوج غادتكم المصونة، الذي لطّخ سمعتنا بوحل العار؟ هل تجرؤون، يا من تدّعون الأبوّة والأمومة زوراً وبهتاناً، على مواجهة غادة بفضيحة زوجها المدوّية؟ أي ذي جلد فيكم يقوى على مكاشفتها بحقيقة الأمر؟ فوالله لقد آل بنا الحال إلى أن نطرق رؤوسنا خزياً وعاراً حين يلفظ اللافظون اسم زوجها على مسامعنا. أضحى ذكر اسمه وصمة عار تثقل كواهلنا وتلجم ألسنتنا بسياط الخجل والهوان. كفى نفاقاً! لن تطأ قدماي عتبة هذا البيت الموبوء ثانيةً. هلمّي يا زينب"!

وبتلك الكلمات النارية، اندفعت نحو الباب كإعصارٍ هائج، صافعةً إياه بقوةٍ زلزلت أركان المنزل، وهي تزمجر كالرعد: "تبًّا لهذا المكان المقزز"!

خيّم الصمتُ كستارٍ ثقيل، وأنا أقرّب وجهي من وجه ديمة الشاحب كأنني أستجدي منها الحكمة في هذا الموقف العصيب. لقد أشعلت نهى فتيل الفتنة ثم انسحبت، محققة ما كانت تصبو إليه منذ البداية. بعزمٍ لا يلين، توجُّهت نحو باب الشقة، ممسكاً بيد ديمة الصغيرة وحقيبتي الشخصية تثقل كتفي كهمّ جاثم. لكنّ أمي هرولت لتقف حائلاً بيني وبين الباب، محاولةً ثنيي عن قراري. قالت بصوتٍ يمتزج فيه الرجاء بالحزم: "إلى أين المفر يا بُنيّتي؟ أما زلتِ لا تعرفين طباع نهى؟ إنها كالعاصفة الهوجاء، لكنها سرعان ما تهدأ كطفلة وديعة. غداً، مع بزوغ الفجر، ستجدينها هنا نادمة".

أجبتُها، وقد تسلّل الشك إلى نبرة صوتي: "لا مفرّ من الرحيل. تذكّرت للتو أنّ عليّ إحضار بعض الأغراض من المنزل، فأسامة سيحتاج إليها عند زيارته." نظرت إلى ديمة بعينين مليئتين بالحنان، وقالت: "ابقي الليلة هنا، وفي الصباح سأرافقكِ إلى البيت. سأعتني بديمة ريثما تعودين".

للحظة، كدتُ أستسلم لإغراء عرضها، لكن صمت أبي المريب أيقظ في داخلي إحساساً مريراً بأنّ وجودي غير مرغوبٍ فيه. أدركتُ أنّ محاولات أمي ما هي إلا من منطلق "عزومة المراكبية" كما يقول المثل الشهير. عقدتُ العزم في قرارة نفسي على العودة إلى منزلي في هذه الساعة المتأخرة، وقد استحال قراري صخرةً لا تتزحزح.

ما إن وطأت قدماي عتبة البيت، حتى انهمرت دموعي كشلالٍ هادر لكن في صمتٍ مطبق، خشية أن تلحظ ديمة حزني الدفين. كلما عاودني طيف موقف أبي الصامت، وكلمات نهى ومنة الجارحة، ازداد نهر الدموع فيضاناً.

وفي خضم هذه الظروف العصيبة، أدركتُ أنني وابنتي قد نُصبح عبئاً ثقيلاً عليهم، حتى لو رحّب الجميع بوجودنا في البيت ظاهرياً. لكن كما يقول المثل الشهير: "من لا يرى من الغربال فهو أعمى." فالحقيقة جلية لمن أراد أن يبصر، وإن حاول البعض إخفاءها خلف ستار المجاملات.

وفجأة، شق صوت الأذان سكون الفجر، فانسابت في روحي سكينةٌ غامرة. جلستُ بجوار ديمة، بعد أن أدرت التلفاز على قناة القرآن الكريم، رافعةً صوته ليملأ أرجاء الغرفة بآياتٍ عذبة. ما هي إلا لحظات حتى غلبني النعاس، وغرقتُ في سباتٍ عميق.

(٤)

استيقظتُ قرابة الثانية عشرة ظهراً، وعيناي تبحثان عن ديمة بجواري. لم أجدها، فنهضتُ من فراشي كالملسوعة، أنادي باسمها. وجدتُها جالسةً في الصالة، عيناها معلقتان بشاشة التلفاز تتابع رسوماً متحركة. ابتسامتُها البريئة بددت ملامح الفزع التي ارتسمت على وجهي.

تناولنا طعامنا معاً، ثم شرعتُ في إعداد وجبة لأسامة من طعامه المفضل. كويتُ له ملابسه التي يحتاجها، وما إن انتهيتُ حتى رن هاتفي معلناً اتصال أمل، تخبرني أنها في طريقها إلي ميدان التحرير. كانت الساعة تقارب السادسة مساءً.

توجهتُ إلى شقة أختي وسام، حيث استقبل ابناها التوأمان، سيف وهيثم، ديمة بفرحٍ غامر. كان سرورها لا يقل عن سرورهما، فهم في عمرٍ متقارب. جلستُ مع أختي قرابة العشر دقائق، تسألني عن أحوال أسامة، مؤكدةً إيمانها ببراءته وضرورة وقوفي إلى جانبه.

أخبرتني وسام أنها كانت تود مرافقتي لولا انشغال زوجها وليد بعمله في شركة الطيران. وأضافت بأسى: "نظراً لمتطلبات الحياة، يضطر للعمل حتى يومي الجمعة والسبت. لولا ذلك، لكنتُ ذهبتُ معكِ وتركتُ الأولاد في رعايته".

نظرتُ إليها نظرةً مفعمةً بالامتنان، وقلتُ: "يكفيني هذا الشعور النبيل تجاهي وتجاه أسامة." في الحقيقة، كنتُ أنتظر على أحر من الجمر أن يفهم أحد إخوتي أبعاد محنتي ويدرك عمق معاناتي.

شعرتُ بدفء الأخوة يسري في عروقي، وأدركتُ أن في هذه اللحظات الصعبة، يكون وجود من يفهمك ويساندك، حتى ولو بكلمة طيبة، بمثابة

شعاع نور في ظلمة دامسة. تجددت قواي، وأنا أستعد لمواجهة التحديات القادمة، مدركةً أنني لستُ وحيدة في هذه المعركة.

توجهتُ صوب ميدان التحرير، مستغرقةً في رحلةٍ امتدت قرابة الساعة ونصف. انتظرتُ أمل فترة ليست بالقليلة حتى وصلت حاملةً معها وجباتٍ وعصائر ومياهاً معدنية. انتابني شعورٌ بالندم إذ نسيتُ إحضار المياه. توجهنا سوياً نحو القسم حيث استوقفنا عسكريٌ واقفٌ على بابه. للمرة الأولى في حياتي وجدتُ نفسي أمام قسمٍ للشرطة، أتأمل تفاصيله بفضولٍ ممزوج بالقلق.

خاطبنا العسكري، أو كما يُطلق عليه "سيادة الأمين"، متسائلاً: "إلى أين تقصدان؟" فأجابت أمل بصوتٍ ثابت: "أخي متحفظ عليه هنا منذ أمس الأول، اسمه أسامة فؤاد الشايب، وهذه زوجته." حدّق فينا الأمين متفحصاً، ثم أعلمنا: "موعد الزيارة في العاشرة مساءً، والساعة الآن التاسعة. لا يزال أمامكما ساعةٌ كاملة".

توجهنا أنا وأمل إلى قلب المدينة، وبعد فترة من الصمت قالت أمل بنبرةٍ حانية: "لقد تقدمت والدتي في السن، ولا بد أن نتحملها. فهي أمٌ تحب ابنها مثلما تحبين أنتِ ابنتك." ثم أردفت قبل أن أتمكن من الرد: "أعلم أن إنعام لم تكن محقة في تدخلها في شؤون أسامة واختياره لشريكة حياته. لكن الجميع وقف ضدها حتى اقتنعت في النهاية، وقصة حبك أنتِ وأسامة تجعلك تسامحين إنعام مهما فعلت،".

قلت لها وقد أقنعتني من الزاوية التي لا أستطيع الجدال فيها: "إذن سأحاول مرة أخرى كسب رضاها من أجل أسامة. فهو لا يستحق كل هذه الضغوط أو الصراعات من حوله، ويكفيه ما هو فيه. إنه بحاجة إلى دعائها أكثر من أي وقت مضى".

قالت لي إنها تريد مني شيئاً آخر، فسألتها عمّا تريد. أجابت: "أرجوكِ ألا تخبري أسامة عما حدث ليلة القبض عليه، فهذا سيؤثر عليه سلباً".

تذكرت ما حدث وكأنه يحدث الآن، وبالفعل لم أكن أنوي إخباره بكل ما جرى. هززت رأسي موافقة: "لم يحدث شيء أصلاً لأخبره به".

عدنا أدراجنا إلى القسم، والليل يلفظ أنفاسه الأخيرة قبيل العاشرة. فإذا بنا نصطدم بحشد بشري يمتد كالأفعى الرقطاء.

اقتربت أمل من فتاة تزينت كأنها عروس الليل، لا زائرة سجين. سألتها عن سر هذا الطابور الممتد، فأجابت والعلك يرقص على شفتيها: "إنه طابور الزيارة". تبادلنا أنا وأمل نظرات الدهشة والاستغراب. أكل هؤلاء يأتون لزيارة محبوسين؟ فكم عدد النزلاء إذن في هذا القسم المكتظ بالأرواح المعذبة؟

استطردت الفتاة بنبرة ساخرة: "أنتم جدد في هذه المهنة أم ماذا؟" فانفجرت صديقتها ضاحكة، ضحكة جلجلت في أرجاء المكان، فأثارت فضول الحاضرين. فسألتُ أمل في حيرةٍ تعصف بكياني: "ما الذي يثير ضحكهنّ هكذا؟ ألا يدركن أننا في مكانٍ يغشاه الحزن ويكتنفه الهمّ من كل جانب؟"

فأجابتني أمل، وهي تشدّ على يدي بحنانٍ وتقودني نحو نهاية الطابور المترامي الأطراف: "دعكِ منهنّ يا غادة. إنّ مظهرهنّ ينمّ عن كونهنّ من طائفةٍ لا تُحمَد عواقبها، فسألتها مستفسراً" ماذا تعنين بقولكِ هذا يا أمل؟ أيّ طائفةٍ تلك التي تتحدثين عنها؟

فأجابت بصوت خافت: "يبدو أنهن يمتهن الدعارة."

تصلبت ملامحي دهشةً واستغراباً، وسرت في جسدي قشعريرة كأن جيشاً من النمل يزحف من قدمي إلى رأسي. هتفت في نفسي: "أحقاً يوجد نساء كهؤلاء؟ أما كان ما نراه في الأفلام مجرد خيال؟"

ابتسمت أمل ابتسامة شاحبة، وقد عاد إليها بعض لونها بعد صدمة الحادث: "أي بنات تتحدثين عنها يا غادة؟ إنهن بائعات الهوى! اصمتي قليلاً، فكلامك يجعل ضغطي يرتفع."

أجبتها متسائلة: "أحقاً أنا ساذجة إلى هذه الدرجة؟" فردت ساخرة: "السذاجة نفسها تخجل من الانتساب إليك يا عزيزتي. من هم مثلك انقرضوا منذ زمن بعيد، ومكانهم الآن في المتاحف."

ثم أردفت وهي تنظر باتجاه الفتيات: "إنهن حفنة من النفايات البشرية، يتاجرن بأجسادهن من أجل المال. أتعلمين ماذا يعني أن تبيع المرأة جسدها؟ يعني أن كل سكير أو مدمن ينهش في لحمها لنصف ساعة أو ساعة مقابل مئة جنيه. قد تنام الواحدة منهن مع خمسة أو ستة رجال في اليوم الواحد."

وأكملت بمرارة: "كما ترين، أصبح الأمر عادياً بالنسبة لهن. لم يعد يفرق معهن الحرام من الحلال، ولا كلام الناس. كل ما يهمهن الآن هو المال وتعاطي المخدرات."

تجمَّدت في مكاني، وقد صُعقتُ بكلمات أمل كأنها صاعقةٌ هبطت من السماء. همستُ بصوتٍ مرتجف: "هل تقصدين... عقاقير مخدرة وحشيش تتناوله الفتيات؟"

ردّت أمل بنبرةٍ ساخرة: "وماذا كنتِ تظنين يا غادة؟"

شعرتُ بأن عالمي يتداعى من حولي. أجبتُها بصوتٍ خافت: "كنتُ أظن أنني سأعيش وأموت وأنا أرى العالم كله ملائكة".

ابتسمت أمل ابتسامةً مريرة وقالت: "لا يا أليس في بلاد العجائب، هذه هي أرض العجائب الحقيقية. وعلى يد أخي، سترين عالماً لم تتخيلي وجوده يوماً".

نظرتُ إليها في دهشة وقلت: "تتحدثين وكأنك تزورين الأقسام كل يوم"!

هزّت رأسها نافية: "لا، لكن هذا هو الفرق بين من عاشت في حي شبرا ومن عاشت في الأرياف. هناك خبرة مكتسبة كبيرة من الحياة اليومية في قلب القاهرة".

وأنا لا أزال أتشبث ببقايا سذاجتي، سألتُها: "يعني هؤلاء الفتيات يمارسن الدعارة حقاً وحقيقةً؟"

نفد صبر أمل وهتفت: "أتسألين هذا السؤال مرة أخرى؟ نعم، نعم أقسم لكِ بالطلاق"!

حاولتُ تبرير سؤالي: "أقصد... هل كل هؤلاء الواقفين يعرفون ذلك؟"

أجابت ببساطة: "بالطبع، إنه أمرٌ عادي هنا".

وقفتُ أحدّق في الحشد، فاغرةً فمي في ذهول. وكزتني أمل بكوعها في كتفي قائلة: "أمي وأبي وشذى قادمون".

ارتعدتُ لمجرد سماع اسم إنعام. سألتني أمل: "أإلى هذه الدرجة تخافين منها؟"

أجبتُها بتوتر: "لا، لماذا أخاف؟ لكن موضوع فتيات الدعارة شغل تفكيري".

نظرتُ حولي لأجد أن كلامها صحيح. وما إن وقعت عيناي على إنعام حتى انتابني شعورٌ غريب. تمنيتُ لو تنشقّ الأرض وتبتلعني. هل حقاً أصبحتُ أخاف من إنعام لهذه الدرجة؟ هل أصابتني "فوبيا إنعام"؟

قلتُ لأمل بارتباك: "لا أدري ما الذي أتى بهم، مع أنني أكدتُ لهم في الهاتف أننا سنذهب أنا وأنتِ اليوم، وهم غداً".

شعرتُ بأن عالمي يتغير بسرعةٍ مذهلة. في لحظاتٍ قليلة، انكشفت أمامي حقائق لم أكن أتخيل وجودها. وها أنا الآن، أقف على حافة عالمٍ جديد، مليءٍ بالتعقيدات والظلال، عالمٍ يبدو أن براءتي لن تجد لها مكاناً فيه.

وإذ بأمل تنسلُّ من الطابور كظلٍّ خفيف، متجهةً نحو والديها. التفتُّ خلفي لأجد بضعة أشخاص يقفون في صمتٍ ثقيل. ظلّت أمل واقفةً مع والديها أمام بوابة القسم، تتبادل الهمسات مع أمين الشرطة، شعرت وكأنهم يتآمرون على مصيري.

وما هي إلا لحظاتٌ معدودة حتى عادت إليَّ، عيناها مُطرقتان نحو الأرض، ونظراتها مُحمّلة بالتردد والحيرة. بدت وكأنها تُجاهد لتنتقي كلماتها بعناية، ثم نطقت بصوتٍ خافت كهمس النسيم:

"الزيارة... لن يُسمح إلا لأثنين بالدخول. العدد كبير جداً، والزيارات كثيرة. معذرةً يا غادة، عليكِ أن تتنازلي هذه المرة. دعي لهم الزيارة اليوم، ولكِ الغد".

في تلك اللحظة، شعرتُ وكأن جميع ثلوج العالم قد تساقطت فوق رأسي دفعةً واحدة. تذكُّرت تلك الموضة العابرة على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث يسكب الناس على أنفسهم دلاء من الثلج. ولكن ما أصابني كان أشد برودةً وقسوة.

حاولتُ أن أعترض، ولكن الكلمات تعثّرت على شفتيّ: "ماذا تقولين؟ لا بد... لا بد أن..." لم أستطع إكمال الجملة، لكن قلبي كان يصرخ: "لا بد أن أرى أسامة! لا بد أن أرى حبيبي وأرتمي في أحضانه"!

نظرت إليّ أمل بعينين مليئتين بالتفهُم والشفقة، وكأنها تقرأ يجول في خاطري: "أعلم يا غادة، أعلم. ولكن أنتِ تعرفين قلب الأم. هذه فرصة لكِ لتبدئي بمبادرة سلام مع حماتك. قدّمي لها هذا السبت، عسى أن تحظي بالأحد".

لم أجد في نفسي القوة للرد. أغمضتُ عينيّ في استسلام، وهي عادتي القديمة. لطالما فضّلت الآخرين على نفسي، عاجزةً عن الدفاع عن حقوقي.

وحين فتحتُ عينيّ، وجدتُ أن أمل قد انتزعت من يديّ كل ما أحضرته وكأنني قد خضعتُ لتنويمٍ مغناطيسي. رأيتها تسلِم كل شيء لإنعام وشذى، وكأنها تسلِم روحي معها.

وقفتُ هناك، مشدوهةً، أشعر بأن العالم يدور من حولي بسرعةٍ جنونية. كل ما كنتُ أعرفه، كل ما كنتُ أؤمن به، بدا وكأنه يتبخر أمام عينيّ. شعرتُ بنفسي تتلاشى، تذوب في خضم هذا العالم الجديد الغريب، عالمٌ لا مكان فيه للبراءة والسذاجة.

‘‘وفي تلك اللحظة، أدركتُ بعينين حادتين كغزال يراقب صياده، أنهم لم يحملوا معهم سوى حقيبةٍ صغيرةٍ تحوي ماءً، كأنها زادٌ لرحلةٍ في صحراء الحزن. عادت إليّ أمل مرةً أخرى، صوتها كهمسِ النسيم في ليلةٍ شتاء قارسة لا يوجد معنى للنسيم بها:

"لا تخرجي من الصف حتى نصل إلى البوابة".

وافقتُ صامتةً، ووقفتُ كتمثالٍ من الملح على شاطئ بحرٍ من الدموع. شعرتُ وكأنني قطعةُ شطرنجٍ جامدة، مهمتي الوحيدة هي تنفيذ التعليمات بحذافيرها، كجنديٍّ الشطرنج مستعدٍّ للتضحية عند أول إشارةٍ للخطر.

عندما وصلنا إلى البوابة، صاح أمين الشرطة بصوتٍ جهوري كرعدٍ في ليلةٍ عاصفة:

"لينتبه الجميع، السيدة هذه والرجل هناك، هاتان السيدتان يقفان مكانهما لأنهما كبار في السن. حتى لا يقول أحدٌ أن هناك محاباة".

همست أمل في أذني مرةً أخرى، كلماتها كقطرات المطر على زجاجٍ بارد:

"دعيها على الله. عندما تدخلين على حماتك، سلِّمي عليها بشكلٍ عادي جداً. كلنا حمواتنا يعاملننا بشكلٍ سيئ، لكن هذا هو قدرنا".

توجهتُ نحوهم، كفراشةٍ تطير نحو شعلةٍ محرقة. ولكن ما إن رأتني إنعام، حتى أسرعت نحو الداخل، ممسكةً بيد شذى بقوة كمن يتشبث بطوق نجاة.

نظر إليَّ عمي فؤاد نظرةً مليئةً بالتعاطف، عيناه كشمعتين واهنتين في كهفٍ مظلم، ثم توجه مسرعاً خلفهم، كظلٍ يلاحق أصحابه.

شعرتُ بدموعٍ حارقةٍ تتجمع في عيني، كبحيرةٍ جليدية تنتظر شمس الصيف لتذوب وتفيض. ولكنني حبستها بكل ما أوتيت من قوة، رافضةً الانهيار أمام هذا الحشد الغريب.

اقتربت مني أمل، وهمست بصوت خافت كنسيم الفجر: "شذى انضمت إليهم بعد أن أخذ الأمين خمسين جنيهاً". فتساءلت، وقد اعتصر قلبي ألم الحرمان: "ولِمَ لم يأخذ خمسين جنيهاً أخرى، وأدخل معهم؟ ألم أكن أولى بالدخول، أنا زوجته وشريكة حياته؟."

أجابت أمل، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة كغروب شمس كئيب: "على اعتبار أن شذى لا تزال في براءة الطفولة، فصِغَر قامتها يشي بصغر سنها. ربما رأوا في ذلك سبباً كافياً."

وقفنا أنا وأمل أمام القسم، وكأننا على شفا حفرة من الزمن.

خرجت علينا من أعماق القسم الفتاتان اللتان كانتا في الطابور، كأنهما شبحان من العالم السفلى تسللا إلى عالمنا. اقتربت إحداهما منا بخطوات متثاقلة، تتبعها الأخرى على مسافة، يصحبهما شاب يبدو من هيئته كأنه وردة نبتت في مستنقع الرذيلة.

طلبت الفتاة بصوت أجش: "هلا تكرمتِ بإعارتي قلماً وورقة؟" فأخرجت أمل من حقيبتها قلماً كأنه سيف تسلمه لمحارب في ساحة وغى. قائلة: "لا يوجد مع ورقة". ابتسمت الفتاة قائلة: "لا عليكِ" وأخرجت من حقيبتها علبة تبغ بها لفافة وحيدة، كأنها آخر شمعة في ليلة حالكة الظلام.

أشعلت اللفافة ثم قطعت العلبة، ونقشت عليها أرقاماً كأنها تكتب تعويذة شيطانية، ثم ناولتها للشاب قائلة بصوت كالفحيح:

"هاك رقم هاتفي. إن رغبت في صحبتي، فالساعة بثلاثمائة جنيه. وإن أردت اثنتين، فخمسمائة جنيه للساعة. وإن جئت بصديق، فلكل واحد مائتا جنيه. هذا لأنك من معارف القسم".

أخذ الشاب الورقة وأومأ برأسه موافقاً، كأنه يبرم صفقة مع إبليس نفسه، ثم انصرف مسرعاً، متواريًا عن الأنظار كطيف في وضح النهار.

عادت الفتاة وأعادت القلم لأمل قائلة: "شكراً لكِ يا عزيزتي، من أين أنتم؟" شعرت بالغثيان يتصاعد في حلقي كموجة من القطران الأسود. فقلت لها بلهجة تقطر سماً وحنظلاً:

"أيتها الفتاة، لقد استعرتِ القلم وحسب. فلتنصرفي الآن، ويسر الله أمرك".

ردت عليّ بصوت كصرير الأبواب الصدئة: "نعم؟" وكأنها مدت الكلمة على مدى دهر كامل.

هنا، تأهبت أمل كمحارب يستعد لنزال وشيك. لكن تدخل الأمين الواقف على البوابة كقاضٍ في محكمة الشارع، قائلاً:

"كفي عن هذا يا امرأة، أنتِ ورفيقتك. ما شأنكما بهؤلاء الناس المحترمين؟"

ردت عليه الفتاة بنبرة المظلوم: "لم أفعل شيئاً يا سيدي الشاويش. إنهم من يضايقوننا لأننا استعرنا قلماً منهم".

أمرها الأمين بالرحيل، محذراً من غضب المأمور وإمكانية تحرير محضر بالفجور. فردت عليه بتحدٍ مصطنع:

"افعل ما تشاء. لست ممن يخافون التهديد يا عم مسعود. ولكن إكراماً لك أيها الرجل الطيب، سننصرف. هيا يا سوسن".

وانصرفتا، تتمايلان كغصنين في مهب الريح، تاركتين وراءهما عبق العار والخزي. وقفت هناك، مصعوقة كمن أصابته صاعقة من السماء. أحقاً تحدثت للتو مع امرأة سافلة؟ بل الأفظع من ذلك، مع امرأة تتاجر بشرفها جهاراً نهاراً؟

تساءلت في نفسي، وعقلي يدور كدوامة في خضم بحر هائج: "أأنا في حلم أم في يقظة؟" شعرت وكأنني هويت في هوة سحيقة من الواقع القاسي، وأن كل ما ظننته حقيقة عن العالم قد تهشم كمرآة في لحظة واحدة، تاركاً خلفه آلاف الشظايا الحادة التي تجرح روحي وتدمي قلبي.

تسللت الأضواء الخافتة عبر نوافذ القسم المغبرة، كأنها تحاول أن تبث بصيص أمل في نفوس الخارجين للتو من زيارة سجين وقد أثقلت الهموم كاهلهم. خرج الثلاثة، إنعام وفؤاد وشذى، وقد علت وجوههم سحابة من الكآبة، كأنهم خرجوا من كهف مظلم إلى عالم لم يعودوا يألفونه.

وقفت على مسافة قريبة، قلبي يخفق بشدة كعصفور حبيس، وعيناي تترقبان بلهفة أي إشارة، أي كلمة، قد تحمل لي خبراً عن حبيبي المسجون. كنت كشجرة عطشى تنتظر قطرات المطر، متلهفة لسماع أي شيء عن زوجي أسامة.

أخذتني أمل من يدي وتوجهنا نحو الآخرين. كنا نشق طريقنا إلى محطة المترو وفي قلبي لهفة تكاد تحرقه لمعرفة أخبار أسامة وحاله. كل خطوة كانت تزيد من توتري، وكل نَفَس كان يحمل دعاء صامتاً لسلامته.

حييت عمي فؤاد بصوت مرتجف، لكن إنعام تصنعت المرض واضعة يدها على كتف ابنتها شذى كأنها تتكئ على عكاز، متعذرة عن مد يدها للسلام. شعرت بطعنة في قلبي من هذا التجاهل المتعمد، كأنها تلومني على مصير ابنها.

وبعد أن سحبت يدي التي رفضت إنعام مصافحتها، تركت شذى جانباً وقالت إنعام متصنعة الحزن، وكأنها تنشد مرثية لابن حي: "ابني ضاع يا أمل! أخوكِ ضاع يا أمل! منه لله الذي كان السبب! أيصير ابني مجرماً من أجل أناس لا يستحقون؟."

كانت كلماتها كطعنات مسمومة تخترق قلبي، فأنا أعلم أنها تقصدني بكلامها.

ربتت أمل بيدها على كتف إنعام، محاولةً مواساتها بلطف، كمن يحاول إخماد نار مستعرة، ثم نظرت نحوي نظرة ذات مغزى، كأنها تقول لي:

"سأسكتها حتى لا تزيد الطين بلة، ولا تتسبب في إيذائك أكثر". كانت أمل كالملاك الحارس في خضم هذه العاصفة العاطفية.

سألت أمل أباها بصوت مرتجف كشمعة يتلاعب بها الريح: "كيف حال أسامة، يا أبتِ؟". فأجابها، والحسرة تملأ صوته كما يملأ الظلام ليلاً حالكاً: "وما عساه أن يكون حاله يا بنيتي؟ إنه مدمر نفسياً! يكفي أن ترى الوجوه التي يُحبس معها، إنهم أشبه بمصاصي الدماء في قصص الرعب."!

صاحت شذى في ضيق، كعصفور سجين في قفص: "أيعقل أن يبقى في ذلك المكان البغيض ولو للحظة واحدة؟ أترضين يا غادة أن تكوني مكانه؟ إن رائحة الحجز وحدها كفيلة بإزهاق الروح، كأنهم يعيشون في قبر! أهذا ما يُسعد السيدة الفاضلة؟". قالتها وهي ترمقني بنظرات حادة كشهب حارقة.

تنهدت أمل، وقد ضاق صدرها كمن يحاول سد ثقوب عديدة في أنبوب ماء، فكلما سدت ثغرة، انفجرت أخرى.

قالت بلهجة حادة كنصل السيف: "كفي يا شذى عن هذا اللغو! ألجمي لسانك، فلم يعد الأمر يحتمل المزيد من العبث والسفاهة!"

حدّقت شذى إلى والدتها، وقد أخذت تهز قدمها بإيقاع مسموع، كأنها تقرع طبول الحرب، في إشارة جلية لاستيائها من كلام أمل. كانت شذى تتوق لنصرة أمها ضد أمل، كما اعتادت أن تفعل ضدي، لكن إنعام آثرت التجاهل، حرصاً منها على عدم خسارة أمل في هذه اللحظة الحرجة. فإنعام لا تطيق الآن أن تجد أمل في جبهة معادية لها.

التفت إليّ عم فؤاد، الذي بدا وكأنه يسبح في عالم آخر، غير عابئ بما يدور حوله من صخب وضجيج، وقال: "هلمي يا غادة يا ابنتي، ارتقي معنا عربة المترو، ثم أوصلك بسيارة أجرة من موقف السيارات بشبرا".

فأجبت بنبرة هادئة: "كلا يا عماه، سأستقل سيارة أجرة من ميدان التحرير". فسألني متعجباً، وقد علت وجهه مسحة من القلق: "وكيف ذلك والساعة الآن تقارب الحادية عشرة ليلاً؟ لا يصح أن تكوني وحيدة في مثل هذا الوقت المتأخر."!

تدخلت إنعام بنبرة ساخرة: "لا توجد وسائل نقل في شبرا الآن تصل إلى مسكنها". فابتسمت ابتسامة مريرة كطعم الحنظل، وقلت: "لا بأس، لن يختطفني أحد وأنا وحدي؟". فردت إنعام متهكمة: "لا مال يُطمع فيه ولا جمال يُرغب فيه، فحتى اللص سيئ البصر لن يلتفت إليكِ!". ضحكت شذى ضحكة مصطنعة كمن يصفق لممثل رديء على مسرح بائس.

انصرفتُ والدموع توشك أن تنهمر من عينيّ، والناس من حولي يرمقونني بنظرات الاستغراب. كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أجد نفسي فيها وحيدة في الشارع في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل. لم أعد أكترث لوجود الناس من حولي في وضعي المأساوي هذا فانهمرت الدموع بغزارة، وحاولت مسحها عبثاً، إذ سرعان ما عادت تنهمر كشلال جارف.

ارتقيت السيارة وطلبت من السائق ألا يُجلس أحداً بجواري، متعهدة بدفع أجرة اثنين. وما إن انطلقت المركبة حتى وضعت وجهي على زجاج النافذة المغلق، فرأيت انعكاس وجهي الحزين، وكأنه ثابت لا يتحرك، بينما الطريق يجري أمامه مسرعاً. بدا لي وكأن وجهي قد تجمد في لحظة من الألم، بينما الدهر يمر من أمامه في عجلة من أمره غير آبه بمعاناتي.

توجهت بعدها إلى منزل وسام، واتصلت بها هاتفياً مراراً حتى أجابت وهي تتثاءب. قالت إنها حاولت الاتصال بي ولكني لم أرد، فأخبرتها أنني وضعت الهاتف على الوضع الصامت ثم أغلقته. سألتني عن أحوال أسامة، فتلعثمت للحظة وقلت: "أسامة؟ ... أسامة بخير". ثم طلبت منها أن تُنزل

ديمة لأن الوقت قد تأخر، محاولة تجنب أي أسئلة إضافية عن أسامة. فأنا لم أره أصلاً بعد كل ما حدث اليوم. يا لها من حسرة تمزق القلب!

قالت وسام إن ديمة نائمة، وعرضت عليّ الصعود والمبيت عندها حتى الصباح. لكنني رفضت، متحججة بأنه لا بد لديمة أن تذهب إلى المدرسة في الصباح الباكر.

بعد إصراري على العودة إلى المنزل، هبطت ديمة ووليد. أبلغني وليد أنه سيتولى إيصالي بسيارته إلى منزلي. حاولت الامتناع مراراً، بيد أنني رضخت في نهاية المطاف نظراً لضيق الوقت.

طوال الطريق، ظل وليد يستفسر عن أسامة وبعض الأسئلة المعهودة حول قضيته. اعتذر عن غيابه، متعللاً بانشغاله في العمل. أجبته متفهمة مشاعره: "ليكن الله في عون الجميع."

ران الصمت لبرهة، ثم بدده وليد قائلاً: "إنني معجب بموقفك مع أسامة وذهابك لزيارته في مركز الشرطة في جوف الليل لشد أزره". ثم أثنى عليّ قائلاً: "أنتِ مثال للزوجة التي تقف خلف زوجها، تسانده في الضراء قبل السراء."

فجأة، غيّر وليد دفة الحديث وشرع يشكو من أحوال شقيقتي وسام معه. تحدث عن انشغالاتها الدائمة، فهي تعمل أخصائية اجتماعية في مركز شباب المنطقة، وعن إهمالها لبيتها. قال: "إنها تقضي النهار في مكتبها، وفي المساء تكون برفقة أصحابها في حديقة مركز الشباب تنظم مسابقات ورحلات."

ثم أضاف متعجباً: "رغم كل ما أفعله من أجلها، تتهرب من تحمل المسئولية وأنتِ يا غادة يا من تحملين على كاهلك الرقيق أثقال الدهر تقفين شامخةً كطود راسخٍ في هذا الموقف العصيب!"

استمر وليد في الحديث عن وسام، والفتور الأسري بينهما، وغياب روح المرح والبهجة في منزله. لم أفقه تماماً ما يرمي إليه، فقد كنت مشغولة البال بالتفكير في أسامة، رغم أنني كنت أومئ برأسي أثناء كلامه إشارة إلى أنني أصغي إليه.

تساءلت في نفسي: "أيريد مني أن أنصح وسام بالتركيز على بيتها أكثر؟ أم أنه يحاول أن يمدني بالطاقة الإيجابية لمواصلة المسير مع أسامة؟"

بلغنا أخيراً داري، فشكرته على إيصالي. قام وليد بتقبيل خد ديمة، ثم قال بامتنان: "أجمل ما في الدنيا البنات". ثم أردف: "البنات حظهن وافر ورزقهن واسع."

فابتسمت ابتسامة واهنة وقلت له: "ليحفظ الله لك ولوسام ولديكما سيف وهيثم". ثم ولجت أنا وديمة المنزل.

في تلك اللحظة، أدركت أخيراً مغزى كلامه: إنه يتمنى أن تنجب وسام مرة أخرى، على رجاء أن تكون أنثى.

أوصدت الباب خلفي، وكأنني أغلقت على نفسي باب زنزانة. فرغم حبي لبيتي وعشقي له، إلا أنه بدون أسامة غدا سجناً موحشاً. ارتقيت درجات السلم، وفجأة استأذنتني دموعي في الهطول، بعد أن عقدت معها اتفاقاً أن تتريث حتى أخلو بنفسي. التزمت هي بالاتفاق، وحان دوري لأنفذ باقي العهد.

وهكذا مضت الليلة، وأنا أتأرجح بين اليقظة والنوم، وعيناي معلقتان بصورة أسامة.

(٥)

استفقت على صوت ديمة قائلة: "أمي... المنبه يرن". نهضت أبحث عن أسامة، أين هو؟ كنت أمنّي النفس أن يكون كل ما سبق مجرد حلم لكنه كان حقيقة مؤلمة للأسف، وأسامة في مكان آخر فعلاً.

. شرعت في تحضير ديمة للذهاب إلى المدرسة. أنزلت ديمة لتركب حافلة المدرسة، عدت إلى البيت وصعدت إلى حيث الطيور، بعد أن أخذت البرسيم الموضوع على باب المنزل. فكل يوم تأتي السيدة عواضة، الفلاحة البسيطة، بالبرسيم وتضعه على باب المنزل، ويكون الحساب في نهاية كل أسبوع.

جلست مع الطيور وغرقت في بحر التفكير: ماذا أفعل مع إنعام كي تمر المحنة بسلام، ولا أكون صاحبة التأثير السلبي على أسامة؟ وأثناء ذلك، كنت أقوم بتقطيع البرسيم بالسكين الحاد، فتجمعت الأرانب حولي تأكل البرسيم.

أخذت كمية من البرسيم ووضعتها أمام الطيور، في كل غرفة جزء ووضعت لهم ماءً جميعاً، وذرة مجروشه، وخبزاً مبلولاً.

وبينما كنت منهمكة في هذه المهام، دوى صوتٌ كالرعد يقرع بوابة داري. ارتعشت أوصالي، وتسارعت دقات قلبي كحمامةٍ مذعورة. هل هي الشرطة جاءت تفتش المنزل بحثًا عن دليلٍ يدين زوجي أسامة؟ أم هؤلاء الذين وقعوا تحت تأثير سحر الإعلام الأسود جاؤوا ينتقمون منه، ظانين أنه سارق المال العام؟

تسللتُ إلى الشرفة بخطواتٍ حذرة، كغزالةٍ تترقب الخطر. وهناك رأيت ما لم يخطر على بالي قط. كانت أمي واقفة، وإلى جوارها شبحٌ لم أتوقع رؤيته على عتبة داري أبدًا، خالتي عزيزة.

انعقد حاجباي دهشةً، وتساءلت في نفسي: "أهذه حقًا خالتي عزيزة في بيتي؟" إنها آخر مَن كنت أتخيل أن يطأ عتبة منزلي يومًا. كم حاولت مرارًا وتكرارًا أن تقنعني بالزواج من ابنها عاطف! لكنني كنت أتملص من تلميحاتها ومحاولاتها كما يتملص الماء من بين الأصابع.

لم يكن الأمر عيبًا في عاطف، فهو في نظري أخٌ. لأن جميع إخوتي من البنات، وربما لهذا السبب نظرت إليه دومًا بعين الأخوة لا الزواج.

كان رفضي لعاطف كالصاعقة التي هزت أركان العائلتين.

منذ الصغر، كانت الأسرتان تتناقلان مقولة "غادة لعاطف وعاطف لغادة" كأنها نقشٌ على حجر. لكنني لم أعلق على هذه المهاترات يومًا تاركةً الزمن يكشف حقيقة مشاعري.

لذا، أعلم علم اليقين أن خالتي عزيزة لم تنسَ هذا الأمر رغم مرور السنين. كالجرح الغائر الذي لا يندمل، ظل ألم الرفض يؤرقها. لم تطأ قدماها عتبة بيتي منذ ذلك اليوم، ولم تحضر زفافي، وهذا أمرٌ بديهي.

أتذكر جيدًا كيف شجعني أسامة، بحكمته ورزانته، على البوح بقصة حبنا لأخواتي. كان كالنسيم العليل الذي يحمل أريج الزهور إلى كل مكان، ناشرًا عبق الحب والصدق في أرجاء حياتي.

وحين باركَ أبي قصة حبنا، شعرت وكأن الشمس قد أشرقت في قلبي. كانت موافقته كالمطر الذي يروي الأرض العطشى، مانحًا إيانا الأمل والحياة. فأبي، رغم تمسكه بالتقاليد، كان يدرك أن الحب الصادق هو أساس الزواج السعيد، وأن أسامة ليس مجرد فتى مستهتر، بل رجل جاد يسعى للارتباط بي بكل احترام وتقدير.

والدتي، يا لها من قلب طيب كزهرة البنفسج! رضخت في النهاية لرغبتي تحت وطأة إلحاح الجميع .كانت مخاوفها نابعة من حرصها على مشاعر أختها عزيزة وابنها عاطف، كمن يخشى على قطرات الندى من حرارة الشمس. لكن قدر الحب كان أقوى من كل المخاوف.

ذات يوم بعد زواجي، ونحن نجلس على سطح المنزل، تراقب أعيننا رقصات الطيور في السماء، فاجأتني أمي بكلمات كانت كالبلسم لروحي. قالت بخجل: "أتعلمين يا غادة؟ لطالما راودني حلمٌ أن تتزوج إحدى فلذات كبدي بقصة حبٍ خالدة، تُروى على مر العصور. وما كنت لأتخيل أن تكوني أنتِ حاملة لواء هذا الحلم! فرغم أنك أرق أخواتك قلبًا وألينهن عريكة في المطالبة بحقوقك، إلا أنك أذهلتِني بثباتك على حبك لأسامة كثبات الجبال الرواسي".

شعرت وكأن قلبي يرفرف كعصفور سعيد في قفص صدري. وأضافت: "أسامة، يا له من فتى! منذ اقترانكما، غدا في قلبي كالنجم الساطع في سماء مظلمة. وربِّ السماء، إني لأراه كفلذة كبدٍ لم تحمله أحشائي. إنه لفي منزلةٍ لم يبلغها أي من أزواج أخواتك".

كانت كلماتها كقطرات المطر على أرض عطشى، تروي ظمأ روحي وتؤكد صحة اختياري. ضحكت في قمة سعادتي، وقلت ساخرة: أماه أتريدين أن تثيري في نفسي غيرة الحب؟

ابتسمت والدتي ابتسامة عذبة، ثم التقطت غصنًا رفيعًا وبدأت تخط به على التراب، ووجهها يميل نحو الأرض كزهرة خجولة. قالت بصوت يشبه همس النسيم: وعيناها تشعان بنور الذكريات:

"يا بنيتي، في كل يوم يمر، يزداد إعجابي بحبكما نضارةً وبهاء. إن قصتكما كقصيدة حبٍ مكتوبة بحبر النجوم، كل كلمة فيها تضيء السماء، تذكرني بروائع الحب الخالدة في أفلام الزمن الجميل".

كانت قصة حبي مع أسامة كلوحة فنية رائعة، تجذب إعجاب أخواتي كما تجذب الزهور النحل. إلا نهى، التي كانت تنتقد كل شيء: لغة العيون بيننا، تهامسنا أيام الخطوبة، دخولنا دار العرض السينمائي دون مرافق. كانت تنتقد نظرات الحب الصادقة التي نتبادلها، واهتمامي بإعداد طعامه المفضل عند زيارته لمنزلنا، كان يقابلهم سخرية نهى. لكن لم أكترث لكلامها ونقدها اللاذع. بل على العكس، أصبحت قصة حبنا خلال فترة الخطوبة مصدر إعجاب لفتيات عائلة والدي وعائلة والدتي.

كانت إيناس ووسام ومنة يروين قصتنا لهن بحماس، حتى نهى التي كانت تحكي لتحشد سخرية الجميع ضدنا، كانت تنجح فقط في جعل الجميع يتعاطف معنا أكثر. كان الجميع يردد: "ما أجمل الحب! ما أجمل الحب"!

والعجيب في الأمر، أن نهى تلك الفراشة المتقلبة قد أعلنت خطبتها لعماد تحت راية الحب المتبادل. والله وحده أعلم بما تكنه القلوب! لكن ما أثار الدهشة حقًا، أنها شرعت في تقليد كل ما كانت تنتقده في علاقتي بأسامة خلال فترة خطوبتي، كمن يحاول ارتداء ثوب لا يناسبه.

نزلتُ لأفتح البوابة، وإذا بأمي وخالتي عزيزة تقفان أمامي، متشحتين بالسواد حدادًا على خالتهما الراحلة. استقبلتهما بترحاب يخفي وراءه بحرًا من التساؤلات. جلستا، وأنا أترقب كطير حذر يراقب السماء بحثًا عن علامات العاصفة. كيف لخالتي عزيزة أن تطأ عتبة بيتي الآن وهي التي لم تقترب منه يومًا كأنه محاط بأسوار من شوك؟ ولماذا في هذه الظروف بالذات كأنها تختار أحلك الأوقات لتظهر فيها؟

وكأن أمي قرأت أفكاري المضطربة، فبادرت بالإجابة على السؤال الذي يدور في عقلي كدوامة لا تهدأ: "خالتك جاءت معي لأنها تريد بعض الطيور من أجل عاطف. فهو لا يتذوق سوى الطيور البلدية. وأنا يا غادة، ليس لدي ما تطلب. لكنها توسلت إليّ أن أجمع لها طلبات عاطف، فأخبرتها أنك قد تكونين القادرة على تلبية طلبها. فأصرت على المجيء إليك الآن، نظرًا لحاجتها الملحة للطيور".

من نبرة صوت أمي، أدركت أنها غير مقتنعة بما تقول، كمن يردد كلمات مكتوبة على ورق لا يؤمن بها. لكنها، كعادتها، لا تحب إحراج أحد، فاستجابت لطلب أختها حتى لو كان ذلك على حساب صدام محتمل بيني وبين خالتي!

نظرت لأمي نظرة استخفاف، كمن يرى خيطًا رفيعًا ويُطلب منه أن يعتبره حبلاً متينًا. يا لسذاجة أمي! أفجأة، وفي هذا التوقيت بالذات يشتهي عاطف طيورًا بلدية؟ ومن يُطلب منه تلبية هذه الرغبة المفاجئة؟ أنا!

شعرت وكأنني في مسرحية هزلية، حيث كل الشخصيات تلعب أدوارًا مرسومة لها سلفًا، إلا أنا. وقفت هناك، أحاول فك شفرة هذه الزيارة الغريبة، كمن يحاول قراءة كتاب مكتوب بلغة لا يفهمها.

دارت محركات رأسي في دوامة من التردد والحيرة، هل أرفض طلبها وأتحجج بأي عذر، حتى لو كان واضحًا في تهافته كالنوايا الخفية لخالتي؟ أم أقبل طلبها، وأنا في حاجة ماسة لأي مبلغ، فالوضع المالي لي غير مستقر، ولا أعلم ما يخبئه لي الغد؟

قاطعت خالتي تلك الأفكار المتصارعة في ذهني بقولها: "ماذا بك يا غادة؟ هل أنتِ منزعجة من زيارتي؟" حاولت أن أرسم على وجهي ابتسامة لم

تكن سوى قناع من المجاملة، وقلت لها بصوت يحاول أن يخفي ارتباكي: "بالطبع لا، البيت بيتك يا خالتي، لماذا تقولين ذلك؟"

نظرت إليّ بتمعن ثم قالت بلهجة حادة تحمل في طياتها استغرابًا: "أنتِ تعلمين أنني لم أكن لأدخل بيتك أبدًا".

هنا، توقف الزمن من حولي، ورفض عقلي قبول كلماتها جملة وتفصيلاً. كيف لها أن تقول ذلك؟ هذا ليس بيتي، إنه بيت أسامة، وهو لا يزال على قيد الحياة! لكن الوقت لم يتوقف سوى للحظة في ذهني ثم عاد ليسير بخطى متسارعة مع استمرار خالتي في حديثها: "ولكنني دخلته اليوم وأنا أعلم أن زوجك مسجون. كل إنسان يأخذ نصيبه في هذه الدنيا. كان يمكن أن تكوني أنتِ من أشتري لها الطيور الآن، بدلاً من فايزة زوجة عاطف".

شعرت وكأن كلماتها كانت كالسكاكين التي تجرح دون رحمة، كل حرف منها كان يقطع جزءًا من قلبي، يذكرني بالواقع القاسي الذي أعيشه. تلك اللحظات لم تكن مجرد حديث عابر، بل كانت مواجهة مع حقائق مؤلمة حاولت كثيرًا أن أتجاهلها.

هنا أطلقت خالتي سهام كلماتها المسمومة، محاولةً أن تنال من صبري وتثير غضبي الدفين. قالت بلسان يقطر مرارة وحسداً:

"ألم يصل إلى مسامعك خبر ما فعله ابني عاطف؟ لقد أبدل لزوجته حُلياً ذهبية، دافعاً في سبيل ذلك عشرة آلاف من الجنيهات فرقاً للثمن! أوَ لستِ أنتِ، يا ابنة أختي، أحق وأولى بمثل هذا النعيم الذي تتقلب فيه زوجة عاطف؟ والله يشهد على صدق قولي، كم راودتني الأمنيات أن تكوني أنتِ عروس ابني، لا تلك التي نالت ما نالت من كرمه!"

في تلك اللحظة، كنت قد بلغت مرحلة متقدمة في امتصاص الصدمات واحدة تلو الأخرى، كأنني صخرة صماء تتكسر عليها أمواج البحر العاتية.

أنهكني طول الجدال، وأرهقني النقاش الذي كاد أن يتحول إلى مشاجرة لا أرضى الانجرار إليها. فكان ردي، وقد اعتراه شيء من الحدة، كسيف مسلول من غمده:

"لا تنسي يا خالتي أن هذا البيت الذي تجلسين فيه هو بيت أسامة زوجي. وإن كنتِ قد أتيتِ لتشتري لابنك وزوجته طيوراً من عندي فاعلمي أن أسامة هو مالك الطيور الحقيقي، وكل ما هنا من فضله وكرمه. وليوفق الله عاطفاً مع فايزة كما ذكرتِ، فكل مخلوق يأخذ نصيبه المكتوب له".

عند ذلك، ظهر الغضب جلياً على ملامحها، وجزت على أسنانها كذئبة جريحة، ثم قالت بدهاء ومكر، كأنها تلقي سماً زعافاً:

"أوَ لم أخبرك أن عاطفاً أسرَّ إليَّ بأن التهمة التي يواجهها أسامة ستجعل الحكومة تصادر هذا البيت وكل ما يملك زوجك بتهمة الكسب غير المشروع؟ فليكن عليه العوض، وعسى الله أن يعوضك ببيت أفضل منه"!

فأجبتها دون تردد، وقد تدفقت الكلمات من قلبي كينبوع صافٍ من الحكمة والإيمان:

"لو كانت السعادة في البيوت والقصور، لكان أصحاب العمارات الشاهقة هم أسعد الناس في الدنيا. لكن الحب، يا خالتي، هو أثمن من كل كنوز الأرض. إنه جوهرة نفيسة لا يعرف قيمتها إلا من حباه الله قلباً نابضاً بالمشاعر الصادقة. أما من حُرم هذا القلب، فهو وإن كان يمشي على الأرض، فهو في الحقيقة ميت بين الأحياء".

وفي خضم تلك المعركة الكلامية المحتدمة، انبرت أمي، كملاك الرحمة، لتقطع حبل الجدال المتوتر. صوتها الحنون تسلل إلى آذاننا كنسمة عليلة في يوم قائظ، قائلة:

"يا عزيزة، ألم تكوني ترغبين في زوج من البط، وعشر من الدجاجات البلدية، وبعضاً من الأرانب؟"

فأجابت خالتي، وقد تلألأت في محجريها شرارة الكِبر:

"نعم، وأريد خمسة من الأرانب، وخمسة أزواج من الحمام".

هنا، وقد أدركت أن خالتي تظن أن طلباتها الكثيرة ستثير حفيظتي قررت أن أقابل مكرها بمكر أشد. فقلت، وفي صوتي نبرة من السخرية المبطنة: "أوَلا ترغبين في ديوك رومية ووز وبيض بلدي أيضاً؟ أخشى أن الميزانية التي معك لن تفي بكل هذه الرغبات، أليس كذلك؟"

كان كلامي كشرارة أشعلت نار الاستفزاز في صدرها. فردت، وقد تلبستها روح التحدي: "ستكفي بفضل الله وكرمه. هاتي أيضاً وزتين وديكاً رومياً وخمسين بيضة بلدية"!

وهكذا، وبقلب يعتصره الألم من جراء هذا الموقف، قمت بإحضار كل ما طلبت. أخذت منها المال وحسبته بسعر السوق، دون أي تخفيض كأنني أبيع لغريب لا لقريب.

وبعد أن غادرا المكان، خلوت بنفسي، أحدثها في خضم دوامة من المشاعر المتضاربة. قلت لها، وقد اختلط في صدري مرارة الموقف بحلاوة الرزق: لعل المال في هذه الظروف العصيبة أهم من العواطف الزائفة. ربما أرسل الله خالتي في هذه اللحظة لتكون سبباً في رزق لم أكن أتوقعه. فلا ينبغي لي أن أشكو لأحد ضيق ذات اليد، فها قد جاء الفرج من حيث لم أحتسب.

(٦)

انصرفتُ إلى مهامي اليومية، وقلبي يخفق بالحب والأمل، إذ بعد ساعات قليلة سألتقي بأسامة. شرعتُ في تحضير الطعام وكيّ الملابس التي سأحملها إلى أسامة في محبسه، وبينما كنتُ أؤدي هذه الواجبات، راحت نفسي تحدثني، كأنها صديقة حميمة تبثني همومها:

"أيُعقل أن يُسلب هذا المنزل منا، كما زعمت خالتي الشامتة؟ كلا، فأسامة بريء، وسيظهر الله الحق يوماً ما، إن شاء الله. فالحق كالشمس، وإن حجبته الغيوم حيناً، فلا بد أن يسطع في النهاية".

ثم اتصلتُ بأمل، لنتواعد على لقاء في ميدان التحرير عند التاسعة مساءً. وكما فعلتُ البارحة، تركتُ ديمة في رعاية وسام وانطلقتُ إلى الميدان.

وصلتُ قبل الموعد بربع ساعة، فوقفتُ أنتظر أمل. ولكن تلك الدقائق القليلة لم تمر دون أن أتعرض لمضايقات ومعاكسات سخيفة من بعض المارة. وتساءلتُ في نفسي، وقد امتلأ صدري بالغضب والأسى:

"لماذا لا يترك هؤلاء الناس المرأة وشأنها؟ أيظن الرجال أن مضايقة النساء حق مكتسب لهم؟ إنه لداء يستشري في مجتمعنا، يحتاج إلى دراسة متأنية وحلول جذرية! هل يقبل أي رجل شريف مثل هذا الفعل على زوجته أو ابنته أو أمه أو أخته؟ بالطبع لا! إنها الأنانية المقيتة التي تسكن نفوس أشباه الرجال، لا الرجال الحقيقيين".

حين أقبلت أمل، انطلقنا إلى القسم، حيث وجدنا أنفسنا أمام ذات الطابور الذي شهدناه بالأمس. وقفنا صامتتين، نتجنب توجيه أي سؤال لأحد، درءاً لتكرار ما حدث في اليوم السابق. مرت الدقائق ثقيلة كالجبال، حتى حان دورنا للدخول.

قام أمين الشرطة بتفتيش حقائبنا بدقة، ثم هبطنا إلى مكان أشبه بالقبر بل هو في الحقيقة قبر للأحياء. جدرانه مكسوة بطبقة دهنية سوداء كأنها عرق المئات ممن مروا بهذا المكان الموحش. رائحة الموت تختلط برائحة المساجين، في مزيج يخنق الأنفاس ويعتصر القلوب.

شعرت بأعين رجال الشرطة تخترقني كالسهام، فتملكني الخوف وبدأت أتحفظ في كل حركاتي. حتى حين حاولت تبديل الحقائب من يد إلى أخرى بسبب ثقلها، ترددت خشية أن يُساء فهم حركتي البريئة.

وفجأة، دوى صوت أمين الشرطة كالرعد في أذني: "أسامة فؤاد الشايب... أسامة فؤاد الشايب... زيارة"!

خرج أسامة، رأسه منحنٍ نحو الأرض كغصن ثقلته الهموم. كانت المسافة بيننا لا تتجاوز الثلاثة أمتار، لكنها بدت وكأنها فراسخ من الألم والحسرة. نظرت إليه فرأيته مكسور الخاطر، مهلهل الهمة، كأنما الدنيا بأسرها قد ألقت بثقلها على كاهله.

تساءلت في نفسي، وقلبي ينزف ألماً: "أتراه تعرض للضرب والإهانة والتعذيب هنا؟ ولكنه ليس مجرماً! ولِمَ لا؟ فهو سوف يعامل كالأغلبية العظمى في هذا المكان الموحش، حيث لا فرق بين المحترم والمجرم الكل سواسية أمام جبروت الحبس على زمة قضية رغم عدم الإدانة العدل هنا يتجلى فقط في القهر الذي يطال الجميع بلا تمييز".

وقفت هناك، أشاهد زوجي يقترب، وفي عيني دمعة حبيسة، وفي قلبي صرخة مكتومة. كم تمنيت أن أركض إليه، أن أحتضنه وأمسح عن وجهه غبار الذل والهوان. لكنني وقفت جامدة، أسيرة الخوف والقوانين الصارمة التي تحكم هذا المكان.

وقفتُ هناك، أناجي نفسي بصمت: "ارفع رأسك يا أسامة". وما إن وقف أمامي حتى شعرتُ كأن روحي قد انتُزعت مني إليه. ما أجمل النظر في عيني أسامة! إنهما الحياة بعينها. لكن سرعان ما سحب نظرته، ملتفتاً إلى أمل، مسلماً عليها بيده في فتور، ثم سلم عليّ بنفس التحفظ. لكنني أحسست برجفة يده وهو يصافحني، وكأنه يقول بصمت: "إنني مقيد الحرية، لا أقوى على فعل أكثر من ذلك."

سألته أمل عن حاله، فأجاب: "الحمد لله"، ثم التفت إليّ متسائلاً: "كيف حالك يا غادة؟ وكيف حال ديمة؟"

أجبته وقلبي يعتصر ألماً: "نحن بخير، المهم أنت، كيف حالك؟"

فقال بمرارة تقطر من كلماته والدموع تترقرق في مقلتيه: "أنا بخير الحمد لله على ما كتب علينا ... أرجو ألا تكون ديمة قد علمت شيئاً"!

طمأنته قائلة: "لا، لكنها تسأل عنك دائماً."

سألني عن مكانها الآن، فأخبرته أنها مع خالتها وسام. تنهد قائلاً: "أنا أسف، هذا قدركم."

حاولت أمل تهوين الموقف قائلة: "فكر في نفسك فقط، وكل شيء سيكون على ما يرام". ثم قدمت له الطعام والماء والعصير.

أضفتُ قائلة: "وهذه ملابس وطعام إضافي."

فأجاب بدهشة: "لماذا كل هذا؟ لقد أحضرا لي بالأمس طعاماً وأشياء كثيرة. وقالت أمي إنك لم تستطيعي المجيء بالأمس بسبب ديمة."

شعرتُ بالدهشة من عدم إخبار أمه له بوجودي بالخارج بالأمس وكدت أن أخبره، لكن أمل قاطعتني قائلة: "المهم أننا رأيناك وأنك بخير."

أخبرنا أسامة عن جلسة تجديد الحبس غداً، متأملاً في إخلاء سبيله أو تجديد حبسه لخمسة عشر يوماً. ثم طلب مني على استحياء مئة جنيه فأعطيته إياها على الفور.

سألته أمل عن رأيه في الموقف وإلى أين سيصل الأمر، فأجاب بثقة مهتزة: "كل هذا كذب، هناك خطأ في المراجعة. اللجنة كلها وقعت على المستندات ولم يُفقد جنيه واحد من المال العام."

ردت أمل قائلة: "لا أفهم شيئاً، المهم أنك واثق من براءتك."

أجاب بعدم ثقة: "أتمنى من الله أن تسير الأمور على خير ."

فجأة، دوى صوت أمين الشرطة معلناً انتهاء الزيارة. أمسك بكتف أسامة الأيمن، مهماً بإعادته إلى القبر المسمى زنزانة. لم يجد أسامة ما يقوله سوى: " اعتنوا بأنفسكم."

وقفت هناك، أشاهده يُسحب بعيداً، وقلبي ينزف ألماً وحسرة. في تلك اللحظة، أدركت عمق المأساة التي نحن فيها، لكن إيماني بالله وببراءة أسامة ظل راسخاً. تمتمت في سري: "اللهم اجعل لنا من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، إنك على كل شيء قدير."

خرجتُ أنا وأمل، كلٌ منا يحاول جاهداً كبت دموعه، منتظراً الافتراق عن الآخر ليطلق العنان لحزنه المكبوت. قالت لي أمل، وصوتها يرتجف قليلاً:

"إن والدتي إنعام لا ترى الأستاذ كمال المحامي ضليعاً في مثل هذه القضايا. لابد أن نبحث عن محامٍ آخر أقوى في هذا النوع من القضايا".

أجبتها، وقد اعتصر قلبي ألماً: "أنا لا أفهم في مثل هذه الأمور، ولكني مع أي شيء يساعد أسامة على الخروج من هذه المحنة".

فأردفت قائلة: "إن أتعاب المحامي في مثل هذه القضايا قد تصل إلى مائة ألف جنيه أو أكثر".

شعرتُ بغصة تكاد تخنقني لسماع هذا الرقم المحبط، وقلت بصوت خافت: "هذا مبلغ كبير جداً".

أخبرتني أن إنعام تساءلت إن كنت أنا وأسامة قد ادخرنا مثل هذا المبلغ. أجبتُ بمرارة: "كل ما نملك من مال تم وضعه في بناء المنزل ورأس المال المتبقي في تربية الطيور. لمحتُ في عينيها نظرة توحي بأنها كانت تعلم ذلك مسبقاً، لكنها كانت مجرد توصية من السيدة إنعام.

افترقنا بعدها، ذهبت أمل إلى محطة المترو، بينما ركبتُ سيارة الأجرة متوجهة إلى وسام لاصطحاب ديمة. وكما حدث في الليلة السابقة، قام زوجها بتوصيلنا. سألني عن أسامة، ثم عاد يشكو من وسام وعدم اهتمامها به أو بمظهرها. أبدى رغبته في أن أعلمها فنون الأناقة والطهي، مثنياً على قدراتي في الطبخ وذوقي في اختيار الملابس واهتمامي بديمة. جلستُ في السيارة أعد الثواني حتى أصل إلى المنزل، متعجبة من شكواه غير المفهومة في مثل هذه الظروف العصيبة. وصلنا أخيراً إلى البيت، وبدأت ديمة تحكي لي عن الفترة التي قضتها بصحبة أبناء خالتها. ثم فاجأتني بسؤال مباغت: "هل رأيتِ أبي؟" شعرتُ بقلبي يخفق بشدة، وسألتها: "ماذا تقصدين؟"

فأجابت: "خالتي وسام أخبرتني أنكِ عند أبى".

حاولتُ أن أتمالك نفسي، وقلت لها بصوت أحاول أن أجعله هادئاً: "لا هي تقصد أنني كنت أسلم أشياء لصديق بابا ليوصلها إليه".

وأنا أنطق بهذه الكلمات، شعرتُ بألم يعتصر قلبي. كم أكره الكذب على ابنتي الصغيرة، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ كيف أشرح لها الوضع المعقد

الذي نحن فيه؟ كيف أحمي براءتها وأحافظ على سلامها النفسي في خضم هذه العاصفة التي تعصف بحياتنا؟

تنهدتُ في سري، داعية الله أن يفرج عنا هذه الكربة من أجل أسرتنا التي تمر بأصعب اختبار في حياتها.

(٧)

ارتعدت فرائصي حين دوى صوت الهاتف في جوف الليل، كأنما هو صرخة فزع تشق سكون الظلام. أخذ قلبي يخفق بعنف، وتسارعت أنفاسي كأنني أركض في سباق محموم. من ذا الذي يطرق باب الليل في هذه الساعة المتأخرة؟ أهو خبر سيء عن أسامة؟ أم هو بلاء جديدة من تدابير القدر؟

بيد مرتجفة، مددت يدي نحو الهاتف، وكأنني أمد يدي إلى جمرة متقدة . فتحت السماعة الخارجية، وبصوت متهدج، خاطبت ابنتي:

"يا ديمة، حبيبة قلبي، هلا سألت عن هوية المتصل؟"

وإذ بصوت ديمة الرقيق يشق الصمت: "من المتحدث؟"

وفجأة، كأنما انشق سقف الغرفة عن ملاك من السماء، إذ بصوت أسامة يتدفق عذباً رقراقاً، يملأ المكان دفئاً وحناناً:

- يا نور قلبي، يا ديمة! إنه والدك يناديك

صرخت ديمة بفرحة غامرة، كأنها عصفور صغير يزقزق مع أول خيوط الفجر:

"أبتاه! أبتاه! أين أنت؟ لقد اشتقت إليك"!

رد أسامة بصوت يختنق بعبرات الشوق:

"وأنا يا فلذة كبدي، قد اشتقت إليك كثيرا. لكن اطمئني، فما هي إلا أيام معدودات وأعود إليك، أحملك بين ذراعي كما كنت أفعل دائماً".

أخذت الهاتف من ديمة، وقلبي يكاد يقفز من صدري فرحاً وخوفاً. همست في السماعة:

‘‘أسامة! حبيبي، كيف حالك؟ ومن أين تتحدث؟"

أجاب بكلمات مبهمة، حذراً من أن تلتقط ديمة ما لا ينبغي لها أن تعرف:

"لا تقلقي، إنني لا أزال حيث تركتني".

ثم أردف بسرعة: "غداً، عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً، كوني في ساحة العدالة. أحضري معك ما تيسر من المال، مائة أو مئتين من الجنيهات".

أجبته والدموع تترقرق في عيني: "أمرك يا حبيبي، سأكون هناك حتماً، وسأنجز ما تصبو إليه".

ودعني على عجل، وانقطع الخط كأنما قُطع حبل من نور كان يربطني بعالم آخر. تخيلت يداً قاسية تمتد لتمسك بالهاتف، تاركة أسامة يتحدث للحظات معدودة، ثم تسحبه بعيداً بلا رحمة

غمرتني موجة من المشاعر المتضاربة. الفرح لسماع صوته، والقلق على حاله، والأمل في لقاء الغد. قلت لنفسي: "الحمد لله الذي لم ينسنا من قلب أسامة رغم محنته".

وعلى الرغم من إرهاق اليوم الطويل، وجدت نفسي أرنو إلى الساعة متمنية لو أنها تقفز إلى السادسة والنصف صباحاً، لأودع ديمة إلى مدرستها وأنطلق للقاء أسامة.

غفوت وأنا أحلم بلحظة اللقاء، أتخيل عينيه الحنونتين، وابتسامته الدافئة، وصوته الحاني. وفي أحلامي، رأيته حراً طليقاً، يعود إلينا محمولاً على

أجنحة العدالة، وكأن كل ما مررنا به لم يكن سوى غيمة صيف عابرة، تبددت مع إشراقة شمس الحق.

كنت أخطو نحو المحكمة، كأنني أسير على جمر الشوق. قلبي يخفق كأنما ألقى حبيبًا طال غيابه، لا زوجًا حبيسًا خلف قضبان الاتهام. في تلك اللحظة، تبخرت همومي كقطرات الندى تحت وهج الشمس وغمرتني سعادة غامرة كادت تطير بي إلى عنان السماء.

ولكن ما إن وصلت إلى باب العدالة الشامخ، حتى صدمني صوت أمين الشرطة الجهوري: "إلى أين تقصدين أيتها السيدة؟" فأجبت بدهشة بريئة: "إلى داخل المحكمة يا سيدي، فزوجي له جلسة اليوم." رمقني الحارس بنظرة متفحصة وقال: "أظنك من الصحفيين. هلا أريتني بطاقتك؟"

أخرجت بطاقتي بيد مرتعشة، فتفحصها الحارس بعين الصقر، ثم قال بحزم: "يُمنع دخولك يا سيدتي. هذه أوامر أمنية صارمة." كدت أن أبوح بسر زوجي المحبوس في قضية سرقة المال العام، لكن الحارس عاجلني قائلاً: تفضل بالابتعاد، من فضلك، حتى لا أتعرض للأذى الأمور اليوم في حالة تأهب قصوى بسبب قضية سرقة المليار جنيه. لأقول في توسل " أرجوك لابد أن أدخل وأكون بجوار زوجي في هذا الموقف العصيب... "

وفجأة، كملاك الرحمة في خضم العاصفة، ظهرت محامية على عتبة المحكمة. لاحظت محنتي، فتدخلت قائلة للحارس: "دعها تدخل، فهي زوجة موكلي." وأبرزت له بطاقة نقابة المحامين كدرع واقٍ من سهام المنع.

وما إن تخطيت عتبة المحكمة، حتى سألتني المحامية بلهفة: "ما قضية زوجك؟" فأجبت دون تفكير أو تردد: "إهدار المال العام." قالت بنبرة

الخبير: "أهي قضية المال العام التي تشغل الرأي العام منذ يومين؟ فأومأت برأسي إيجابًا، وقلبي يخفق بقوة.

سألتني عن اسم المحامي الموكل بالقضية، فأجبت: "الأستاذ كمال الجندي." هزت رأسها قائلة: "لم أسمع به من قبل. مثل هذه القضايا تحتاج إلى نوع خاص من المحامين المتخصصين في مجال قضايا الأموال العامة." ثم أعطتني بطاقة قائلة: "هذه بطاقة الأستاذ فوزي العزازي، أحد المتخصصين في هذا المجال. به أرقام هاتفه ورقم هاتفي أيضًا".

وفجأة، اختفت المحامية في زحام بهو المحكمة الشاهق، تاركة إياي وحيدة أنظر حولي بحيرة. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحًا، والوقت يمر ببطء قاتل، كأنه يسخر من لهفتي.

وفجأة، كأنما انشق ستار الواقع عن عالم الأحلام، تناهى إلى مسمعي نداء خافت: "ديمة! ديمة!" ارتعشت أوصالي، وجالت عيناي في أرجاء المكان. أهي أطياف الوهم تتلاعب بعقلي المكدود؟ أم هو صدى صوته يتردد في أروقة قلبي المفجوع؟

ثم عاد النداء، هذه المرة أقرب وأجلى، يشق هيبة المكان. وإذ بالحجب تنقشع، والرؤية تتجلى، فإذا به أسامة، زوجي ومهجة فؤادي، يقف أمامي كطيف من عالم آخر.

لكن يا لهول المشهد! يا لفداحة ما رأت عيناي! كان أسامة، ذلك الرجل الذي عرفته نبع الطهر والنقاء، مكبلاً بقيد حديدي. وإلى جانبه، متشابكاً معه في ذات القيد، رجل آخر بدا كأنما لفظته أعماق الجحيم، وجهه مرآة للإثم، وعيناه بئران من الظلام.

في تلك اللحظة الفارقة، أدركت أن رحلتي في دهاليز العدالة المظلمة قد بدأت للتو، توجهت إلى أسامة، وقلبي يخفق كجناح طائر حبيس، وسألته

بصوت متهدج: "كيف حالك؟ هل أنت بخير؟" فأجاب بنبرة هادئة تحمل ظلال الاستسلام: "الحمد لله." وما كاد يفيض لساني بمزيد من الكلمات، حتى قاطعنا صوت جهوري، إنه صوت أمين الشرطة المكلف بحراسة أسامة ورفيقه المخيف.

قال الأمين بلهجة آمرة: "هذا لا يليق يا أسامة! أنسيت أننا في قلب دار القضاء؟ هلمَّ بنا نرتقِ إلى الطابق الثامن، بعيداً عن أعين الفضوليين حيث يتسنى لك التحدث مع زوجتك بحرية".

صعدنا في المصعد الكهربائي. ثم سلكنا رواقاً طويلاً، يشبه دهليزاً في متاهةٍ لا نهاية لها. استقر أمين الشرطة بجوار فتاةٍ تبيع التبغ والطعام وتقدم خدمة تصوير المستندات.

نادى الأمين: "قف هنا يا أسامة. وأنت يا سفينة، إياك والشغب." فرد سفينة بصوتٍ أجش: "لك ما تريد يا شاويش جمعة. لكن هلاّ دبرت لي لفافة تبغ وكأساً من الشاي؟"

التفت جمعة إلى أسامة: ماذا تود أن تشرب يا أسامة؟" فأجاب بصوت خافت: "شاي." ثم سألني جمعة: " وأنتِ يا أستاذة ماذا تشربين؟" فأجبت بصوت مرتجف: " لا أرغب في شيء، جزاك الله خيراً".

نظر إليَّ أسامة نظرة ذات مغزى، وقال: " لو سمحتِ، أعطيني خمسين جنيهًا مما معكِ." لم أجد في نفسي رفضًا لرغبته، فمددت يدي إلى حقيبتي وأخرجت المبلغ، ناولته إياه دون تردد. أخذ النقود من يدي بلطف، وقدّمها لجمعة، ثم التفت إليَّ قائلاً: "سأشرح لك كل شيء حين يأتي الشاي. فقط اهتمي بدفع ثمن الشاي".

أقبلت بائعة الشاي، وبدا جلياً أنها وجمعة على معرفةٍ سابقة. طلب جمعة ثلاثة أكواب من الشاي. قمت بدفع الثمن دون أن يبدي جمعة أي اعتراض، وكأن الأمر معهود.

أخذ سفينة كوب الشاي، وجلس على الأرض رافعاً يده المكبلة حتى لا يرهق أسامة. كان المشهد أشبه بلوحة سريالية، تجمع بين المتناقضات في إطار واحد: الحرية والقيد، الطهر والدنس، الحب والخوف.

وقفت هناك، أرقب هذا المشهد الغريب، وقلبي يعتصر ألماً وحيرة. كيف تحول زوجي الحبيب إلى سجين مكبل؟ وما سر هذا الرجل المخيف الذي يشاركه القيد؟ وما هي الحقيقة التي تختبئ وراء هذه الأحداث المربكة؟

كانت الأسئلة تتزاحم في رأسي كأمواج بحر هائج، وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن يبدأ أسامة في كشف أسرار هذه القصة الغامضة.

انصرف جمعة حاملاً بعض الأوراق ليستوفيها من المكاتب المجاورة وقبل أن يغادر أوصاهم قائلاً: "البثوا في أماكنكم، لا يتحرك أحدٌ منكم. سأعود حال إتمام توقيع الأوراق." تاركاً لي فرصةً سانحةً للحديث مع أسامة.

نظر أسامة إلى سفينة، فوجده مستغرقاً في تدخين لفافة التبغ واحتساء الشاي، كأنه في غيبوبة، شبه مغمض العينين. فضمني إلى صدره قائلاً: "كم اشتقت إليكِ يا حبيبتي." فوجدت نفسي متجمدةً كمن هوت من عليائها إلى ثلوج القطب الشمالي. لم يخطر ببالي أن يضمني أسامة بهذه الجرأة وسط المارة. لكن سرعان ما استفقت من ذهولي، فهمست له وأنا في أحضانه: " وأنا أيضاً اشتقت إليك شوقاً لا تسعه الكلمات يا حبيبي".

سمعت دقات قلبه كأنها نغمٌ جديدٌ يطرق أذني لأول مرة. نظر في عيني وقال: "الله وحده يعلم أن كل ما أنا فيه من مصائب محض افتراء وبهتان." فأجبته: "لا تحزن، فالحق سيظهر قريباً بإذن الله." وكأن لسان حالي يناجيه

في صمت: "دع هموم القضية تغفو للحظات وأغرق معي في دفء هذا العناق. فها نحن، رغم قسوة الظروف، نلتقي كغيمتين تعانقتا في سماء الحب. كل نبضة من قلبي تهمس باسمك وكل ذرة في كياني تشتاق لقربك. هذه اللحظة، بكل ما فيها من حلاوة ومرارة، هي شهادة على قوة حبنا الذي يتحدى القضبان والأسوار. فلنغتنم هذه البرهة الثمينة، ولنملأ قلوبنا بذكرى دافئة تؤنسنا في ليالي الفراق القادمة. أنت قوتي وسندي، وأنا درعك وملاذك، وسوياً سنواجه كل العواصف، حتى يشرق فجر الحقيقة ويعم العدل".

قال أسامة، مكابداً مشاعرنا في ظل وجود الناس حولنا، محاولاً الحفاظ على رباطة جأشه: "لم أستطع أن أتمالك نفسي وأنا أحادث ديمة بالأمس لم أتمكن من منع دموعي رغم محاولاتي." فقلت له: "لقد شعرت بذلك." فقال: "أصغي إليَّ جيداً قبل أن يعود جمعة. داخل عالم الزنزانة، يسود قانون ينص على أن تكلفة المكالمة عشرين جنيهاً.

ولكي يسمح لي جمعة بمحادثتك الآن، أخذ خمسين جنيهاً. أعلم أنني أصبحت عبئاً عليكِ في النفقات، ولكن"...

قاطعته قائلة: "ماذا تقول؟ أنسيت أن كل هذا من فضلك؟" فقال لي بشغفٍ وصدقٍ ويقين: "إن شاء الله سيظهر الحق وأعوضك عن كل هذا. على فكرة، علمت أنكِ كنتِ أمام القسم أول أمس ولم تتمكني من الدخول، وعلمت أيضاً أن أهلي تشاجروا مع إخوتك ليلة القبض عليَّ. الأستاذ كمال أطلعني على جميع التفاصيل. وبنبرة تفيض بالضعف والتوسل، قال: ‘‘أرجوكِ يا غادة، لا تغضبي من أمي. فهي والدتي في النهاية، الله سيجازيك خيرًا على ذلك، فلا يضيع عنده معروف وثقي بأن العطاء لا ينقص من صاحبه، بل يزيده بركة. "

قلت له أنني متفهمة للوضع حتى لا يطيل في هذه النقطة. تذكرت كلام خالتي وقلت: "علمت أن الحكومة قد تستولي على البيت، هل هذا ممكن؟" فقال في أسى: "كل شيء وارد، لذا طلبت من الأستاذ كمال أن يحضر عقد تمليك، سأكتب البيت باسمه لأنه لا يمكنني كتابته باسمك." فقلت له أنني متفهمة لهذه النقطة أيضاً.

قال: "يمكنك أخذ نقود من الأستاذ كمال لمصاريف مدرسة ديمة ومصاريف البيت والقضية. البيت قيمته قد تصل لحوالي نصف مليون جنيه الآن." فقلت له: "لن نبيع البيت." فقال في دهشة: "ومن أين ستنفقين؟" فقلت له بتفاءل: "بيع الطيور سيدبر الأمور لبعض الوقت." فقال: "يبدو أن الحبس سيطول." فقلت له: "لا تتشاءم".

قال: "على أي حال، قبل أن أنسى، لا تأتي إلى القسم اليوم." سألته بدهشة: "لماذا تقول هذا؟ تفاءل، ربما يُخلى سبيلك اليوم." فضحك وقال: "لا شيء بعيد عن الله".

قلت له: "سأذهب لأحضر لك شطائر وعصيراً وماءً." فقال: "انتظري حتى يعود جمعة، لم أشبع بعد من النظر في عينيك." فاحمر وجهي وارتفعت حرارته، ونظرت إلى الأرض. فضحك وقال: "هل قلت لك هذا لتنظري إلى الأرض؟" فنظرت إليه وقلت بخجل: "أسامة، نحن وسط الناس." فقال: "في القسم لن أستطيع النظر في عينيك ولا التحدث إليك، فالحركة هناك محسوبة".

قلت له محاولةً إخفاء خجلي: "ألا تريد النقود التي طلبتها بالأمس؟ " فقال: "آه، كدت أنسى. أحضري بسرعة مائة جنيه قبل أن يعود جمعة." فأعطيته إياها، وأمسك بيدي وأنا أناوله النقود، وكأن تياراً كهربائياً بقوة مائة فولت قد سرى في جسدي.

وفجأة، دوى صوت إنعام كالصاعقة في أذني: "أسامة يا ابني، كيف حالك يا حبيبي؟" فأسرع أسامة بإخفاء النقود في جيبه، ثم احتضن والدته التي كانت برفقة العم فؤاد وأخيه ماجد. من رد فعل أسامة، بدا جلياً أنه لم يكن على علم بقدومهم. لاحظت أيضاً أن إنعام تجاهلت السلام عليّ تماماً.

قالت إنعام بنبرة مشحونة بالغيظ: "أيعقل أن تكون زوجتك معك في المحكمة ونحن نعلم بالأمر بالصدفة؟" توقع أسامة نشوب خلاف، لذا طلب مني قبل أن يرد على والدته أن أذهب بصحبة أخيه ماجد لإحضار بعض الشطائر من الكافتيريا.

توجهت مع ماجد وأنا ما زلت أشعر بنشوة من أثر عناق أسامة. كم كنت في حاجة إلى هذه الشحنة من الطاقة الإيجابية! لم أعر تصرف إنعام أي اهتمام. قال لي ماجد: "معذرةً، أعلم أن تصرفات أمي حادة بعض الشيء، لكنك معروفة بهدوئك وحسن معاملتك".

أجبته مندهشة: "لا أفهم سر هذه المعاملة الجافة تجاهي من والدتك! لكن يعلم الله أنني لا أستطيع أن أكرهها لمجرد أنها والدة أسامة." ابتسم ماجد وقال: "هذا ما عهدته فيك يا زوجة أخي، نموذج للمرأة الصابرة المكافحة التي تتحمل الكثير حفاظاً على بيتها وزوجها".

عدنا بالطعام والشراب، فوجدت أخت أسامة الصغرى، دينا، التي أشاحت بوجهها متجاهلة إياي. كعادتي، حاولت أن أتجاوز الإحراج.

سألت أسامة: "هل أتصل بالأستاذ كمال لأعرف أين هو الآن؟" فأجاب: "نعم، بسرعة، فالجلسة على وشك البدء." وقبل أن أتصل قال أسامة: "انتظري، ها هو الأستاذ كمال قادم".

وقفت هناك، أتأمل المشهد أمامي. عائلة أسامة المجتمعة، وأنا أقف على الهامش كغريبة. شعرت بألم في قلبي، لكنني تذكرت أن حبي لأسامة أقوى من كل هذه العقبات.

دخل أسامة قاعة الجلسة وما هي إلا لحظات بدت لي كدهر، حتى خرج. رأيت على وجهه ظلال خيبة الأمل فأدركت على الفور أنه تم تجديد حبسه. شعرت وكأن سهماً قد اخترق قلبي، لكنني تماسكت.

اتجه أسامة بعدها، بصحبة جمعة وسفينة، إلى سيارة الترحيلات المخصصة للمساجين. راقبته وهو يبتعد، وقفت هناك متجمدة، أشعر بثقل العالم على كتفي. كنت أريد أن أركض إليه، أن أحتضنه، أن أخبره أنني سأنتظره مهما طال الزمن. لكنني استجمعت قواي، مذكرة نفسي بأن هذه ليست سوى معركة في حرب طويلة وأننا سننتصر في النهاية.

(٨)

عدت إلى البيت، وما إن استسلمت ديمة لسلطان النوم، وسرعان ما غفوت أنا الأخرى. لكن راحتي لم تدم طويلاً، إذ انتفضت مذعورة على صوت الهاتف الرنان كأنه نذير شؤم يقتحم سكون البيت.

وإذ بصوت أختي وسام يتسلل إلى أذني عبر أثير الهاتف، كنسمة عليلة تحمل عبق المواساة في ليلة حالكة.

همست وسام بصوت يشوبه الألم والعطف "كيف حالك يا أختي الغالية؟ أشعر بمدى ثقل ما تحملينه على كاهلك أخبرني ماذا حدث مع أسامة اليوم؟

شعرت بغصة في حلقي، وكأن كلمات أختي قد فتحت سدًا من المشاعر المكبوتة. "آه يا وسام،" تنهدت بصوت متهدج، "الأيام ثقيلة والليالي أطول من أن تُحتمل. أسامة سيقبع في غياهب السجن لمدة خمسة عشر يوماً إضافية.

"قلبي معك يا غادة،" ردت وسام بحرارة، وكأنها تحتضنني بكلماتها "أنت أقوى مما تظنين. تحملك لكل هذا يشهد على صلابتك وعظمة روحك".

ثم أضافت بنبرة ملؤها الأمل: "تذكري يا أختي، أن بعد الظلام فجرًا وبعد العسر يسرًا. سيأتي اليوم الذي تنقشع فيه هذه الغمة، وتعود الفرحة إلى بيتكم".

شعرت بدفء كلماتها يسري في أوصالي، يذيب جليد اليأس الذي كاد يتسلل إلى قلبي. "جزاك الله خيرًا يا وسام،" قلت وأنا أحاول كبح دموعي، " كلماتك كانت بمثابة بلسم لروحي المتعبة، وأشعرتني ببعض الراحة والسكينة".

"نحن معك يا غادة، في السراء والضراء،" أكدت وسام بحزم محب "لن نتركك تواجهين هذه المحنة وحدك. كلنا يد واحدة، وقلب واحد.

ثم، وكأنها تحاول تغيير مجرى الحديث المؤلم، طلبت مني شراء بعض الطيور لها ولوالد زوجها. أدركت على الفور أن طلبها هذا ما هو إلا محاولة لطيفة لمد يد العون، فالكمية التي طلبتها كانت أكبر بكثير مما اعتادت على شراءه منى. شعرت بدفء المحبة يسري في عروقي ممتنة لهذه اللفتة الرقيقة في خضم هذه الأيام العصيبة.

أنهيت المكالمة مع وسام على وعد بإرسال الطيور إليها، وأنا أشعر بمزيج غريب من المشاعر. ففي حين أثقل الحزن على قلبي لوضع أسامة، غمرني شعور بالامتنان لوجود من يهتم ويحاول المساعدة ولو بطريقة غير مباشرة.

ازدادت برودة الجو، كأنما الطبيعة تشاطرني أحزاني وتواسيني في محنتي. نهضتُ من فراشي الذي لم يعرف طعم الراحة منذ أيام وتوجهت إلى حيث تقبع طيوري الوفية ودجاجاتي المخلصة. بيدين حانيتين، قدمت لهم الطعام والماء، كأنني أقدم لهم قرابين الحب والوفاء. نظفت مأواهم بعناية فائقة، كأنني أطهر معبداً مقدساً من آثار الزمن، وأثناء تفكيري في كل ما يحدث أحسستُ برغبة جامحة تكاد تمزق أوصالي لرؤية أسامة، كأن روحي تنادي روحه عبر القضبان. لم يكن أمامي من سبيل سوى أن أطرق أبواب القسم، ذلك المكان الذي يحبس فيه قلبي خلف جدران باردة.

اتصلت بأختي منة، وبكلمات ملتهبة أقنعتها بمرافقتي. خرجنا، أنا ومنة وابنتي الصغيرة ديمة، كثلاثة حمامات يحلقن في سماء الحزن. تركت ديمة ومنة يتجولان حول القسم، حتى لا تدرك الصغيرة فداحة ما نحن فيه. اشتريت لأسامة طعاماً وماءً وعصيراً، كأنني أحمل إليه شيئاً من دفء البيت وحنان الأسرة.

وصلت إلى القسم، والساعة تشير إلى العاشرة والثلث مساءً. كانت المفاجأة أن الطابور أقصر من البارحة، كأن القدر يبتسم لي للحظة. وبعد دقائق معدودة، بدأت امرأة خلفي في الحديث، تقتل الوقت بكلمات عابرة. فهمت من حديثها أنها تزور مجموعة من الفتيات، على سبيل الإحسان والعطف.

لفت انتباهي هيئتها الغريبة، ترتدي عباءة لا تناسب عمرها، مما أثار في نفسي الريبة. لكنني قلت لنفسي: "وما المانع أن ترغب في الشباب الدائم؟" أخبرتني أنها تدعى أم هيام، وطلبت رقم هاتفي، واعدة إياي بالمساعدة في تجنب الانتظار الطويل مستقبلاً.

قبل أن أعطيها الرقم، ناداها أمين الشرطة: "تعالي يا أم هيام". بدا واضحاً أنها معروفة لدى الشرطة. يا لها من سيدة بر وإحسان! وقفتُ مذهولةً، تتصارع في نفسي أمواج من الشك والريبة. كانت طريقة مشى أم هيام تثير في قلبي ألف سؤال وسؤال. تمايلت خطواتها كأغصان شجرة تداعبها نسمات الصبا، فيها من الليونة ما يخالف طبيعة النساء في مثل سنها. كأنما هي غزال شارد في غابة من البشر يتهادى بخفة تناقض ثقل العباءة التي ترتديها.

تساءلت في نفسي: "أهذه مشية امرأة تقية تأتي لزيارة المسجونات بدافع البر والإحسان؟ أم هي خطوات من اعتادت التخفي والمراوغة، تتقن فن التمويه كما يتقن الثعلب خداع فريسته؟" حاولت أن أكبح جماح ظنوني، مذكِّرة نفسي بقول الله تعالى: "يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّن الظَّنّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنّ إِثْمٌ."

لاحظت أنها وضعت مبلغاً في يد الأمين، ثم أشارت لي. اقتربت منها فهمست في أذني أن أعطي الأمين عشرين جنيهاً لأدخل قبل الطابور. رحبت بالفكرة، ودفعت المبلغ، لكن جاء سؤال الأمين ليصعقني كصاعقة من سماء صافية: " إلى من تتوجهين بقدومك إلى هنا؟ أللآداب أم للفجور؟"

وقع السؤال على أذني وقع الصخر على زجاج رقيق. كيف لرجل في موقع المسؤولية أن يتفوه بمثل هذه الكلمات؟ أهكذا يعامل النساء اللاتي يأتين لزيارة أحبائهن المسجونين، محملات بأثقال الهم والحزن؟ أجبته بصوت يرتجف من هول الصدمة: "كلا إنني قاصدة زوجي أسامة فؤاد الشايب". فإذا به يرد في ذهول: "آه صاحب قضية المليار! إذن، فإن العشرين جنيهاً تغدو خمسين، وما هي إلا نقطة في بحر خضم"، ثم ضحك ضحكة سمجة. وقفت مشدوهة، أحس بالإهانة تسري في عروقي كالسم الزعاف. كيف يجرؤ على وضعي في هذا الموقف المشين؟ وكيف له أن يتاجر بواجبه كحارس للقانون، وكأنه يعمل في ضيعة لا مالك لها ولا رقيب؟

وقبل أن أسمح للغضب بالسيطرة عليّ، أردف: "لا عليكِ، دعي هذه المرة على حسابنا. تفضلي يا سيدتي الكريمة."

كظمت غضبى، فحاجتي لرؤية أسامة كانت أقوى من كرامتي الجريحة. دلفتُ إلى القسم قبل أن تبدأ الزيارة، فنادى أمين شرطة آخر على أسامة، مُخرجاً إياه من محبسه. جاء أسامة، والدهشة تعلو محياه لرؤيتي، لكن ابتسامتي الحانية بددت حيرته. فهم على الفور أنني أتيت لأراه وأخفف عنه وطأة محنته. هكذا نحن، يكفينا تبادل النظرات لنقرأ ما في القلوب. رغم ذلك، بادرني قائلاً بصوت يشوبه القلق: هل حدث أمر ما؟ "فأجبته بنبرة طمأنينة: "كلا يا نور عيني، الجميع بخير. ما جئت إلا لأطمئن عليك. اشتقت إليك اشتياق الأرض للمطر".

ابتسم ابتسامة عذبة وقال: "والله إنكِ لمجنونة يا غادة ".همستُ له بصوت خافت: "نعم مجنونة بحبك يا حبيب قلبي". فرد على بهمس مماثل: "والله إني أحبك أكثر مما تتصورين، يا نبض قلبي".

ناولته ما أحضرته، قائلة: "خذ هذا يا حبيبي، طعام وماء وعصير لتقوى بهم ".فقال بامتنان: "جزاكِ الله خيراً، وجعل بيت المحسنين عامراً ".أجبته بحنان: "كل هذا من فضلك يا حبيبي".

سألني عن ابنتنا ديمة، ظاناً أنها عند خالتها وسام. فأخبرته أنها بالخارج برفقة أختي منة، يقفان بالقرب من القسم. عندها قال لي بقلق: "يا ابنة الكرام، لا تُرهقي نفسك من أجلي. ارحمي نفسك".

أجبته بعاطفة جياشة: "لو بذلت عمري كله من أجلك، ما كان ذلك شيئاً يُذكر في ميزان حبي لك".

قال لي والحزن يعتصر قلبه: "يبدو أن المحنة ستطول ".طمأنته قائلة: "لا تهتم يا نور عيني، فصبري على البلاء لا حدود له".

قاطعنا الأمين قائلاً: "يكفي ذلك".

توجهت إلى حضن أسامة، وعانقته في وداع يبدو للناظر عادياً، لكنه كان بالنسبة لي مصدراً للقوة والعزيمة. كنت أستمد منه طاقة هائلة تماماً كما حدث في المحكمة. يا لحال الأنثى حين تعشق! تغدو أنانيتها في حب حبيبها لها شيئاً في غاية الجمال والرقة.

خرجت، وقلبي يخفق بقوة كأنه يريد أن يخرج من صدري ليبقى معه. عزائي الوحيد كان أنني رأيت حبيبي.

توجهنا إلى بيت أبي، بعد أن مررنا على منزلي وأحضرت بعض الأغراض. وجدت أمي، مستيقظة تنتظرنا بقلب يخفق قلقاً. سألتني بلهفة: "ما أحوال أسامة يا بنيتي؟" فطمأنتها قائلة: "هو بخير يا أماه صابر محتسب".

(٩)

استغرقت في نوم عميق، كأنني أهل الكهف في سباتهم الطويل. استيقظت والساعة تشير إلى الحادية عشرة ظهراً. يا لها من مدة طويلة! خرجت إلى الصالة، فوجدت إخوتي الثلاثة - إيناس ووسام ونهى - جالسين في دائرة يغمرها التوتر. ما إن رأوني حتى خيم الصمت على المكان، فأيقنت أن حديثهم كان يدور حول محنتي.

لمحت والدي جالساً أمام التلفاز، يتابع بشغف أحد البرامج الرياضية. حتى لو كانت إعادة لمباراة قديمة، فالكرة هي كل حياته، أو ما تبقى له منها. فقد قارب على السبعين من عمره، وكأن كرة القدم هي الخيط الرفيع الذي يربطه بعالم الشباب والحيوية.

كسرت إيناس الصمت المخيم قائلة بتحفظ: "كيف حالك يا غادة؟ أجبتها بابتسامة مصطنعة تخفي وراءها بحراً من الألم والمرارة: "بخير والحمد لله".

لم تطل اللحظة حتى بادرت وسام، التي لا تحب المواربة: "نريد أن نتحدث معك قليلاً".

جلست وقد تملكني شعور بالريبة من نواياهم. بدأت نهى الحديث هذه المرة: "علمنا أن أسامة قد حُكم عليه بخمسة عشر يوماً، أي أن الحبس قد يطول كما توقع عماد. ما الذي تنوين فعله؟"

أجبتها بصدق واندهاش: "لست أفهم ما ترمين إليه".

تدخلت إيناس موضحة: "الآن بات واضحاً أن أسامة لم يُطلعك على مكان أمواله، والبيت ليس مسجلاً باسمك، ناهيك عن فضيحة حبسه وابنته التي عليك تربيتها، وكلام الناس".

بدأت أستشف الغاية من اجتماعهم، فسألت: "أهذا هو سبب تجمعكم؟"

حاولت وسام تلطيف الأجواء: "لا تسيئي الفهم. لقد طلبت نهى منى الحضور لنفكر سوياً بصوت عالٍ في حل مشكلتك".

سألتهم بحذر: "وما الذي تريدونني أن أفعله في رأيكم؟"

أجابت نهى بحسم: "أن تطلبي الطلاق بالطبع".

ثارت ثائرتي وقلت بغضب: "طلاق؟! أهذا هو الحل من وجهة نظركم؟ أن أتخلى عن أسامة في ظروفه هذه؟ أن أتخلى عن أجمل ما في حياتي؟"

تساءلت وسام: "أستنتظرينه عشرين عاماً؟"

تألمت لسماع هذا الرقم، لكنني تماسكت وأجبت: "لو كان العمر كله".

سألت إيناس: "ومن أين ستنفقين؟ وكيف ستعيشين؟"

أجبتها بحزم: "هذا أمر يخصني وحدي. عندما آتي لأطلب منك جنيهاً أغلقي بابك في وجهي".

قالت بمكر: "إذن، فهو قد ترك لك أموالاً بالفعل".

أجبتها بتحدٍ: "هذا لا يعنيك".

عادت وسام للحديث: "حسناً، وماذا عن ابنتك ومستقبلها؟ وماذا سيقول الناس عندما يعلمون أن أباها مسجون؟"

أجبت بثقة: "أسامة بريء، وسيخرج بإذن الله".

قالت نهى: "خالتك فضحتنا في البلدة، والعائلة بأكملها تتحدث عن أنه كان من الأفضل لو تزوجتِ ابنها. وتقول أيضاً إن الحكومة ستصادر البيت، وهذا ما أكده أصدقاء عماد زوجي المحامين".

أضافت إيناس لتزيد الطين بلة: "نعم، دعيه يكتب البيت باسمك. هذا أقل ما يمكن أن يفعله مقابل وقوفك بجانبه وهو محبوس".

هنا، شعرت بالغضب يتصاعد في داخلي، فقلت لها بحدة: "ولماذا لم يكتب أزواجكن أنتن شيئاً باسم أي منكن؟ مع أنك يا إيناس متزوجة منذ عشرين عاماً، وأنتِ يا وسام منذ حوالي عشر سنوات، ونهى هانم منذ ست سنوات"!

وقفت هناك، أشعر بمزيج من الغضب والخذلان والحزن. كيف لأخواتي أن يقترحن على التخلي عن زوجي في أحلك ساعاته؟

تمايلت نهى بأداء تمثيلي فج قائلة: "لأن أزواجنا لا أحد منهم محبوس".

هنا تدخل والدي، ذو القلب الطيب والملامح الحانية، قائلاً بصوت ملؤه الحكمة والعتاب: "ماذا تريدون منها؟ أليس ما هي فيه كافياً؟ أتريدون أن تكونوا أنتم والزمن عليها؟ كل هذا لأنها الوحيدة بينكن التي تزوجت من تحب؟ لو عرف أحدكم معنى الحب ولو مرة واحدة في حياته، لما قال لها هكذا. الله يعينكم على سواد قلوبكم".

دخلت أمي حاملة الخبز وطعام الإفطار، وقد سمعت أخر كلمات أبي فسألت: "ما هذا الصوت العالي؟ صراخكم يصل إلى آخر الشارع! ما الأمر؟"

أجبتها و قلبي يخفق من هول الخذلان: "لا شيء يا أمي".

شعرت وسام بالإحراج لانسياقها وراء تدخلهم السافر في حياتي الشخصية فقالت: "لقد تأخرت كثيراً، ويجب أن أذهب قبل أن يعود زوجي من العمل".

قالت إيناس بنبرة استفزازية: "وأنا خذيني معك، فزوجي يريد مني اليوم أن أعد له طاجن ورق العنب، وهذا يستغرق وقتاً".

أضافت نهى وهي تمسك بعباءة إيناس: "وأنا يجب أن أذهب لأحضر الإفطار لعماد قبل أن يستيقظ. فقد قضى الليل كله في العمل بالورشة وأنهى عمله مع الفجر".

ذابت الثلاث عن ناظري، وأنا واقفة هناك، لا أدري ماذا أفعل. تذكرت المقولة الشهيرة "الكل باعوك يا ريتشارد"، ولم أفهم معناها بهذه القوة إلا الآن.

نظرت إلى والدي بامتنان، شاكرة له وقوفه بجانبي. ثم التفت إلى أمي التي كانت تنظر إلي بعينين مليئتين بالحنان والقلق.

وقفت هناك، وقد اعتصر قلبي مزيج من الألم والقوة. شعرت بالوحدة تطوقني من كل جانب، لكن في الوقت نفسه، أحسست بعزيمة تتصاعد في داخلي. عزيمة مستمدة من حبي لأسامة وإيماني الراسخ ببراءته.

قطع حبل أفكاري صوت أمي الحنون، يشق صمت الغرفة: "هلمي يا غادة". وضعت أمامي صحنًا يفوح منه شذى الإفطار الشهي، ودفء حنانها يغلف كلماتها: "أسرعي يا حبيبتي، قبل أن يبرد الطعام."

حاولتُ التملص قائلة بصوت خافت: "لا شهية لي يا أماه". لكن والدي بجلبابه الأبيض الناصع ووجهه الأحمر كصفحة وردة، نهض بحزم ممزوج بمرح قائلاً: "أقسم بطلاق أمك، لتشاركينا الطعام ولا تشغلي بالك بأولئك الأوغاد."

ابتسمت أمي ابتسامة رقيقة وهي تقول: "هيا يا غادة، أترضين بعد هذا العمر أن يطلقني أبوك وألقى في الطريق؟"

انتزعت مني ابتسامة رغمًا عني، وجلست أشاركهم الطعام، وكأن دفء العائلة يسري في عروقي، يمنحني قوة خفية لمواجهة الأيام العجاف.

وما هي إلا لحظات حتى دلفت ديمة من باب البيت قادمة من المدرسة تسعى نحو جدها. قبّلها على وجنتها وقال بحنان: "لا أدري لِمَ أحفاد بناتي في كفة، وأنتِ يا ديمة في كفة أخرى". ابتسمت ديمة لمداعبة جدها، ثم التفتت إليّ قائلة: "أماه، غدًا تطلب المدرسة حضور أبي، وها هي الورقة."

قرأت الورقة بقلب يخفق كجناح طائر مذعور: "مطلوب حضور ولي أمر التلميذة ديمة أسامة فؤاد الشايب". شعرت بالخوف يتسلل إلى أعماقي كثعبان بارد، وألف سؤال يدور في رأسي: أعلمت المدرسة بمصير أسامة؟ أم أن هناك أمرًا جلًلا يخص ديمة لم أحط به علمًا بعد؟

نظرت إلى ابنتي الصغيرة، وأدركت بألم أنها هي الأخرى قد دخلت في دوامة الابتلاءات التي أسرتني.

(١٠)

توجهت في صباح اليوم التالي بصحبة ديمة إلى المدرسة كالمسافر الذي يخطو بحذر على جسر متهالك، دليت بخطواتي نحو بوابة المدرسة، وقلبي ينبض بالقلق والترقب. فما إن عبرت عتبة تلك البوابة حتى طغى الشك على نفسي: ماذا لو اعترضت إدارة المدرسة على وجود ابنتي ديمة، بحجة أن والدها محبوس ومتهم؟ كيف سأواجه هذا الموقف المحرج؟ تملكني الارتباك وأنا أتقدم خطوة وأتراجع أخرى.

ولكن ما إن رأت ديمة صديقتها حتى تركتني وانطلقت إليهم كطائر حر قادم من قفص. فتوجهت بخطى متثاقلة إلى مكتب نائب المدير تلك السيدة في أواخر الأربعينات التي استقبلتني بابتسامة رحبة. أخرجت لها طلب الحضور، لتقول بلطف: "لقد قررت إدارة المدرسة تشكيل لجنة من أولياء الأمور لبحث مشكلات التعليم. وبما أن ولى أمر ديمة عضو في الجمعية العمومية للمدرسة، فقد تم إرسال طلب لحضور ولي أمر ديمة".

تنفست الصعداء وشعرت كأن الدم عاد ينساب في عروقي. قلت بعد أن جمعت أفكاري: "لكن والد ديمة مشغول هذه الفترة بالعمل في صعيد مصر. هل من الممكن أن أحل محله؟"

ابتسمت نائب المدير ابتسامة هادئة مطمئنة: "لا يوجد أي مشكلة، هناك تلاميذ آخرون فقدوا آباءهم، والأمهات يحضرن مكان الآباء." وبالفعل قمت بملء استمارة البيانات، وتركت صورة من بطاقتي الشخصية.

وما إن خرجت من المكتب حتى شعرت كأن جبلاً ضخماً قد انزاح عن صدري. عدت إلى ديمة قبل بدء طابور الصباح، ووضعت قبلة على خدها الندي وهي تبتسم كزهرة متفتحة. ثم تركتها وأنا أقول في نفسي: الأعباء تزداد يا أسامة".

وإذ ارتج هاتفي في تمام الساعة الخامسة مساءً، أسرعت إليه كمن يقتنص شعلة من نار وشيكة الانطفاء. لقد كان صوت أسامة يتردد بعجلة: "يا غادة، أرجوك أن تحضري لي بطانية معكِ".

أجبته بلهاث وقلب يضطرب: "نعم، يا حبيبي. لكن كيف حالك؟

أجاب: الحمد لله، ماذا عن ابنتنا ديمة؟"

فقولت له: إنها نائمة

فسألني أسامة بنبرة مشحونة بالتوجس: "من سيأتي معكِ هذه المرة لزيارتي في هذا الوقت المتأخر؟

وبما انه لا يوجد أحد قولت له: سوف أتصرف

ليسأل: كيف استطعتِ في المرة الماضية الدخول قبل موعد الزيارة".

ابتسمت ابتسامة خفيفة وأنا أستحضر لطف أم هيام ورحمتها. "لا داعي للقلق، يا أسامة. فأنا وسيدة تحب العمل الخيري تدعى أم هيام، قد صرنا صديقتين. وهي تأتي بالطعام والشراب للبنات المسجونات كنوع من المساعدة".

وما إن همس أسامة اسم "أم هيام"، والدهشة تحيط بصوته شعرت أن قد انشق السماء بصاعقة رهيبة تنفذ إلى أعماق روحي.

فسألته بصوت مرتجف: هل تعرفها جيدًا؟"

انخفض صوته إلى همس محذر: "نعم يا غادة، إنها امرأة تدير شبكة دعارة معروفة للجميع في القسم، حتى المسجونين".

عصفت بي موجة من الذهول والحيرة. لقد كنت على وشك الانخداع بتلك المرأة التي بدت في نظري كرمزٍ للخير والعطاء، وانساق خلفها دون تردد، كما يحدث في أفلام الجريمة الرخيصة. هل أضحك على حماقتي أم أبكي على غباوتي؟ لم أكن أدري شيئًا عن هذا العالم المظلم الذي يحيط بي، وكأنني لا أعرف سوى نقطة صغيرة على شاطئ بحر الحياة.

وسرعان ما استدركت الموقف، فسألت أسامة بحذر: "إذن لماذا لا يقبض عليها البوليس؟"

همس لي أسامة بصوت خافت: "هذا ليس موضوعنا الآن. عندما تأتي إلى هنا، سأخبرك بكل شيء".

قلت له بهدوء: "حسنًا." ثم ودعته وأنا أحاول استيعاب ما سمعته. كم كنت على وشك الانخداع بمظهرها اللطيف وانساق خلفها دون تردد!

وطأت ساحة القسم وأنا أمسك بطعام أعددته بيديّ لأسامة، وتركتُ ديمة تحت رعاية جدتها حذراً من أن ألفت أنتباهها لشيء.

ولم تمض سوى لحظات قليلة حتى شعرت بمن يلوذ من خلفي ويوجع كتفي، فارتعد كياني واستدرت بسرعة. وإذا بامرأة تبدو عليها ملامح البؤس والبساطة، تشير بكفّها وتقول: "هناك سيّدة تنتظرك". فالتفت ببصري في الاتجاه الذي أشارت إليه، فرأيت أم هيام تؤمئ لي بالخروج من الطابور والتوجه نحوها.

وما كان من نفسي إلا أن اختلجها شعور مُركّب من الارتباك والخوف إذ لم أدرك ما المقصود بهذا التصرف الغريب. وبينما كنت أتقدّم نحوها، شعرت أن أعين جميع المنتظرين في الطابور تحدق بي كأنهم يرون فيّ امرأة قد دُنّست بأعمال وضيعة.

فلما وصلت إلى أم هيام، ابتسمت هذه الأخيرة ببراءة دينية، وسألتني بلطف: "كيف حالك يا بنية؟" فرددت عليها بجمود: "الحمد لله". فأضافت: "لقد شغلني أمرك كثيرًا، فأنت قد دخلت قلبي وتعاطفت معك بعد ما حكى لي الأمين جمعة حكاية زوجك. وإنني لأنوي أن أقوم لك بخدمة لوجه الله."

وإذ لم أستطع النطق بكلمة، هززت رأسي منتظرة منها أن تفضح نواياها الخبيثة. فقالت وقد طرأ على وجهها انبساط: "هناك مكتب محامٍ كبير ماهر جداً، قرب منزلي. فأنت ستكونين ضيفتي الليلة، تأتين وتبيتين عندي، وتشرحين له قضيتك. وسيعمل على إخراج زوجك منها كما تخرج الشعرة من العجين."

وهنا حشدت كل ما في كياني من قوة، وقررت أن أواجه لعبتها الدنيئة بحيلة، فقلت بنبرة واثقة: "أنا لست لوحدي، فأخي الأكبر معي. وهو الآن يجلس في مقهى قريب من القسم، وسينتظرني بعد زيارتي لزوجي. وكذلك هناك محامٍ كبير جداً جداً يعمل بجد على القضية. وأنا لا أستطيع المبيت خارج المنزل، إذ أذهب كل صباح للمستشفى لتلقّي حقن ودواء، لأنني مصابة بمرض خطير جداً."

فاندهشت أم هيام، وارتدت خطوتين إلى الخلف، وقالت لي بدهشة واشمئزاز: "حسنًا ابتعدي خطوة... لا لا عودي إلى مكانك في الطابور قبل أن يفوتك أفضل."

وبالفعل عدت إلى الطابور، وقد غمرتني نشوة النصر، لأن مكائد أم هيام لم تنجح معي. فوجدت السيدة الكبيرة التي كانت تقف خلفي في الطابور تقول لي بسعادة: "حفظك الله لشبابك يا بنية. أم هيام تلك لعنة." وعندها أدركتُ أن دنس أم هيام قد ذاع صيته داخل وخارج القسم.

دخلت إلى قبر الزيارة حيث كان أسامة ينتظرني، وما إن رأيته حتى اقترب مني بابتسامة دافئة، ليلمس خدّي بخده في تحية تحمل بين طياتها دفء الحب والاشتياق. ضمّني إليه بحضن سريع لكنه كان مليئًا بالحنان والدفء، ثم قال بصوت هادئ، لكن بنبرة تخفي تحذيرًا: "أم هيام تلك قوادة".

حاولت أن أرد عليه، لكنّه أكمل حديثه بسرعة: "أم هيام تسرح بنات على العرب ورجال الأعمال. وهي أذكى من أن يُقبض عليها الآن لكنها مسجّلة في سجلات الآداب منذ زمن".

ابتسمتُ له محاولًة طمأنته وقلت: "لا تقلق، زوجتك بألف رجل".

نظر إليّ بحنان عميق وقال: "أعلم جيدًا أنك أنقى من أن تتعاملي مع هذا المجتمع بما فيه من ملوثات. عليكِ أن تأخذي حذرك من كل من حولك، لا أحد يقول شيئًا دون أن يكون له مغزى. عليكِ أن تقرئي ما بين السطور. الناس لم يعودوا كما كانوا من قبل".

أحسست بشيء من القلق يسيطر عليه، فقلت له بهدوء: "هون على نفسك، كل شيء سيكون على ما يرام".

وفي تلك اللحظة، سُمع صوت لطمة قوية على الوجه تلاها صرخة أنثى مدوية. التفّت الأنظار نحو مصدر الصوت، فوجدت أن الضابط المسؤول عن مراقبة الزيارة قد لطم خد أم هيام. بدأ الضابط يتحدث بصوت عالٍ وغاضب، وتبيّن من حديثه أنها كانت تحمل حبوبًا مخدرة مخبأة في حقيبة الزيارة. أمر الضابط بإعادة تفتيش جميع حقائب الزوار، وقرر كتابة محضر بالواقعة ضدها.

نظر أسامة إليها وقال بنبرة تأملية: "سبحان الله، لقد وقعت أم هيام في شر أعمالها وستنال العقاب الذي تستحقه".

بعد أن انتهوا من تفتيش حقيبة الطعام، طلب مني أسامة مغادرة المكان وأعطاني إشارة بأنه بحاجة إلى مائة جنيه. لم أتردد وأعطيته المبلغ. وعندما حان وقت الوداع، وفي حين كان الجميع منشغلين بتفتيش الحقائب، اقترب مني فجأة وضمني بحضن قوي، ثم قبّل شفتي بسرعة. شعرت بالمفاجأة ووقفت متجمدة لثوانٍ غير قادرة على استيعاب ما حدث، لكني سرعان ما تداركت الموقف وقلت له بلهجة مزيج من العتاب والمزاح: "أنت مجنون"!

ابتسم لي بخبث وقال: "أتحبين أن أفعلها مرة أخرى لأريكِ مدى جنوني؟"

دهشت من جرأته، لكنني لم أستطع منع السعادة التي غمرتني في تلك اللحظة. نظرت إليه بعينين مليئتين بمشاعر جياشة، واكتفيت بكلمة واحدة: "سلام".

ثم تركته وخرجت من القسم، وأنا في أوج السرور، تكتسي جوانح قلبي بحرير الدفء، بينما يعصف هناك خارجًا نسيم البرد، كأنما يعكس ما يعتمل في أعماقي من اضطراب وامتزاج متناقض للمشاعر.

(١١)

مرّت الأيام كسحابةٍ ثقيلة، حتى أضحى على حبس أسامة أربعون يوماً تقريباً، بعد أن تجدد حبسه خمسة عشر يوما، ثم خمسة عشر يوما أخرى. اشتد الشتاء، واكتست الدنيا بثوبٍ من برد قارس. وفي عصر ذلك اليوم، طرق بابي زائرون، عزة أخت أسامة الكبرى، وأمل. استقبلتهم بالترحاب، وكنت آنذاك منهمكةً في رعاية الكتاكيت حديثة الفقس.

طلبوا مني مرافقتهم إلى والدتهم، السيدة إنعام، بغية تصفية أجواء المشاحنات بيننا. وبما أنني الأصغر سناً، فقد كان لزاماً عليّ أن أبادر بالسلام. بعد حوارٍ طويل استغرق قرابة الساعة، توجهت معهم.

دلفت إلى بيت السيدة إنعام، فوجدتها بوجهٍ عابس عند رؤيتي. لكنني عقدت العزم على تحمل أي شيء يصدر منها. بدأنا في مناقشة الأمور وتطرقنا إلى أمر ضلوع المحامي فوزي العزازي في قضايا الأموال العامة. أخبرهم أسامة أنني من أعطيته بطاقة بيانات هذا المحامي وبسؤالهم عنه، تبين أنه حقاً محامٍ بارع.

توجهنا إلى مكتبه، وبعد حديثٍ مطول، طلب مبلغ خمسة آلاف جنيه لمجرد الاطلاع على القضية. لم نجد بداً من القبول، ووعدناه بإحضار المبلغ في اليوم التالي.

وجدت نفسي أمام عبء مالي ثقيل، لكنني لم أستطع الرفض. في اليوم التالي، توجهت إلى محل المصوغات وبعتُ إحدى أساوري الذهبية الاثنتين اللتين كنت أمتلكهما تاركةً الأخرى كذكرى عزيزة من أسامة.

كان المبلغ حوالي أربعة آلاف وثمانمائة جنيه، فأكملت الباقي وتوجهنا إلى المحامي. رافقتني عزة وإيناس، خشية أن يتكرر ما حدث عندما سُرقت مني الحقيبة.

بعد ذلك، اتصل بي الأستاذ كمال المحامي، قائلاً إنه علم بتولي محامٍ آخر لقضية أسامة. أكد لي أنه غير حزين، لأن مصلحة أسامة أهم من أي اعتبارات مهنية. وبكرمٍ بالغ، عرض عليَّ المساعدة المالية دون علم أهل أسامة، قائلاً: "اطلبي مني المبلغ وسأحضره لكِ على الفور". شكرته على روحه الطيبة، وقلبي يفيض بالامتنان لهذا الموقف النبيل.

توجهنا إلى مكتب المحامي فوزي العزازي، وما إن بدأنا الحديث حتى فاجأنا بطلبه الباهظ: ثمانون ألف جنيه أتعاباً له في القضية. لم يُبدِ أي استعداد لتخفيض المبلغ، متذرعاً بأنه خفضه أكثر من اللازم من تلقاء نفسه. وكأنه يريد أن يوحي بأن أسامة يملك هذا المبلغ الطائل لا محالة.

طلب المحامي خمسين ألف جنيه مقدماً، وثلاثين ألفاً عند البراءة. يا لهذا الجشع! أهكذا أضحت الدنيا، لا تدور إلا على محور المال؟

عدت وقلبي يعتصر ألماً، ولم أجد أمامي سوى الاستعانة بالأستاذ كمال. شرحت له ما حدث بتفاصيله المريرة. وفي اليوم التالي، جاء برفقة أستاذة فادية، خالة أسامة، وأعطاني المبلغ المطلوب مقابل توقيعي على إيصال أمانة بقيمة المبلغ. وقعت الإيصال بيد مرتجفة ثم ذهبت مع إيناس لتسليم المبلغ للمحامي.

مع كل هذه التحديات، عاهدت نفسي على الاستمرار في نضالي من أجل أسامة، مهما كلفني الأمر. فالحب الحقيقي لا يتزعزع أمام العواصف، بل يزداد قوة وصلابة.

(١٢)

حلّ موعد تجديد حبس أسامة مرة أخرى، وقد مرّ على سجنه ستة وأربعون يوماً تقريباً. حضرت إنعام، وتحدثنا أنا وأسامة وهي. بدا أسامة غير مكترث بتجديد الحبس، بل كان جلُّ اهتمامه منصباً على تحسن علاقتي بأمه.

جاء الأستاذ فوزي المحامي، وأخبرنا أنه لا يحضر جلسات تجديد الحبس عادةً، لكنه حضر اليوم لأن هناك أملاً كبيراً في خروج أسامة بكفالة قدرها خمسون ألف جنيه. انقبض قلبي لسماع هذا المبلغ الضخم، لكن الفرحة غمرتني لمجرد فكرة عودة أسامة إلى الحرية. قلت في نفسي: "سنبيع حتى الأثاث وجميع الطيور وكل شيء لندبر المبلغ حتى يخرج أسامة".

نظرت إنعام إليّ وإلى أسامة نظرات ذات مغزى، كأنها تقول: "الآن حان الوقت لكي تُخرجوا ما تحت البلاطة من أموال تخبئونها." دخل أسامة بصحبة الحراس والمحامي إلى القاعة، وما هي إلا دقائق حتى خرج أسامة مع الحارس. أخبرنا الحارس بأسى أنه تم التجديد له، لكن هذه المرة لمدة خمسة وأربعين يوماً.

يا لها من مدة! إنها تقريباً نفس الفترة السابقة كلها. التي مرت ثقيلة مريرة وكأنها دهور. تساءلت في نفسي: كيف ستكون هذه المدة القادمة؟

طمأننا الأستاذ فوزي قائلاً إنه سيقدم استئنافاً على هذه الفترة أمام دائرة قضائية ذات درجة أعلى، ومن المؤكد أن يخرج أسامة حينها.

اتصلت دينا، أخت أسامة الأصغر، وعلمت بالخبر. تحدثت مع أسامة فظهرت الدموع في عينيه، وهو يحاول جاهداً أن يخفيها.

توجه أسامة إلى محبسه، وذهبت أنا الأخرى ألملم ذيول الخيبة.

في طريق العودة، غرقت في بحر من الأفكار والهموم. كيف سأدبر مبلغ الكفالة لو خرج أسامة بكفالة في جلسة الاستئناف؟ وماذا لو رفض الاستئناف وطالت مدة الحبس أكثر؟

هل سيظل الجميع يشكون في وجود أموال مخبأة؟ وكيف سأواجه نظرات الشك والريبة من المحيطين بي؟

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى مقر عمل أسامة، وما إن علم الجميع أنني زوجته حتى بدأت النظرات تحاصرني من كل جانب. شعرت وكأنهم ينظرون إليَّ نظرات ريبة وشك، كما لو كنت زوجة مجرم أو متسولة جاءت تطلب العون.

بقلب يخفق بشدة، اتجهت نحو الخزينة حيث وجدت مبلغ ألف وثلاثمائة جنيه كمستحقات لأسامة. أخبرتني رئيسة شؤون العاملين أنني سأجد في ماكينة الصراف الآلي مبلغاً إضافياً قدره ستمائة وخمسون جنيهاً يمكنني سحبه عبر بطاقة الصرف الألى. ثم أضافت جملة أثارت في نفسي القلق والحيرة: "هذا المبلغ سوف تقومين بصرفه كل شهر حتى يتم البت في القضية".

نظرت إليها باستغراب، وغادرت المكان وأنا أحمل في قلبي أسئلة ثقيلة في طريق العودة إلى البيت. لم أستطع التوقف عن التفكير في معنى كلماتها، ماذا كانت تقصد بعبارة "كل شهر"؟ هل يعني هذا أن حبس أسامة قد يطول لشهور؟ أم ماذا بالضبط؟

قررت أن أركز على الجانب الإيجابي: على الأقل هناك دخل، ولو كان بسيطاً، سيساعدنا على تدبير أمورنا. وعلى الرغم من ضآلة المبلغ مقارنة بما كنا نحتاجه لتغطية نفقات المحامي والمعيشة، إلا أنه كان بصيص أمل في ظلام الأزمة.

وهكذا، عدت إلى البيت وأنا أحمل في قلبي مزيجاً من القلق والأمل مصممة على مواجهة كل التحديات التي قد تأتي، شرعتُ في مراجعة حساباتي المادية وضبط الميزانية على وقع الظروف الجديدة القاسية. وفجأة، رنَّ هاتفي ليحمل إليَّ نبأً جديداً يزيد من ثقل الأعباء. كانت المتصلة هي الدكتورة المشرفة على صحة الطيور، تنصحني بالتخلص من جميع الطيور بسبب موجة صقيع شديدة بدأت تجتاح البلاد، محذرة من احتمال عودة إنفلونزا الطيور.

أخذتُ كلامها على محمل الجد، وبدأتُ على الفور في بيع الطيور الواحد تلو الآخر، وإن كان ذلك بأقل من ثمنها الطبيعي. وما هي إلا أربعة أيام حتى وجدتُ نفسي لا أملك سوى مجموعة صغيرة من الطيور.

شعرتُ وكأن الخناق يُضيِّق عليَّ من جميع الاتجاهات. في خضم هذه الأفكار المضطربة، تذكرتُ عرضاً قديمة من إحدى صديقاتي. كانت قد عرضت عليَّ في الماضي أن تعطيني نول سجاد لعمل السجاد اليدوي. رفض أسامة الفكرة حينها، رغم أنني كنت قد تعلمت هذه المهنة في فترة الدراسة أثناء زياراتي لها في الإجازات الصيفية، فهي مهنة والديها.

قررتُ أن أتجاوز رفض أسامة السابق، مدفوعة بضرورة الظروف الحالية. اتصلتُ بصديقتي، وسرعان ما أحضرت لي النول والخيط وكل ما يلزم. وهكذا، بدأتُ في مهنة صناعة السجاد اليدوي، محتفظة بهذا الأمر سراً عن الجميع.

وهكذا، مضيتُ في عملي الجديد، مصممة على مواجهة كل التحديات حاملة في قلبي الأمل بأن هذه المحنة ستنتهي قريباً، مرت بضعة أيام وفي غياهب الشمس الخافتة، وفي لحظةٍ من لحظات الدهر العاتية، صدح صوت المحامي فوزي عبر الأثير، يحمل في طياته نبأً كالسهم النافذ. أعلن بصوتٍ يرتجف: "لقد أبى القضاء إلا أن يرفض الاستئناف". فهوى الخبر

على قلبي كصاعقةٍ من سماءٍ صافية، زلزل كياني وأرجف فؤادي. وكأني أسمع همس الملائكة يتردد في الآفاق: "اللهم كن لأسامة عوناً وسنداً"!

توالت زياراتي لأسامة، وأنا أغوص في بحر صناعة السجاد، كاتمةً سر مهنتي عنه كما تكتم الصدفة لؤلؤتها. وإذ بلغنا منتصف شهر ديسمبر، ذلك الشهر الذي يحمل في جعبته صقيع الشتاء وقسوة الأيام رنَّ هاتفي كجرس النعي، ليحمل إليَّ صوت أمل، شقيقة أسامة، ينعى إليَّ رحيل دينا أخت أسامة. تجمدت الكلمات على شفتيَّ، وكأن الصدمة قد عقدت لساني. فهتفت بصوتٍ يختنق بالدموع: "كيف؟ ومتى نزل هذا البلاء؟ وبأي ذنبٍ قُضي عليها؟" أسئلة تدافعت في ذهني، لكن أمل لم تملك من الإجابات إلا النزر اليسير.

انطلقت مع أمل إلى بيت دينا، حيث انتهت مراسم الدفن بسرعة مذهلة، علمت أن سبب الرحيل كان هبوطاً حاداً في الدورة الدموية، ذلك الداء العضال الذي يفتك بأرواح الشباب في عصرنا هذا.

توجهت إلى حماتي إنعام، محاولةً أن أبلسم جراحها وأخفف من لوعة مصابها. لكنها نفضت يدي عن كتفها بحدةٍ، وكأنها تنفض عنها آخر خيوط الأمل، قائلةً بلهجةٍ أشد وقعاً من طعنة السيف: "ما الذي تبتغينه منا يا نذير الشؤم؟ أليست هذه دينا التي طردتِها من بيت أبنى بلا رحمة؟ لقد فاضت روحها وهي تحترق حسرةً على أخيها!" تجمد الدم في عروقي، وشعرت بضغطي يرتفع كبركانٍ ثائر.

أجلت بصري في أرجاء المكان لأجد عزة تنهض من مجلسها، مضيفةً إلى جراحي جرحاً غائراً: "لقد أزهقتِ الروح ثم جئتِ تمشين في موكب الجنازة! هلمي، ارحلي من هاهنا ودعينا وشأننا. يكفينا ما نحن فيه من بلاء".

تحولت أعين جميع النسوة في القاعة إليَّ، ترمقني باحتقارٍ وازدراء كأنني حملت إليهم الموت بين ثنايا ثوبي. نهضت خالة أسامة، وكأنها الملاك الوحيد في هذا الجحيم المستعر، وأخذتني إلى خارج الدار. قالت لي بصوتٍ يحمل رنين الشفقة: "عذراً يا غادة، إن إنعام لمعذورة. فلذة كبدها في غياهب السجن وابنتها قد واراها التراب في ريعان شبابها".

أرشدتني إلى ركوب عربة الأجرة، وسألتني عن حاجتي لنقود بصوتٍ مفعم بالرأفة. أجبتها والدموع تنهمر من عينيَّ كالمطر، بصوتٍ يرتجف كورقةٍ شجرة خريفية في مهب الريح: "لديَّ ما يكفي، والحمد لله على نعمائه." تركتني ودلفت إلى الداخل دون حتى أن تودعني كأنها تهرب من وباء الحزن الذي يسري في عروقي.

عدت بمفردي، وكأنني أحمل بين جنبيَّ إثماً لا يُغتفر. كأنني لست زوجة أبنهم، بل غريبةٌ حملت إليهم الويلات والرزايا. حملت كل هذا العبء فوق كاهلي دون أن ينبس لساني ببنت شفة، صامتةً كالليل الحزين في صمته الرهيب.

قصدت دار أبي، وما هي إلا ساعة من الأفكار السوداء وتراكم الهموم فوق رأسي، حتى خارت قواي وسقطت مغشياً عليَّ. هرع الطبيب إليَّ، وبعد أن استعدت شيئاً من وعيي، طلب مني إجراء بعض الفحوصات الطبية.

في صباح اليوم التالي، قمت بإجراء التحاليل قبل أن أيمم وجهي شطر أسامة. ذهبت إليه، وهو لا يزال يجهل نبأ رحيل شقيقته. سألني بدهشةٍ بادية على محياه عن سبب غياب والدته وأخواته بالأمس، فأجبته بأن البرد قد اشتد وطأته، وأن والدته سيدة طاعنة في السن لا تقوى على مجابهة هذا الصقيع القارس.

في اليوم التالي، قصدتُ الطبيب. فاجأني الطبيب بنبأٍ كالصاعقة، قائلاً: "يا غادة، قد أصبحتِ فريسةً لداء السكري. عليكِ أن تنأي بنفسك عن المشاكل والصدمات، وكل ما من شأنه أن يعكر صفو مزاجك." خرجت من العيادة وقدماي تخوناننني، كأنما الأرض تميد من تحتي.

ولجتُ بيت أبي، فبادرتني أمي بالسؤال: "ماذا قال لكِ الطبيب يا بنيتي؟" فأجبتها وأنا أكتم في صدري بحوراً من الألم: "لا عليكِ يا أماه، إنني بخير والأمر هيّن." حملتُ ديمة وعدتُ إلى بيتي، وفي قلبي سرٌ ثقيل أكتمه.

وهكذا أضحى عليّ أن أحمل عبء الذهاب يومياً إلى أسامة، والتردد على بيت أبي من أجل ديمة، والعمل على نسج السجاد. كل هذا أتحمله وأنا أترقب بفارغ الصبر خروج أسامة من محنته.

(١٣)

لقد غدوت شخصية مألوفة في أروقة القسم، مع توالى زياراتي لأسامة في محبسه، يعرفني القاصي والداني. كانت نظرات الشفقة تلاحقني من عيون الجميع، من السيد المأمور ذي الهيبة إلى الجندي المجند حديث العهد بالخدمة. كأن معاناتي قد نُقشت على جبيني بحروف من نور، تقرؤها العيون قبل أن ينطق بها اللسان.

لكنني، رغم ثقل الحمل وقسوة الطريق، أبيت إلا أن أرفع رأسي عالياً. فبكبريائي الصامت، واحترامي لذاتي، ألزمت الجميع على احترامي. كنت كالنخلة الباسقة في وجه الرياح العاتية، لا تنحني ولا تنكسر.

في إحدى زياراتي لأسامة، همس لي بطلبٍ غريب، كأنه يلقي في بحر قلبي حجراً يُحدث أمواجاً من القلق. طلب مني إحضار هاتف صغير الحجم، واصفاً إياه بدقة متناهية. وقفتُ أمام هذا الطلب حائرة، كمن يقف على حافة هاوية سحيقة.

لم أستطع أن أرد طلبه، فأنا مستعدة أن أبذل روحي فداءً له. قمتُ بإخفاء الهاتف في قاع الحقيبة التي أعددتها له، مملوءة بالطعام والملابس والماء والعصير، كأنني أخبئ سراً خطيراً بين ثنايا الحياة العادية.

وقفتُ أمام باب القسم، وقد تملكني خوفٌ رهيب، ورجفةٌ كادت تفضح أمري. حاولتُ السيطرة على مشاعري المضطربة بصعوبة بالغة. في تلك اللحظة، عاد إلى ذاكرتي مشهد أم هيام، رغم اختلاف الظروف. تذكرتُ كيف لُطمت وحُبست لمحاولتها إدخال ممنوعات.

تساءلتُ في نفسي: "ماذا لو اكتُشف أمري؟ بعد أن بلغتُ مكانة عالية من الاحترام، هل سأصبح مجرد امرأة يُنظر إليها باحتقار؟ امرأة مخادعة خائنة للأمانة؟ ومن يدري، قد أجد نفسي خلف القضبان، ولو ليوم واحد".

لكن عنادي وحبي لأسامة حطما كل هذه الأفكار المخيفة. قررتُ أن أخاطر مهما كانت النتيجة. وبالفعل، لم يتوقع أحد وجود هاتف في قاع الحقيبة، إذ كان تفتيشها سطحياً فحسب.

وأنا أجتاز بوابة القسم، شعرتُ كأنني أعبر حقل ألغام. كل خطوة كانت تحمل معها احتمال الانفجار. لكنني مضيت قدماً، وقلبي يخفق بشدة وعرق بارد يتصبب من جبيني.

عندما وصلتُ إلى أسامة وسلمته الحقيبة، شعرتُ براحة غامرة وخوف شديد في آن واحد. نظرتُ في عينيه، وكأنني أقول له بصمت: "ها قد فعلتُ ما طلبت، وخاطرتُ بكل شيء من أجلك".

خرجتُ من القسم وأنا أحمل في قلبي مزيجاً من الفخر والخوف. فخرٌ بأنني استطعت تلبية طلب أسامة، وخوفٌ من العواقب المحتملة لهذا الفعل.

في طريق عودتي، تساءلتُ: "هل كان ما فعلته صواباً؟ هل يستحق الأمر كل هذه المخاطرة؟" لكنني أدركتُ أن الحب نهرٌ جارف، يحمل قلوبنا إلى شواطئ المخاطرة، حيث نضحي بكل شيء على مذبح العاطفة.

وفجأة، في خضم ذلك الليل البارد القارس، وأنا أشق طريقي للعودة انبثق صوت أسامة عبر الأثير كشعاع دافئ يخترق ظلمة الليل. غمرتني فرحة لا توصف، كأن الدنيا بأسرها قد ابتسمت لي في تلك اللحظة.

وما إن وطأت قدماي عتبة المنزل، حتى انتقل الحديث إلى ديمة، تلك الزهرة الصغيرة التي لم تسمع صوت أبيها منذ زمن طويل. كان لقاؤهما عبر الأثير كالتقاء نهرين، فاضت مشاعرهما وتدفقت كلماتهما.

حفزها أسامة لامتحانات منتصف العام التي كانت على وشك البدء رغم أنها لا تزال في الصف الأول الابتدائي. كانت ديمة هي أملنا في الحياة،

النور الذي يضيء عتمة أيامنا. كنا، أنا وأسامة، نتوق لرؤيتها متفوقة دائماً، كأننا نرى في نجاحها بصيص أمل لمستقبل أفضل.

انتهت المكالمة، وللمرة الأولى منذ فترة طويلة، شعرت بالأمان والدفء يتسللان إلى قلبي. كان أسامة أقرب إليّ من أي وقت مضى منذ تلك المصيبة التي حلت بنا. شعرت وكأن جدران السجن التي تفصل بيننا قد تلاشت للحظات، وأننا عدنا كما كنا، أسرة واحدة متماسكة.

تساءلت في نفسي: "هل يبرر الحب كل شيء؟ هل تستحق لحظات السعادة هذه كل المخاطر التي تعرضت لها؟" لكن صوت قلبي كان أقوى من صوت عقلي. فالحب، في نهاية المطاف، هو ما يجعل الحياة تستحق العيش، حتى في أحلك الظروف.

أغمضت عيني، وأنا أستشعر دفء صوت أسامة الذي لا يزال يتردد في أذني. وهكذا، نمت تلك الليلة وقلبي مفعم بالأمل، وروحي تحلق في سماء الحب الفسيحة، متطلعة إلى غد أفضل، يوم نجتمع فيه من جديد، أسرة واحدة، بلا حواجز ولا قضبان تفصل بيننا.

(١٤)

في صباح اليوم التالي، رنّ هاتفي كجرس إنذار ينبئ بكارثة وشيكة. صوت أسامة عبر الأثير كان مضطرباً، يخبرني بقلق يشبه ارتعاش أوراق الخريف أنه حاول الاتصال بإخوته وأبويه لكن الصمت كان جوابهم الوحيد. وأن هاتف أخته دينا مغلق دوماً. اهتز قلبي لهذه الكلمات، وتساءلت في نفسي بصوت الخوف الخافت: "أيشك أسامة في شيء؟ أعلم بخبر رحيل أخته إلى دار البقاء؟"

وما هي إلا ساعات معدودة، كدقات ساعة تعد اللحظات الأخيرة قبل انفجار قنبلة، حتى اتصلت بي أمل، صوتها يحمل نبرة القدر المحتوم. أخبرتني أن والدتها إنعام عقدت العزم، بإصرار الجبال الراسخات على زيارة أسامة لإخباره بوفاة دينا. رفضت الفكرة بشدة تضاهي عنف العاصفة الهوجاء، لكن أمل قالت بحزم لا يقبل الجدال: "لا سبيل للرفض." شعرت وكأنها طعنتني طعنة غادرة، نافذة كسهم مسموم لا شفاء من جرحه.

في ذات اليوم، هرولت إلى القسم في موعد الزيارة، قدماي تسابقان الريح، على أمل إيقاف هذه الجريمة المعنوية التي تنوي إنعام اقترافها كمن يحاول إيقاف سيل جارف بيديه العاريتين. وصلت لأجد إنعام وعزة واقفتين مع أسامة، كحارستي بوابة الجحيم. علمت قبل الدخول كمن يستشعر الكارثة قبل وقوعها، أنهما أخبرتا ضابط القسم بوفاة أخت أسامة وحتمية إخباره.

ما إن وقعت عيناي على أسامة حتى رأيت فيهما انعكاس روح مكسورة. بدا كشجرة اقتلعتها العاصفة من جذورها، علامات الذهول وعدم الاتزان تكسو وجهه كقناع الحزن الأبدي. نظرت إلى عزة بعينين تقدحان شرراً، وبصوت يحمل في طياته رعداً وبرقاً: "أهذا ما أردتِ تحقيقه؟ هل ارتاح ضميرك الآن بعدما أخبرتم أسامة؟" في تلك اللحظة الفارقة، تحولت من غادة المستأنسة إلى غادة الصلبة كالصخر القوية كالفولاذ.

همّت إنعام بفتح فمها، لكنني قاطعتها بحدة السيف البتار قبل أن تنطق بحرف واحد، قائلة بصوت يحمل في نبراته عاصفة من الغضب والألم: "ما الذي تبتغونه منه؟ أتريدون أن تدفعوه إلى حافة الهاوية؟ أليس ما يعانيه كافياً ليثقل كاهله؟"

طوال هذا المشهد المأساوي، كان أسامة جامداً كتمثال من رخام، لم تصدر عنه همسة واحدة. وفجأة، كورقة خريف تسقط من شجرة الحياة، هوى أرضاً فاقداً وعيه. صرخ ضابط القسم طالباً الإسعاف بصوت يشق الصمت، وأمرنا بالخروج من القسم، واعداً باطلاعنا على حالته بعد رحيل سيارة الإسعاف.

انتظرنا بقلوب تخفق كأجنحة طائر محبوس حتى غادرت سيارة الإسعاف. ثم اندفعت إلى داخل القسم كسهم منطلق من قوس التوتر. أخبرنا الضابط أن أسامة استعاد وعيه، لكنه يرفض رؤية أي شخص كأنه يريد الاختباء من العالم بأسره.

وقفت هناك، قلبي يعتصر ألماً وغضباً كعنقود عنب في معصرة. نظرت إلى إنعام وعزة وقلت بصوت هادئ يخفي في طياته بركاناً من المشاعر المتأججة: "هل نلتن مرادكن الآن؟ هل هذا ما سعيتن لتحقيقه؟ لقد زدتن من آلامه وأثقلتن كاهله بأحمال لا طاقة له بها".

غادرت القسم، تساءلت، وقلبي ينزف ألماً: ما الذي قد تكون إنعام قالته في حقي قبل دخولي؟ ولماذا يحملني أسامة وزر ذنبٍ لم تقترفه يداي؟

عدت إلى المنزل، انتظرت طوال الليل، كمن ينتظر شروق الشمس في ليلٍ سرمدي، أن يتصل أسامة. لكن الصمت كان سيد الموقف. حاولت أن ألتمس له الأعذار، كما يلتمس الظمآن قطرات الماء في صحراء قاحلة.

طلبت رقمه مراراً وتكراراً، لكن لا مجيب! كل ما كنت أبتغيه هو الاطمئنان عليه، معرفة حالته الصحية، هل هو بخير أم لا؟

لم تذق عيناي طعم النوم في تلك الليلة، كأنني أحرس شعلة أمل توشك على الانطفاء. دارت بي الأفكار كدوامة لا تنتهي، وقلبي يخفق بقلق الأم على وليدها.

(١٥)

مع بزوغ فجر اليوم التالي، وقبل أن تبدأ الشمس رحلتها في كبد السماء، توجهت إلى القسم. دخلت إلى مكتب مأمور القسم، وكأنني أدخل إلى محكمة القدر نفسها. شرحت له الوضع بكلمات تنزف ألماً وصدقاً، وكأنني أسكب روحي أمامه.

تفهم المأمور وكأن قلبه قد لامس للحظة معاناتي وأمر لي بزيارة خاصة، كمنحة من السماء لقلب مكلوم.

وقفت أمام باب الزنزانة، قلبي يخفق بشدة كجناحي طائر محبوس يحاول الفرار. ترى، كيف سيكون لقاؤنا هذه المرة؟ هل سيفتح أسامة قلبه لي من جديد، أم سيغلقه كما أغلقت عليه أبواب السجن؟

دخلت إليه، حاملة في عيني دموعاً حبيسة، وعلى شفتي ابتسامة باهتة وفي قلبي أملاً لا يموت. كنت مستعدة لأن أكون قوته إن خارت قواه وصوته إن عجز لسانه عن الكلام، وأمله إن فقد كل أمل.

حضر أسامة بالفعل، وعلى محياه بوضوح آثار الإعياء الشديد، جلست بجواره محاولةً تخفيف وطأة ما يُثقل كاهله، لكن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح. لم ينبس أسامة إلا بكلماتٍ معدودات، كأنها قطراتُ ندى على صحراء صمته القاحلة، مفادها أن في جوفه مرارةَ العالم بأسره.

عُدتُ إلى بيتي، وقلبي معلّقٌ بخيطٍ من الأمل، منتظرةً اتصاله كانتظار الأرض للمطر. مرّ يومٌ، ثم آخر، والصمت يلفُّ الأجواء كغطاءٍ ثقيل. لم أعد قادرةً على احتمال هذا الانتظار المُضني، فقررتُ أن أزوره في محبسه ليلاً، كمن يسعى إلى شعاع نورٍ في ظلمةٍ حالكة.

وصلتُ وقلبي يخفق كجناحي فراشةٍ في عاصفة. وحين حان موعد الزيارة، صدمني خبرٌ كالصاعقة: لقد تم ترحيل أسامة إلى السجن المركزي! سألتُ الضابط بصوتٍ يرتجف كعصفور أصابته طلقة الصياد: "أحُكِمَ على أسامة؟" فأجاب: "كلا، إنه إجراءٌ وقائيٌ معتاد".

شرح لي الضابط الأمر كمن يشرح لطفلٍ معنى الحياة، وأنا أستمع بقلبٍ يعتصره الألم والخوف. سألته عن حالة أسامة الصحية، فطمأنني أنه بخير، كمن يُلقي قشَّة أملٍ لغريقٍ في بحرٍ من الهموم.

استفسرتُ عن كيفية زيارته في السجن المركزي، فأخبرني أن عليَّ الانتظار خمسة عشر يوماً، وأن أكون هناك عند الفجر، كمن يسعى إلى لقاء الشمس قبل شروقها.

وهكذا، وجدتُ نفسي أمام طريقٍ طويلٍ وشاق، ممتلئٍ والأمل والخوف، كمسافرٍ في صحراءٍ قاحلة يبحث عن واحةٍ قد تكون سراباً.

خرجتُ من القسم وكأنني أخرج من كهفٍ مظلمٍ إلى عالمٍ غريب. كانت حالتي أشبه بمن صُعق بصاعقةٍ أفقدته وعيه، في تلك اللحظة المريرة، أيقنتُ حقيقةً مرةً كالعلقم: لقد أصبحتُ زوجة رجلٍ مسجون. هذه الكلمات الثقيلة سقطت على كتفيَّ كصخرةٍ هائلة تكاد تسحقني تحت وطأتها. شعرتُ وكأن قدري قد كُتب بحبرٍ أسود على صفحاتٍ من الظلام، وأن حياتي قد انقلبت رأساً على عقب في لحظةٍ واحدة.

بخطواتٍ مترنحةٍ كغصنٍ يواجه عواصف عاتية، توجهتُ إلى بيت أبي، ملاذي الأخير في هذا العالم المتلاطم، وجدتُ أمي هناك فانهمرت عليها بسيلٍ من الكلمات، أروي لها ما حدث كما ينهمر الماء من سحابةٍ مثقلة. وإذ انتهيتُ من سرد قصتي المؤلمة، لاحظتُ تغيراً في ملامح أمي. بدت

وكأن شبحاً قد مرّ أمامها، فظهرت على وجهها علامات الإعياء كما تظهر الظلال على صفحة ماءٍ صافية.

نظرتُ إليها بعينين مليئتين بالدهشة والتوتر، وكأنني أحاول قراءة كتابٍ مغلق. سألتها بصوتٍ يرتجف: "ماذا بكِ يا أمي؟"

ردّت بصوتٍ خافتٍ: "لا شيء يا بنيتي، إنه مجرد بردٌ في العظام".

لكن عيناي، التي ألِفت قراءة تعابير وجهها منذ نعومة أظفاري، رأت ما هو أبعد من كلماتها. كان هناك شيءٌ مخبأٌ في ثنايا صوتها.

وقفتُ هناك، حائرةً بين رغبتي في معرفة الحقيقة وخوفي من مواجهتها. كنتُ كمن يقف على حافة هاوية، يتردد بين الوقوع والتراجع. هل أغوص في أعماق هذا السر الذي تخفيه أمي، أم أتظاهر بتصديق كلماتها وأترك الحقيقة مدفونةً تحت ركام الصمت؟

مع بزوغ شمس صباحٍ جديد، انطلقت مع أمي إلى المستشفى، قلبي يخفق كطبولٍ حربية تقرع نذير شؤم.

كلمات الطبيب سقطت على مسامعي كصواعق رعدية: "ضمور في جزء من الأمعاء... عملية عاجلة... ثلاثة آلاف جنيه." عدت إلى البيت كأنما نُؤتُ بصخرة صمّاء من طود شامخ، فأضحى ظهري يئنُ تحت وطأتها، وباتت قامتي تنوء بحملها، حتى كادت عظامي تئز من ثقلها وروحي تزهق من فدادتها. أتساءل كيف لي أن أتعامل مع هذا المأزق الجديد الذي انضم إلى قافلة همومي الطويلة.

عمّ الحزن بيت أبي كسحابةٍ سوداء تُظلل سماءً صافية. فاجعة الخبر وتكلفة العملية ألقت بظلالها الثقيلة على الجميع. كانت خزائن البيت قد فرغت، بسبب مصاريف البيت وتجهيز منة للزواج.

جميع أخواتي تعلل بظروف الحياة، كأنهم يتخفون وراء ستائر رقيقة من الأعذار، وجدت نفسي أمام خيارٍ مر كالعلقم: بيع السوار الذهبي الثاني والأخير.

وكأن المصائب تتسابق لتطرق بابي، جاءت ديمة بخطابٍ من إدارة المدرسة يطالب بتسديد القسط الثاني والأخير. وقفت حائرة كمن يقف على مفترق طرق، أيهما أختار: ديمة أم أمي؟

في خضم هذه الظلمة، فكرت في أخذ ثمن عمل السجادة قبل إتمامها كمن يقطف ثمرة قبل نضجها. وبالفعل، مضيت في هذا الطريق الوعر، دافعة مصاريف ديمة الدراسية ومصاريف عملية أمي، كأنني أسد ثغرتين في سفينةٍ توشك على الغرق.

هكذا وجدت نفسي أمام مشهدٍ مؤلم: أدفع ثمن الحاضر بمستقبلٍ غير مضمون. لكن في قلبي، بصيص أمل يذكرني أن بعد العسر يسراً وأن الفجر يولد من رحم الليل الحالك.

(١٦)

مع بزوغ إجازة منتصف العام، كبارقة أمل في ليلٍ طويل، توجهت لزيارة أسامة في السجن المركزي. كان موقفاً لا أتمناه لعدو، أن ترى زوجك، قيمتك وقامتك، خلف القضبان كأسدٍ في قفص.

قبل أن يبدأ الفجر همسه الأولى، كنت أمام بوابات السجن الشاهقة. التي ترتفع إلى السماء كجبلٍ من الحديد والخرسانة. بدت كأنها أبواب جهنم، تقف شامخة في وجه الحرية والأمل. مع الساعة السادسة، فتح السجن أبوابه ببطء، كوحشٍ يفتح فكيه ليبتلع ضحاياه.

رأيت أهالي المساجين يتوافدون كأنهم قوافل من الحزن والأمل. نساء يحملن أطفالاً وأكياساً مليئة بالحب والذكريات. رجال يحاولون إخفاء دموعهم خلف نظرات صلبة. أطفال ينظرون بعيون واسعة إلى هذا المبنى الغريب الذي يحتجز آباءهم.

دخلت، وقلبي يخفق كعصفورٍ محبوس. طُلب مني إثبات زواجي من أسامة، فتذكرت بطاقتي العائلية كأنها طوق نجاة في بحرٍ هائج. بعد انتظارٍ بدا كدهر، جاءني شخص بخبرٍ صاعق: أسامة لا يستحق الزيارة اليوم!

صُدمت، كمن ضُرب بصاعقة. كيف؟ لماذا؟ أخبروني أن والده وأخاه زاروه بالأمس، وأنه لا يحق له زيارة أخرى قبل أسبوع. عدت أدراجي، أجر خيبة الأمل خلفي كثوبٍ ثقيل.

اتصلت بأمل، أخت أسامة، وانفجرت فيها كبركانٍ ثائر. لماذا هذا العناد؟ لماذا هذه الحرب الصامتة؟ أنا امرأة لا تقوى على هذه المعاناة! بررت الأمر برغبة والدتها في ذلك للاطمئنان على أسامة.

توجهت إلى بيت أبي، حاملةً همومي كحقيبةٍ ثقيلة على ظهري. وجدت أمي هناك، روحها مثقلة بظلال العملية القادمة، كأنها شجرة تنوء تحت وطأة ثمارٍ مرة. جلست بجوارها، أحاول أن أخفف عنها، لكنها فاجأتني بابتسامة حزينة كشمسٍ خلف غيوم الخريف، قائلة: "يا بنتي، من الذي يهون على الآخر؟ أنتِ من تحتاج لمن يخفف عنكِ".

عدت إلى بيتي، وديمة معي، راحت تلعب، تنطق حروف الهجاء والأرقام، صوتها الطفولي يملأ البيت كأنغام عذبة تخترق صمت الليل. ابتسمت لها، وأنا أعمل على نول السجاد، أصابعي ترقص على الخيوط كعازف ماهر على أوتار الحياة.

مع اقتراب السجادة من الانتهاء، بدأت أشعر بثقل الليل على جفوني. الساعة تقترب من الثانية صباحاً، وجسدي يئن تحت وطأة يومٍ طويل من الكد والعمل. شعرت بالتنميل يتسلل إلى أطراف يدي، كأن ألف نملة تزحف على جلدي. عيناي تكافحان للبقاء مفتوحتين، كأنهما نافذتان تقاومان رياح النعاس العاتية.

وفجأة، كصاعقةٍ في ليلٍ صامت، رن الهاتف. رقمٌ غريب يومض على الشاشة كنجمةٍ مجهولة في سماء ليلي. قلبي يخفق بسرعة، كطبلٍ في حفلٍ صاخب. ماذا أفعل؟ هل أرد؟ لماذا كل هذا الخوف يتسلل إلى روحي كظلٍ في الظلام؟

انتظرت، أنفاسي محبوسة في صدري كطائرٍ في قفص. ثم، كأنه صوتٌ قادم من أعماق الماضي، من وراء جدران السجن وقضبان الفراق، سمعت صوت أسامة: "ألو... ألو... أنا أسامة".

تلك الكلمات البسيطة سقطت على قلبي كقطرات مطرٍ على أرضٍ عطشى. صوته، الذي طالما حلمت بسماعه، يأتي الآن عبر أثير الهاتف، يخترق

حواجز الزمان والمكان. شعرت وكأن العالم قد توقف للحظة، وكأن كل الأصوات من حولي قد خفتت، تاركةً فقط صدى صوته يتردد في أذني.

فأجبته وقلبي يرتجف، مشاعر الفرح والدهشة واللهفة تتصارع في صدري: "أسامة، حبيبي، كيف حالك؟"

فرد بصوت دافئ كأشعة الشمس في صباح شتوي: "بخير والحمد لله. وأنتِ، يا حبيبتي، كيف حالك؟"

أخبرته أنني بخير، وكأن الحياة قد دبت في أوصالي من جديد بسماع صوته. ثم سألته، بسذاجة امرأة لم تألف عالم السجون: "من أين تتحدث يا حبيبي؟"

فأجاب بنبرة هادئة: "من السجن يا غادة. هنا كل شيء متاح، ولكن بعملة مختلفة. السجائر هي العملة المتعارف عليها بدلاً من النقود".

فقلت متفهمة: "أفهم، إنه أشبه بالتعامل في القسم، ولكن بعملة السجائر".

أكد لي ذلك، ثم أضاف: "نعم، ولكن هنا المبيت أفضل، والنظافة أرقى. والعنبر الذي أقطنه مخصص فقط للمتهمين في قضايا الأموال العامة".

أخبرته عن زيارتي اليوم وكيف منعت من رؤيته. فقال بأسى يقطر من كلماته: "هذا ما كنت أخشاه. علمت أنك ستأتين وأردت إخبارك".

قلت له بعاطفة جياشة: "لا تقل ذلك، أنا زوجتك".

ليسأل في لهفة: زوجتي فقط!

رغم أنني فهمت ما يقصده، وسعادتي لتحسن حالته الصحية والمزاجية، إلا أنني تظاهرت بعدم الفهم وقلت بخجل: "ماذا تقصد؟"

فرد بنبرة رومانسية أذابت جليد قلبي: "أنتِ حبيبتي وكل ما هو جميل في حياتي".

ابتسمت، وقلبي يرقص فرحاً، وأجبته: "وأنت حياتي وعمري وكل شيء لي في هذه الدنيا".

سألني عن ديمة، فأخبرته أنها نائمة.

قال: "لا توقظيها، أريد فقط سماع صوتك".

فقلت مازحة: "مرحى! ولكنني لا أجيد الغناء".

فاجأني رده الرقيق: "صوتك أجمل من أروع الألحان".

بعد هذه الجرعة المكثفة من الحب والأمان، قلت له: "يكفي هذا، أظن أن حولك أناساً".

عاد صوته للاعتدال وقال: " لا بأس، لا تأتي إلى السجن، سأعود إلى القسم بعد اثنا عشر يوما".

فقلت بلهفة: "أتريدني ألا أراك لتسعة وعشرين يوماً متتالية؟"

فاجأني بسؤاله: "ألهذه الدرجة تحبينني؟"

أجبت مازحة: "ليس هذا المغزى، ولكن لأنني لا أريد أن أقصر في حقك".

قال مداعباً: "حسناً، سأحاسبك لاحقاً".

قلت له: "المهم أن تعود بالسلامة".

أجاب بصوت مليء بالشوق: "الله يعلم كم أشتاق إليكِ وإلى ابنتنا ديمة".

وعدني بالاتصال غداً في نفس الموعد، ثم أغلق الخط.

وقفت هناك، أتساءل: أكان هذا حلماً؟ أم هو نتاج الإرهاق؟ أم كان حقاً صوت أسامة؟ إنه لا يزال يحبني، بكل تأكيد. وهل يستطيع من أحب حقاً أن يكره يوماً ما؟ بالطبع لا.

ولكن المرأة، بطبيعتها العاطفية الجياشة، تحتاج من حين لآخر إلى شحن مشاعرها، ولو بكلمة "أحبك" بسيطة.

في تلك الليلة، غفت أجفاني على وسادة الحلم، فإذا بطيف أسامة يسري في مخيلتي، وكأن الزمن قد عاد بنا إلى ليلة عرسنا الأولى، فاستحال الفراش محراب وصال، والظلام ضياء وصال، وخفق القلب ترنيمة ابتهال.

(١٧)

استفقتُ من سباتي على صوت ملائكي يشق سكون الفجر، إنها ديمة صغيرتي تهتف بصوتها العذب: "أماه، أماه، خالتي وسام على الهاتف تريدكِ". انتفض قلبي وتسارعت دقاته كأنه يستشعر نذير شؤم فنهضت من فراشي كغزال مذعور.

نهضت وبصوت مرتجف سألت وسام عما جرى، فجاءني صوتها كالصاعقة: "أمي... حالتها الصحية تتدهور، وهي الآن رهينة المشفى ." شعرت وكأن الأرض تميد من تحت قدمي، لكنني تمالكت نفسي وهرعت مع ديمة إلى المستشفى كأننا نسابق الريح.

وهناك، نطق الطبيب بكلمات ثقيلة كالجبال: "لا بد من إدخالها غرفة العمليات على الفور". لكن القدر شاء أن تكون الغرفة غير مهيأة لاستقبالها، فحملناها كزهرة هشة إلى عيادته الخاصة.

في غمضة عين، وجدت أمي على طاولة الجراحة، يستأصل الطبيب جزءاً من أمعائها كمن يقتطع قطعة من روحها. وما إن انتهت العملية حتى صدمنا الطبيب بحقيقة مرة: "الضمور قد تغلغل في جسدها والساعات القادمة ستكون عصيبة عليها."

توجهت إلى استراحة العيادة، والخوف يعصف بقلبي والقلق ينهش عقلي كوحش ضارٍ. تساءلت في سري: "هل من القانوني إجراء مثل هذه العمليات الخطيرة في عيادة خاصة؟". وكأن الطبيب يحاول تشتيت انتباهنا عن تقصيره في العملية.

طلب الطبيب دواءً من الصيدلية، فهرعت أختي نهى لإحضاره. عادت وهي تخبرنا أن ثمنه يقارب الثلاثمائة جنيه، نظرت إليها متسائلة في داخلي

عن السبب وراء إخبارنا بالسعر! فهمت أنها تحاول إظهار تصدقها على من حولها، كعادتها في كل فعل تقوم به.

جلسنا جميعاً، دموعنا تنهمر كالمطر، وأدعيتنا تتصاعد إلى السماء كالبخور، نتضرع للشفاء لأمي الغالية. وسط هذا المشهد الحزين كانت إيناس ونهى تحاولان بث روح المرح، قائلتين: "كفى بكاءً، ليت أولادنا يدعون لنا نصف هذا الوقت!". فهمت أنهما تحاولان تخفيف وطأة الحزن، لكن ثقل المصاب كان أقوى من أي محاولة للمزاح.

وهكذا، بقينا معلقين بين الأمل والخوف، ننتظر ما ستسفر عنه الساعات القادمة، وقلوبنا تخفق بدعاء واحد: "اللهم اشفِ أمنا ."

عدت مع ديمة إلى البيت، وما إن وطأت قدماها عتبة الغرفة حتى غرقت في سبات عميق، كأنها هربت من واقع قاسٍ إلى عالم الأحلام. أما أنا، فقد استيقظت بعد غفوة قصيرة، وجلست طوال الليل أمام نول السجاد، أنسج خيوط الأمل مع كل غرزة، وعيناي تترقبان اتصال أسامة كما يترقب الظمآن قطرات المطر، لكنه لم يتصل.

كنت أطمئن على حال أمي كل ساعة، كأنني أعد أنفاسها عن بعد. مر الليل ثقيلاً، حتى بزغ فجر يوم جديد، حاملاً معه خبراً فجع قلبي. رن هاتفي، وإذا بصوت أبي يأتيني مخنوقاً بالبكاء: "البقاء لله يا غادة... أمك ماتت."!

تلك الكلمات سقطت على كصاعقة، مزقت روحي وأحالت عالمي إلى ظلام دامس. وقفت مذهولة، كتمثال من حجر، والدموع تنهمر من عيني كأنهار لا تنضب، أودع أماً كانت ملاذي وملجأي في هذه الدنيا القاسية.

(١٨)

غاب عن عزاء والدتي أي وجه من عائلة أسامة، كأنهم أشباح تبخرت في الهواء. تناثرت التساؤلات في أذهان أسرتي كبذور الشك، تنمو وتتفرع حول هذا الغياب الغامض، كلغز عصي على الحل.

انطوت صفحة مراسم العزاء، وتفرق أخواتي كل إلى عشه، كطيور هاجرت بعيداً عن شجرة الحزن. بقينا أنا ووالدي، كشجرتين عاريتين في صحراء الفقد، نواجه صقيع الوحشة الذي خلّفه رحيل أمي. لم نقدر على تجاوز الأحزان بسهولة. كان والدي كنبع من الدموع لا ينضب، يبكي عند كل لمسة من ذكرى أمي.

وأنا، كلما خلوت بنفسي، كنت أنفجر بالبكاء بكل قوة روحي، كأنني أحاول أن أغسل حزني بدموعي. هكذا مضت بضعة أيام، ونحن نتأرجح بين محاولات التماسك أمام الآخرين، والانهيار في لحظات الوحدة. كان البيت يئن بصمت، كأنه يشاركنا الحداد على رحيل روحه النابضة أمي الغالية.

في اليوم الرابع لرحيل والدتي، حين كان الحزن لا يزال يغلف البيت كغيمة سوداء، دلفت خالتي إلى منزلنا، ومعها ابنها عاطف وزوجته فايزة التي كانت يدها مثقلة بأساور الذهب كأنها تحمل أغلال الثراء.

جلست خالتي، وكأنها نسيت أن التي غادرت الدنيا هي شقيقتها. لم ألمها، فحتى أختي إيناس بدت وكأنها طوت صفحة الحزن بسرعة غريبة. انطلق الحديث بينهما عن دراسة مشروع عاطف لتصنيع الملابس الجاهزة، كأن الحياة لم تتوقف للحظة. تحدثوا عن صناعة بعض أنواع من الملابس الحريمي، وضمان تحقيق الربحية للمشروع وكأنهم يتاجرون بأكفان الحزن.

جلست صامتة، كتمثال حجري وسط هذا الضجيج الغريب. كلما رفعت عيني، كنت ألمح نظرات زوجة عاطف الحادة تخترقني كسهام مسمومة. تساءلت في نفسي: هل علمت بقصة طلب عاطف خطبتي؟ هل خالتي أخبرتها؟ أم أن ذلك مجرد وهم نسجه خيالي المرهق؟

انتهى الحديث عن الصفقة، وقامت خالتي معلنة رحيلها، لكن ليس قبل أن تغرس خنجراً في قلبي بسؤالها الجارح: "ما حال زوجك أسامة يا غادة؟ لماذا لم يأتِ أحد من عائلته؟" ثم أضافت بنبرة متباهية عن عائلة زوجة ابنها وكيف هرعوا لتقديم واجب العزاء.

أجبتها بصوت هادئ، محاولة إخفاء الألم: "عائلة أسامة لديهم حالة وفاة، أخت أسامة. وأخبرتها أن أسامة سيخرج قريباً إن شاء الله." لكن عاطف، بنبرة شامتة، تساءل كيف ذلك في ظل صعوبة خروجه في مثل هذه القضايا.

نظرت إليه، والشماتة تلمع في عينيه كشرارة خبيثة، فأجبته: "حين تكون مظلوماً، الله يخرجك بين عشية وضحاها".

هنا تدخلت فايزة، التي أراها لأول مرة في حياتي. رغم جمالها ورشاقتها، إلا أن كلماتها كانت سهاماً مسمومة: "البقاء لله يا غادة. عليكِ أن تتماسكي. واضح أن وزنك زاد كثيراً، وهذا بسبب عوامل نفسية بالتأكيد".

تحديتها بنظرة ثابتة: "من أين عرفتِ أن هذا ليس وزني الطبيعي؟" صمتت، معلنة هزيمتها الصامتة. فهمت من سكوتها أن هناك من أخبرها عني، أو ربما شاهدتني في صورة من مناسبة عائلية مع أحد أفراد الأسرة.

أخيراً، قالت خالتي في ضيق بنبرة ساخرة: "على كل حال، ربنا يهنئ سعيد بسعيدة. الضيف يجب أن يكون خفيف، السلام عليكم." قصدت أنا وأسامة، وكأنها تغرس سكيناً آخر في جرح لم يلتئم بعد.

وهكذا انتهت الزيارة، تاركة ورائها أثراً من المرارة والألم، كأنها أضافت ملحاً على جرح الفقد الذي لم يندمل بعد.

انصرف الجميع، تاركين وراءهم أثراً من الكلمات المسمومة والنظرات الحادة. اقتربت مني إيناس، قائلة: "لماذا كنتِ تتحدثين مع الجميع بهذا الأسلوب الحاد؟"

نظرت إليها بدهشة، كأنها تتهمني بجريمة لم أرتكبها، فأجبت: "أنا؟"!

أكدت إيناس، وكأنها تلقي حكماً: "نعم، الجميع أتى لتقديم واجب العزاء، وأنتِ منذ أن رأيتِ زوجة عاطف، حدث لكِ تغيير".

أجبتها بصوت هادئ، محاولة إخماد نار الغضب في داخلي: "أنا لست مكترثة لوجودهم وبكل هذا أصلاً".

لكن إيناس، كمن يصر على إشعال فتيل المقارنة، قالت: "لا، انظري ما هو حال زوجة عاطف وحالك أنتِ".

في تلك اللحظة، انكشفت نواياها أمامي كستارة رقيقة تمزقت. أدركت أنها من عقد المقارنة من الأساس أثناء المقابلة بيني وبين زوجة عاطف. حاولت إغلاق هذا الباب المؤلم، فقلت بحزم: "كل أنسان يأخذ نصيبه المكتوب له".

لكن إيناس، كمن يصر على نكء الجراح، فتحت الموضوع من زاوية أخرى، متحدثة عن مشروع مصنع الملابس وحجم الأموال التي ستجنيها. تركتها وذهبت إلى الشرفة، هاربة من ثرثرتها التي بدت كضجيج لا يطاق.

وقفت في الشرفة، أتأمل السماء وأفكر: "إنها طماعة، لا يهمها سوى الغنى وجمع المال. الوسيلة لا تهم. لو كان بإمكانها التجارة في المخدرات مقابل الحصول على أموال لفعلت".

أما عاطف، فبدا لي كممثل يؤدي دوراً مسرحياً أمام عائلتي، محاولاً إظهار نفسه كأنه كان الاختيار الأفضل لي، متناسياً أنى زوجة بالفعل.

وقفت هناك، تحت سماء الليل المرصعة بالنجوم، أشعر بثقل الأحزان والخيبات. تساءلت في صمت: هل سيأتي يوم أتحرر فيه من كل هذه الأحقاد والمقارنات التافهة؟ هل سيفهم الآخرون يوماً أن الحياة أكبر من مجرد مسابقة للثراء والمظاهر؟ تنهدت بعمق، تاركة الهواء الليلي يغسل روحي المتعبة، آملة في غد أفضل، خالٍ من النفاق والطمع.

"البقاء لله"، نطقها عواض، جارنا ذو الرقبة المفقودة، كأنه يلقي حجراً في بركة ساكنة من الحزن. أجبته بصوت متعب: "حياتك الباقية" كمن يرد تحية بلا روح.

نظر إليّ بعينين حائرتين، كأنه يرى شبحاً، وقال: "أحياتي أنا؟" ارتسمت الدهشة على وجهي، كلوحة سريالية لم تكتمل بعد. ما هذا المعتوه؟

ثم، كأنه يلقي قنبلة في خضم سكون الحزن، قال ببلاهة تفوق الوصف: "إننا نرغب في طلب يد ابنتك ديمة لابني عيد".

شعرت وكأن الكون كله يضغط على صدري. كنت قد استنفدت كل ذرة طاقة في جسدي، وكل ما أردته هو أن يتركني الناس وشأني، أن أغرق في بحر حزني دون أن يقتحم أحد خلوتي. لم أجد في جعبتي سوى كلمتين، خرجتا مني كآخر أنفاس محتضر: "يسر الله الأمور".

وكأن المشهد الغريب لم يكتمل بعد، ظهرت زوجة عواض في الشرفة فجأة، كشبح انبثق من العدم. صرخت بصوت أجش، مليء بالوحشية والاستحقار: "ما الذي يحدث يا أم زوجة أبنى، ما الذي يشغلك وأمك لم يمر على وفاتها بضعة أيام؟ وكذلك ألا تذهبين لتتفقدي أمر زوجك؟"

ثم التفتت إلى زوجها، كأنها تخاطب كلباً ضالاً: "وأنت أيها المأذون يا من تُزوج وتُطلق، تعال إلى الداخل فإني أحتاج إليك"!

انسحب الاثنان من الشرفة، تاركين ورائهما أثراً من الكلمات الجارحة والنظرات المستهجنة، كأنهما عاصفة مرت سريعاً لكنها خلفت دماراً في روحي.

أتساءلت في نفسي بمرارة: "أإلى هذا الحد أصبحت هدفاً سهلاً للطعنات؟ كيف تجرأت تلك المرأة الجاهلة على مخاطبتي بهذا الأسلوب الفج؟" ثم لمت نفسي قائلة: "لكنني أنا المخطئة، أنا التي قبلت الحديث معه. أكان يجب على ألا أرد عليه حين قال 'البقاء لله'؟" شعرت باختناق شديد، كأن الهواء قد تبخر من حولي. تساءلت بحيرة: "لماذا لا توجد نسمة هواء واحدة في الجو؟ إنني أشعر بضيق شديد رغم برودة الطقس".

دخلت من الشرفة إلى الداخل، حيث غرق المنزل في سكون عميق. لقد رحلت إيناس، وأختي منة ما زالت تتحدث مع خطيبها منذ أكثر من أربع ساعات. وما إن دخلت حتى أنهت مكالمتها.

نظرت إلى منة بعينين مشتعلتين بالغضب والضيق، وقالت: "لماذا لم تردي على زوجة عواض؟ فهذه ليست المرة الأولى التي تتحدث عنك بهذا الأسلوب الوقح." ثم أضافت بحزم: "لقد أقسمت أن أضع حداً لتصرفاتها وأوقفها عند حدها".

وقفت هناك، أشعر بثقل الكلمات وحدة النظرات. كيف أصبحت حياتي مسرحاً لهذه المهازل؟ كيف تحول حزني على فقد أمي إلى مادة للثرثرة والنميمة بين الجيران؟ تمنيت لو أستطيع الاختباء من العالم، وضعت رأسي بجوار ديمة النائمة، كأنني ألوذ بها من عاصفة الحياة. لم أجد في

نفسي القوة لمجادلة منة في رغبتها بالتصعيد. غمرني شعور قاتم، كأن عيني قد انكسرت، وأصبحت عارية أمام أعين الناس.

غفوت، وإذ بي أنتقل إلى عالم الأحلام، حيث زارتني أمي في رؤيا ملؤها العجائب. كنت أبكي بحرقة، ودموعي تنهمر كشلال لا ينضب حين مدت يدها إلى بحنان، مقدمة لي بطيخة خضراء. ثم نطقت بكلمات غامضة، كأنها تبث لي رسالة من عالم آخر: "عليك بالصيد، اصطادي سمكاً".

(١٩)

استيقظت في صباح اليوم التالي، وقلبي يخفق بشوق لفك طلاسم هذه الرؤيا. هرعت إلى شبكة المعلومات، أبحث بلهفة عن تفسير لما رأيت. وجدت أن البكاء في المنام يبشر بالخير، وأن تلقي هدية من متوفٍ هو فأل حسن. أما صيد السمك، فكأن أمي تدعوني للصبر والمثابرة.

شعرت وكأن أمي قد بعثت إلى برسالة من عالم الغيب، تمنحني طاقة إيجابية لا حدود لها. كأنها تقول لي: "اصبري يا بنيتي، فإن بعد العسر يسراً".

هكذا، بدأت يومي بروح جديدة، مستعدة لمواجهة العالم بقلب قوي وعزيمة لا تلين. فرغم غياب أمي الجسدي، إلا أن روحها ما زالت ترعاني وترشدني، حتى في أحلك الظروف وأصعب اللحظات.

خرجت من المنزل لجلب الفطور. ولم أعلم لماذا قصدت الصيدلية وكأنني أسير نحو محكمة القدر. وقفت أمام جهاز قياس نسبة السكر في الدم، وإذ بالأرقام تصرخ في وجهي: مئتان وخمسون! كصفعة قدرية أيقظتني من غفلتي. همست الصيدلانية بنصيحتها كنسمة خريف باردة: "عليكِ بتناول الدواء". تعللت بأنه لابد من زيارة الطبيب أولا وكأنني أحاول التمسك بقشة أمل في بحر اليأس.

غادرت الصيدلية، وروحي تئن تحت وطأة الهم. لكن، كومضة برق في ليل مظلم، تذكرت حلم أمي ووصيتها بالصبر. تشبثت بهذا الأمل الواهن.

توجهت إلى المخبز، ووقفت في الصف كجندي في طابور الموت. وفجأة، كعاصفة هوجاء تقتلع الأشجار من جذورها، ظهرت زوجة عواض. صرخت بصوت يشق الصمت كسكين حاد: "ماذا تريدين من زوجي؟

أليس كافياً أنك حبست زوجك؟" كانت كلماتها كطعنات نصل خنجر مسموم اخترقت قلبي.

فررت من المكان، ودموعي تنهمر كشلال جارف. عيون الناس تلاحقني كأشباح في كابوس لا ينتهي. عدت إلى البيت، وصرخاتي تشق عنان السماء، كأنين روح معذبة.

نهضت منة، وكأنها استيقظت من سبات عميق. علمت بما حدث فاستدعت إيناس ونهى كأنها تستنفر جيشاً لمعركة حاسمة. انتظر الثلاثي زوجة عواض أمام المنزل، كمن ينصب كميناً لفريسة غافلة.

وحين ظهرت، انهالوا عليها بسيل من السباب، كأنه طوفان من الكلمات الحارقة. دخلت إيناس معها في عراك بالأيدي . سقطت زوجة عواض على الأرض، جاء عواض، يجر قدميه كجندي مهزوم، وحمل زوجته المهانة. ظهر عماد، زوج نهى، كفارس يحمي قلعته، فانسحب عواض صاغراً إلى مركز الشرطة، يجر أذيال الخيبة والعار.

في مركز الشرطة، تقابلت الأطراف. روى كل طرف روايته، كأنه يسرد ملحمة بطولية. جاء صاحب المخبز شاهداً على الحقيقة الضائعة بين ركام الادعاءات.

وأخيراً، اقترح الضابط الصلح. حُرر محضر عدم التعرض، كمعاهدة سلام هشة بين دول متحاربة.

وهكذا، انطوت صفحة هذه المعركة الصاخبة، تاركة في نفسي ندوباً عميقة، وتساؤلات حائرة عن مصير الإنسانية في عالم تسوده القسوة والجهل.

خرجنا من مركز الشرطة، وكأننا نغادر ساحة معركة خاسرة. كنت أجر قدميّ المثقلتين بأطنان من شبح العار وجبال الحيرة، عيناي مثبتتان على الأرض كأنها تحوي إجابات لأسئلتي المحيرة. لم أجرؤ على رفع نظري لألتقي عيون أخواتي، خشية أن أرى في مرآتها انعكاساً لصورة لم أعد أعرفها لنفسي.

تساءلت في أعماق روحي المضطربة: أحقاً يراني الجميع كما تصفني زوجة عواض؟ أصائدة رجال أنا؟ عادت إلى ذاكرتي نظرات فايزة زوجة عاطف، الحادة كسهام مسمومة، وكلمات أختي إيناس الغامضة التي لمحت بها سابقاً، فأحسست كأن خناجر باردة تخترق قلبي.

سرت وسط أخواتي كغريبة في موكب جنائزي، أحمل نعش سمعتي على كتفيّ. الصمت يلف المجموعة كغطاء ثقيل، يكاد يخنق أنفاسنا. كل خطوة كانت تبعدني عن مركز الشرطة كانت تغرقني أكثر في بحر من الشكوك والتساؤلات.

وفي لحظةٍ من لحظات الحسم، حملتُ ديمة على ذراعيَّ، وقد عقدتُ العزم على ألا أطأ عتبة بيت أبي مرةً أخرى. كان قراري صارمًا كسيفٍ مسلول، إذ شعرتُ أن وجودي هناك يستنزف روحي ويمتص جوهر كينونتي. فكّرت في نفسي: "لَئِن كان البقاء وحيدةً في منزلي مع ديمة أمرًا مخيفًا، فإنه أهون عليَّ من مواجهة ذلك الجحيم المستعر."

نعم، كان الخوف من الوحدة يتسلل إلى قلبي كظلٍّ كثيف، لكنني أدركتُ أن الخوف يمكن ترويضه وقهره. أما العار الناجم عن السُّمعة السيئة والإسراف، فهو وصمةٌ لا تُمحى. ما إن وطأت قدماي عتبة بيتي، حتى غمرتني موجةٌ من الراحة والطمأنينة. استنشقتُ الهواء النقي بعمق، وكأنني أتنفس الحرية لأول مرة. وقع بصري على نول السجاد، فانجذبتُ

إليه كما تنجذب الفراشة إلى ضوء الشمعة. جلستُ أمامه، وبدأتُ العمل بهمةٍ ونشاط في نسج سجادة جديدة.

في سكون الليل الهادئ، وبعد أن غفت ديمة منذ ساعة، دوّى رنين الهاتف كصوت ناقوس في صمت الظلام. نظرتُ إلى الشاشة بتوجس فإذا بالرقم غريب، ليس هو ذاته الذي اتصل منه أسامة سابقًا. تسارعت دقات قلبي، وتساءلتُ في حيرة: "تُرى مَن المتصل في هذه الساعة المتأخرة؟ وما الخطب الجديد الذي يطرق بابي؟"

لقد اعتدتُ في الآونة الأخيرة أن تأتيني الأخبار محمّلة بالسوء، كغيوم سوداء تُنذر بعاصفة قادمة. فتحتُ الهاتف بقلب خافق وأنفاس متقطعة وإذا بصوت أسامة يشق الصمت قائلاً: "ألو، ديمة... أنا بابا".

أجبته وقلبي يمتص كل أمان الدنيا: "أهلاً يا أسامة، أنا غادة. ديمة نائمة الآن".

سألني بصوت يحمل نبرة حزن: "كيف حالك يا غادة؟ البقاء لله".

شعرتُ بالدهشة والقلق يعتصران قلبي، فسألته: "على ماذا تقول لي البقاء لله؟"

أجاب بصوت خافت: "لقد علمتُ بوفاة والدتك. أخبرتني عزة أنها علمت بالخبر من موقع التواصل الاجتماعي".

تنهدتُ بعمق وقلت بصوت مرتجف: "كل من عليها فانٍ".

اعتذر أسامة قائلاً: "آسف لأنني لم أستطع الاتصال بك في الفترة الماضية. لقد صادرت المباحث الهاتف. أما هذا الهاتف، فقد حصلنا عليه اليوم من أحد الزوار".

أدركتُ سبب تغيير الرقم، فأومأت برأسي وأنا أقول: "أفهم الآن سبب تغيير الرقم".

سألني عن حالي، فأجبت بصوت أحاول أن أجعله متماسكًا: "بخير".

لكنه أدرك ما وراء كلماتي، فقال: "أعلم أنك لست بخير يا غادة. الحمل يزداد عليكِ يومًا بعد يوم. وكأن هذا اختبار من ربنا لكِ قبل أن يكون اختبارًا لي".

حاولت التماسك، ويدي ترتعش من عمل السجاد، فقلت: "لا تقلق، كل ما يأتي من الله خير".

أخبرني أنه سيحضر إلى القسم بعد أيام لا يعلم عددها من أجل حضور جلسة تجديد الحبس، حيث يجب عليه المرور بالقسم أولاً قبل الذهاب إلى المحكمة. وعدته بأنني سأكون هناك إن شاء الله.

طلب مني أن أسلم على ديمة، وأضاف بصوت مليء بالأمل: "إن شاء الله يطلق سراحي هذه المرة".

فقلت: "إن شاء الله تخرج قريبًا من أجل..."، كان قلبي يريد أن يصرخ بكلمات أخرى. كنت أريد أن أقول له من أجل كم أنا متعبة، وكيف أن الحمل قد اشتد على كاهلي، وأن الجميع يحاول النيل مني. شعرت بثقل هذه الكلمات على لساني، لكنني لم أنطق بها، لذلك قلت:" من أجل أنني أفتقدك كثيرًا".

ضحك ضحكة خافتة وقال: "وأنتِ أيضًا. إلى اللقاء." ثم أغلق الخط.

التمستُ له العذر، فهو ليس ملك نفسه في هذا الوضع الصعب داخل السجن. رغم تأثري نفسيًا بأنه اتصل بأخته قبلي، إلا أن سماع صوته والاطمئنان عليه كان أهم شيء.

دخلتُ غرفة النوم محاولة الخلود إلى النوم، لكن الأحداث عادت تتراقص أمام عيني كشريط سينمائي لا ينتهي. ظللت على هذه الحال حتى بزغ نور الفجر، فغفوت أخيرًا، تاركة همومي تذوب في ضوء يوم جديد.

(٢٠)

استيقظتُ في تمام الساعة الحادية عشرة مفزوعة على صوت ديمة الخائف: "ماما، ماما، الكهرباء انقطعت!" طمأنتها قائلةً: "لا تخافي يا حبيبتي" وأنا في قرارة نفسي أرتجف من الظلام الذي يلتهم المكان.

بعد البحث، تبيَّن أن العلة في سلك كهربائي تالف داخل المنزل، وليس انقطاعًا عامًا للتيار. استدعيتُ كهربائيًا، لكن هاجس الخوف من كلام الناس راودني: كيف يدخل رجلٌ غريب وأنا بمفردي؟ لم أجد بُدًا من طلب حضور جارتي أم شمس، سيدة في أواخر الأربعينيات من عمرها.

علاقتي بأم شمس لم تتعدَ التحيات الصباحية والمسائية العابرة. أحيانًا ترسل ابنتها شمس لاستعارة بعض الأدوات المنزلية، وفي المناسبات كالأعياد، تبعث إلينا بالكعك والبسكويت البلدي كهدية وبدوري أقوم بمبادلتها التهاني.

استغرق الكهربائي ساعتين من البحث وتغيير الأسلاك، وطلب مئة جنيه أجرًا، مبلغ كفيل بإحداث عجز في ميزانيتي الشهرية الهزيلة!

جلستُ مع أم شمس قرب نول السجاد، وبدأتُ أشرح لها بانتباه كيفية العمل عليه. أعددتُ كوبين من الشاي، وجلسنا لفترة طويلة وأنا أعمل بينما كانت ديمة تلعب عند مدخل البيت مع شمس.

بعد فترة من مراقبتها لي، قالت أم شمس بنبرة مشفقة: "إنكِ بذلك تتعبين نفسكِ كثيرًا".

أجبتها بابتسامة باهتة: "كل عملٍ فيه تعب يا أم شمس".

سألتني بفضول: "ولكن لماذا كل هذا العناء؟ كل أهل المنطقة يعلمون أن معكِ من النقود ما يكفي لتريحي نفسكِ من هذه المشقة".

ضحكتُ ضحكةً مريرة، وأنا أنزف من داخلي. حتى هنا لم أسلم من ألسنة الناس وأقاويلهم!

تساءلت أم شمس بطيبة الفلاحين البسطاء: "هل في كلامي ما يُضحك؟"

أجبتها بصوت يحاول أن يكون هادئًا: "وهل يكون هذا الكلام صحيحًا وهذا هو حالي؟"

نظرت إليَّ باستغراب: "ماذا تعنين؟"

تنهدتُ بعمق وقلت: "إن كلام الناس غير صحيح جملةً وتفصيلاً. أسامة زوجي بريء، وكل هذا كذب وافتراء. ببساطة، كما في الأفلام العربية القديمة، لقد دخل في عش الدبابير مع مجموعة من الشياطين الكبار، وبالتالي تم إلصاق هذه التهمة به ظلمًا وعدوانًا".

صمتت أم شمس للحظات، وكأنها تستوعب ما قلته، ثم همست: "يا لها من مصيبة! كيف يمكن أن يحدث هذا؟"

أجبتها والدموع تترقرق في عيني: "هكذا هي الدنيا يا أم شمس. أحيانًا تقسو علينا بلا رحمة. لكننا سنظل صامدين، متوكلين على الله".

في تلك اللحظة، شعرت بيد أم شمس تربت على كتفي بحنان، وكأنها تقول لي بصمت: "أنا معكِ". وفي عينيها رأيت نظرة تفهم وتعاطف لم أرها من قبل. ربما كان هذا بداية صداقة جديدة، نبتت من رحم المحنة، لتؤنس وحدتي في هذه الأيام العصيبة.

ترقرقت الدموع في مقلاتي رغما عنى، فنظرت إليَّ أم شمس بعطف قائلة: "تصدقين أنني كنت ممن ظلموكِ؟ حكايتكِ غريبة يا أم ديمة".

ابتسمتُ من خلال دموعي، وقلت: "أم ديمة! حسنًا يا أم شمس".

اقترحت عليَّ بنبرة ودودة: "بما أنكِ متعلمة، لماذا لا تُعلِّمين سيدات المنطقة مقابل أجر بسيط؟"

أحسستُ أنها تحاول مساعدتي بطريقة مهذبة، فأجبتُ: "أنا مستعدة من الغد".

جلست أم شمس على نول السجاد بجانبي، وقالت: "لديَّ رغبة في مساعدتكِ في عمل السجادة. نتحدث ونعمل معًا حتى لا تشعري بالتعب. ليكن نول السجاد مهنةً لكِ ووسيلة تسلية لي".

بذلك أصبحت أم شمس تزورني مرتين يوميًا: بعد الثامنة صباحًا حين يذهب زوجها للعمل، ومرة أخرى بعد الثانية ظهرًا بعد إعداد الغداء وقبل عودة زوجها من عمله كنجار مسلح، مهنة لا أعلم عنها إلا القليل.

بدأت صداقة جميلة تنمو بين ديمة وشمس، كزهرتين تتفتحان في حديقة واحدة. حملت شمس طيبة أمها في قلبها الصغير، لكن كان لها موقف مختلف تجاه التعليم. بالنسبة لها، كما هو الحال مع أهلها وإخوتها، كان التعليم مجرد وسيلة للحصول على الشهادة الإعدادية وفي أقصى الطموحات، مؤهل فني متوسط. كانت نظرتها للتعليم كنظرة الطائر للقفص، شيء ضروري ولكن مُقيّد.

نشرت أم شمس خبر دروس محو الأمية بين سيدات وبنات المنطقة كمن ينثر بذور الأمل في أرض عطشى. استجابت مجموعة من حوالي ست

سيدات وثلاث فتيات لهذه الدعوة، كأنهن أزهار برية تلتفت نحو شعاع شمس جديد.

أصبحت أيامي مزيجًا من العمل الدؤوب والعطاء المستمر. في النهار كنت أجلس أمام نول السجاد، أنسج الخيوط والأحلام معًا. وفي المساء كنت أتحول إلى معلمة، أنير عقول النساء بحروف الأبجدية وأرقام الحساب. كان المشهد أشبه بشمعة تحترق من الطرفين، تضيء لغيرها وتذوب هي ببطء.

وفي آخر الليل، رغم الإرهاق الشديد الذي كان يثقل كاهلي، كانت المكالمة القصيرة مع أسامة. رغم أنها لم تكن تتجاوز الدقيقتين، إلا أنها كانت بمثابة تطعيم ضد اليأس والاستسلام. وهكذا، كنت أواصل مسيرتي اليومية، أنسج السجاد، أعلم النساء وأحلم بيوم ألتقي فيه بأسامة من جديد. كان كل خيط أنسجه، وكل حرف أعلمه، وكل كلمة أسمعها من أسامة، يضيف لونًا جديدًا إلى لوحة حياتي المعقدة، ويمنحني الأمل في غد أفضل. لكن مع زيادة الضغوط والإرهاق داهمني صداعٌ رهيب، كأنّ ألف مطرقةٍ تدقُّ في رأسي. أفكاري تتشابك وتتعقد، كخيوط السجاد التي أنسجها كل يوم. كل موضوعٍ يتداخل مع الآخر، ناسجًا نسيجًا معقدًا من الهموم والآمال.

في موعد جلسة تجديد حبس أسامة توجُّهت إلى ساحةِ العدالةِ بقلبٍ يخفقُ أملاً. لكنّ الحارسَ أخبرني أنّ أسامة في قاعةٍ أخرى. هرعتُ كطيرٍ مذعورٍ إلى حيثُ أُشير، وكأنّ قدميّ تحملانِ ثقلَ الدنيا.

دخلتُ القاعة من بابِها الخلفي، ووجدت أمامي المحامي، الذي أخبرني بنبأٍ صاعقٍ: تجديدُ حبسِ أسامة خمسةً وأربعين يومًا أخرى .انهارت قواي، وكأنّ الأرضَ تميدُ من تحتِ قدميّ. ما أقسى أن يُسلبَ منكَ الأملُ، كأنّما يُنتزعُ الدمُ من عروقِكَ!

في زحام القاعةِ، لمحتُ أسامة واقفا خلف القضبان، والأصفادُ تُقيِّد يديه. بجوارهِ حارسٌ، وأمامه أختُهُ عزّة، وأمُّه إنعام، تواريتُ خلفهم كظلٍّ باهت، أترقب لحظة أمدُّ فيها يد العزاء لقلبه المكلوم، وأشدُّ من أزره الواهن، وإن كانت روحي المثخنة بثقال الهموم تصرخ صامتةً تستجدي من يضمد أشلاء صبرها المتناثر.

سمعتُ أمه تقول وصوتها يخترق الحواجز الحديدية كسهم مسموم بالعسل، غير عابئة بالقيود التي تكبل ابنها أو الأيام الخمسة والأربعين الإضافية التي تنتظره خلف القضبان. عيناها تشعان بثقة مطلقة، كأنها تملك مفاتيح القدر بين أصابعها: "غادة... تلك المرأة التي تسميها زوجة ما هي إلا ظل أسود يخيم على حياتك. منذ أن عبرت عتبة بيتك جلبت معها رياح النحس وزوابع الشقاء. أطلقها، حررها من قيودك وحرر نفسك من أغلالها.

أترى تلك السحابة السوداء فوق رأسك؟ إنها غادة. ومع كل يوم يمر تزداد ظلمة وثقلاً. لكن لا تخف، فما إن تنطق كلمة الطلاق، حتى تنقشع هذه الغيوم، ويعود إلى سمائك صفاؤها وإلى حياتك بهجتها.

وها أنا أمد لك يد العون، حاملاً إليك بشرى السعادة. لقد اخترت لك زهرة ناضرة من حديقة عائلة طيبة، عروسًا ستملأ حياتك عطرًا وسكينة. فهل آن الأوان لتستبدل الظلام بالنور، والشقاء بالسعادة؟"

وكأنما كانت كلمات الأم إشارة البدء، انطلق صوت عزة، مشحوناً بمزيج من الغضب والألم:

"أخي، إنها مهندسة تفوق القمر جمالاً وبهاء. أليس هذا ما تستحقه؟ تذكر دينا، أختك... روحها تناشدنا أن نثأر لها من تلك التي سلبتها الحياة والأمل".

وقبل أن يلتقط أنفاسه، جاء صوت إنعام، مغمساً بالمرارة والاتهام:

"زوجتك هي سبب كل مصائبك، يا ولدي. ألا ترى؟ إنها من دفعت دينا إلى مثواها الأخير، بكلماتها القاسية وقلبها الحجر".

وأخيراً، كالضربة القاضية، انهمرت دموع عزة، وصوتها يرتجف بتهديد مبطن:

"إن لم تفعل ذلك، إن لم تطلقها وتثأر لشرفنا، فلست أخي. سأمحوك من ذاكرتي وقلبي للأبد".

صمتَ أسامةُ صمتَ الموتى، حتى قالت إنعام: "أعلمُ أنّ الخمسة والأربعين يومًا التي حُكِمَ بها عليكَ اليومَ صعبة، لكنّ ثأرَ أختِكَ أصعبُ علينا. ماذا تقول؟ أم تريدُني أن أغضبَ عليك؟ انظر إلى ما أنتَ فيه بسببِ غضبي. كلُّ هذا من تحتِ رأسِ زوجتِك".

كان المشهدُ بشعًا، لا يتقبَّلهُ عقل. من هولِ الصدمةِ، تمنَّيت لو أنّ نهاية العالمِ تأتي الآن.

قال أسامةُ بصوتٍ خافت: "إن شاءَ الله، حينَ أخرج..." قاطعتهُ عزّة، التي من المفترضِ أن تعرفَ معنى النقابِ الذي ترتديه: "فكِّر وردَّ علينا. نحنُ أم هي؟"

قالت إنعام: "سنرحلُ الآن. أختُكَ على سفر. وحسابي مع المحامي الذي جلبتهُ زوجتُكَ سيكونُ عسيرًا." أضافت عزّة: "هيَّا، كي لا نتأخَّر".

غادرتا القاعة، تاركتين خلفَهما أسامة غارقًا في بحرٍ من الحيرةِ والألم وأنا أقفُ شاهدةً على مأساةٍ تتكشَّف أمامَ عينيّ، عاجزةً عن فعلِ أيّ شيء سوى الانتظارِ بقلبٍ يعتصرُهُ الألم.

بعد أن تلاشى صدى خطواتهما، رفع أسامة رأسه المثقل بالهموم فالتقت عيناه المغرورقتان بظلي الواقف خلف أسوار الحديد. مددتُ يدي من بين فجوات القضبان الباردة، حاملةً منديلاً ورقياً كأنه راية بيضاء تعلن الهدنة مع الألم. وقفَ الزمن للحظة، وكأن الكون توقف عن الدوران، ثم انفجر صوته المبحوح بالدهشة: "منذ متى وأنتِ هنا؟"

أجبتُه بصوتٍ خافت: "أنا هنا منذُ أن تمَّ تجديدُ حبسِكَ".

قال بنبرةٍ متوترة: "سمعتِ حديثَ أمي وعزّة بالتأكيد".

أومأتُ برأسي، فقال بصوت مخنوق: "أنتِ يا غادة أعقلُ من أن تتأثري بهذا الكلام. واضحٌ أنّ وفاةَ دينا أثّرت كثيرًا في نفوسِهم".

سألتُه بصوتٍ متحشرج: "المهمُّ، كيف تراني أنت؟"

تنهَّد أسامةُ وقال: "غادة، أرجوكِ. أنا لا أقوى على حديثٍ ليس منه جدوى. أنتِ تعلمين موقفي منذُ البداية، ولكنني لا أستطيعُ أن أخسرَ دعاءَ أمي في هذه الفترةِ العصيبة. فهي، مهما كانت، أمي".

أجبتُه بحزن: "عندكَ حق." ثم سألتُه: "متى موعدُ الزيارةِ في السجن؟"

أخبرَني أنّها ستكونُ بعد غد، فسألتُه إن كان يريدُ شيئًا محددًا الأن. طلبَ أن أحضر له ملابسَ بيضاءَ، ليرتديَها في السجن، حيث يكون الزي الرسمي في السجن أبيض اللون. كما طلبَ مني سجائرَ وبعضَ الأشياءِ الأخرى.

هرولتُ إلى أقرب محل ملابس، كطائر يجمع القش لعشه المهدم. انتقيتُ له ثوبًا رياضيًا أبيض، كأنني أنسج له جناحي حمامة ليحلق بهما داخل قفص تقيد الحرية. ثم مضيتُ أجمع شظايا ما طلب؛ سجائر تحميه من شرور حريته المسلوبة وشتات حاجيات تعيد إليه بعضًا من ألفة الماضي.

وبيدين مرتعشتين من فرط اللهفة، ناولته هذه القرابين قبل أن يرحل، كمن يقدم ماء الحياة لظامئ في صحراء الوحدة.

وبينما كان الحارسُ يأخذُه بعيدًا، وقفتُ أراقبُه يبتعد، وقلبي يعتصرُ ألمًا. في تلكَ اللحظة، أدركتُ أنَّ الطريقَ أمامَنا ما زالَ طويلاً وشاقًا.

أدركتُ، والغصة تكاد تخنق أنفاسي، أنَّ حبيبي الآن يقف بين نارين متأججتين: أيرضخ لعرض والدته، فينال رضاها ويتجنب غضب الله عليه، فهي تحمل في دعائها مفتاح فرجه، أم يتصدى لرغبتها في هذا الوقت العصيب؟

قلبي يهمس بألم: "القرار الأيسر أن يضحي بي". ولكن لِمَ لم يفعلها بعد؟ لِمَ لم ينطق بها، وأنا لن أحزن؟ أليس من الأولى أن يميل إلى رضا الوالدة، حتى لو كان ذلك على حساب بيته وزوجته؟

لكن السؤال يلح: أيرضى الله بذلك؟ أهذا هو جوهر الدين الحق؟ وجدتُ نفسي أمام أول معضلة فكرية حقيقية في حياتي تحتاج إلى إجابة لا تُدخلني في دائرة معصية الله. فأنا لا أملك القدرة على إصدار فتوى لا أستطيع تحمل مسؤوليتها.

ولكن في قرارة نفسي، أعلم أن الله جلَّ في علاه لا يرضى بالظلم. فيا رب العالمين، أستغيث برحمتك، وأستجير بعدلك، فأنت أرحم الراحمين بي وبأبنتي وأنت أحكم الحاكمين.

عدتُ إلى بيتي، وقلبي يئن من وخز الهموم، فطلبت من أم شمس هاتفيا أن ترسل إليّ فلذة كبدي، ديمة. ولكن، يا لخيبة الأمل! أتت أم شمس بنفسها، وما إن علمت بتجديد حبس أسامة خمسة وأربعين يومًا أخرى حتى غشي وجهها سحابة من الحزن الداكن.

وكأن الدهر لم يكتفِ بما ألقى عليّ من محن، فها هم إخوتي يتنكرون لأختهم غادة، وكأنها ليست من صلبهم ولا من دمهم. لا أطلب منهم عونًا ماليًا يثقل كواهلهم، ولا أسعى لأن يفتح لي أحدهم باب بيته. كل ما أبتغيه هو أن أشعر بدفء الأخوة في هذا الابتلاء القارس، أن أجد يدًا حانية تشد من أزري في هذه اللحظات العصيبة.

(٢١)

ما إن علمت من المحامي أن أسامة قد غادر إلى ظلمات السجن، بعد أن أوضح لي المحامي تعقيدات الإجراءات في فحص ملفات القضية المالية التي تُثقل كاهله، حتى قُرّر تجديد حبسه. وفي اليوم التالي سلكتُ دروب الألم ذاتها، متجهةً إلى السجن، متبعةً الإجراءات المعهودة.

ولكن، ما إن عبرتُ البوابة الثانية، حتى بدأ تفتيش دقيق لكل ما أحمل. هنا، تراءت لي صورة أم هيام، وذكرى التفتيش، والهاتف الذي حملته لأسامة في القسم. لاحظتُ أن التفتيش هنا أشد قسوة وصرامة مما شهدته في القسم.

كان التفتيش مزيجٌ من وقاحة رجال التفتيش وألسنتهم السليطة التي تقطر سُمًّا. تفننوا في إطلاق عبارات بذيئة تخدش الحياء، وكلمات جارحة تمزق الكرامة، محاولين كسر إرادة الزائرين بسياط ألفاظهم المقززة. وكأنّ هذا السيل من الإهانات اللفظية لم يكفِهم فامتدت أياديهم الغاشمة لا لتفتيش الطعام فحسب، بل لتنهش منه بشراهة متوحشة. أفواههم الجشعة التهمت بتلذذ ساديّ من قوت أهل المساجين، محولين وجبتهم الشحيحة إلى مسرحٍ لاستعراض سلطتهم الغاشمة. بذريعةٍ واهية، تذرعوا بمقولة 'طباخ السم لا بد أن يتذوقه' وكأنهم يرتدون قناع الحكمة ليخفوا وجه الاستبداد. كل لقمة اغتصبوها كانت إعلاناً صارخاً لسيطرتهم المطلقة، وكل مضغة كانت تمزيقاً لكرامة المحبوسين احتياطيا، هكذا تجسدت صورة القمع في أبشع صورها، هكذا تجسد الظلم في أبشع صوره حيث يتحول الطعام، رمز الحياة والكرامة الإنسانية، إلى أداة للإذلال والقهر.

وفي أثناء رحلتي في منطقة التفتيش، شهدتُ مشهدًا لا إنسانيًا يفتت القلب ويدمي الروح. رأيتُ أفرادًا من مباحث السجن يُجبرون المساجين القادمين على خلع جميع ملابسهم، ما عدا النصف السفلي من الملابس الداخلية، في مشهد مذل أمام أعين الزائرين. كانوا يفتشونهم بطريقة مهينة، قد تصل إلى حد الضرب والسحل.

تخيلتُ والدموع تكاد تنهمر من عيني صورة أسامة في هذا الموقف المهين. كمية الذل كانت رهيبة، والكسرة في قلبي عميقة. تساءلتُ بمرارة: ماذا لو رأيته في هذا الوضع؟ أعتقد أن الموت حينها سيكون أهون لي.

والأكثر إيلامًا للنفس أن جميع المساجين في هذا السجن محبوسون احتياطيًا على ذمة التحقيق. إنهم ليسوا مدانين بعد، ولم يصدر بحق أي منهم حكم نهائي. فكيف يُعاملون بهذه القسوة وهم لم يُدانوا بعد؟

هذا المشهد المؤلم حفر في ذاكرتي ندبة عميقة، وجعلني أتساءل عن معنى العدالة في عالم يبدو أحيانًا خاليًا من الرحمة.

بعد أن انقضى مشهد التفتيش المُذل، سِرتُ خلف النساء اللاتي أتين لزيارة ذويهن من المحبوسين، متجهين إلى غرفة خاصة. وهناك وقعت عيناي على امرأة تنضح ملامحها بالصرامة، ويبدو جليًا أنها تعمل في السجن وتتولى مهمة التفتيش الذاتي للسيدات.

وقفتُ هناك، كغزالة محاصرة في غابة من الذئاب، ترتعد فرائصي وتتسارع دقات قلبي كطبول الحرب. حان دوري، أمرتني تلك المرأة ذات النظرات الحادة كنصل السيف: "ارفعي يديكِ إلى الأعلى!" فامتثلتُ وأنا أشعر كأن روحي تُسحب من جسدي.

بدأت أياديها الباردة تتلمس جسدي، وكأنها مخالب تنهش في لحمي. كل لمسة كانت كصفعة على وجه كرامتي، كل تحسس كان كخنجر يُغرس في صدر إنسانيتي. شعرتُ بأنفاسي تتقطع، وكأن صخرة ثقيلة تجثم على صدري، تكاد تسحق أضلعي.

حين وصلت أصابعها إلى المناطق الحساسة من جسدي، أحسستُ بموجة من الغثيان والعار تجتاحني كطوفان جارف. صرختُ في أعماقي: "يا إلهي! أهذا ما وصلنا إليه؟ أهكذا تُنتهك حرمة الجسد باسم القانون؟"

كل ثانية مرت كانت كدهر من العذاب، كل حركة من يديها كانت تحفر ندوبًا عميقة في روحي. شعرتُ وكأنني أُسلخ من إنسانيتي، أُجرد من كرامتي، وأُترك عارية أمام عين القسوة الباردة.

وقفتُ هناك، ودموعي تحترق خلف جفوني، أكاد أسمع صوت روحي تئن من الألم. كيف لي أن أصف هذا الإذلال؟ كيف أعبر عن هذا الانتهاك لحرمة جسدي وروحي؟ إنه ألم يتجاوز حدود الكلمات، جرح ينزف في أعماق كياني.

خرجتُ من تلك الغرفة وأنا أحمل في داخلي ندبة لن تندمل، وصرخة مكتومة تكاد تمزق حنجرتي. أيها العالم، اسمع صرخة روحي المكلومة!

وأخيرًا، تردد صدى اسمي في الأرجاء. توجهتُ إلى مبنى الزيارة وهناك صُعقتُ بمشهد يفوق الخيال: المتهمون محشورون في أقفاص حديدية، كأنهم حيوانات في سيرك بائس. تساءلتُ بمرارة: "أليس المتهم بريئًا حتى تثبت إدانته؟ فلماذا هذا الإذلال الصارخ؟"

بدأتُ أتفحص الأقفاص بعينين دامعتين، لا أرى سوى أطياف ضبابية لأشباح في ثياب بيضاء، حتى شقّ صوت أسامة سكون أفكاري المضطربة، فأيقظ حواسي الغارقة في لجة الذهول: "ديمة، أنا هنا"!

وقفنا هناك، تفصل بيننا قضبان حديدية باردة، كأنها أشواك تنغرس في قلبينا المتألمين. عيناي تحاولان اختراق الظلام الخافت، باحثتين عن ملامح وجهه المألوف، بينما صدى صوته المخنوق يتردد في أذني كنواح حزين.

رأيت أسامة، حبيبي وزوجي بالبصيرة وبصيص من الأبصار، بدا وكأنه شبح لنفسه، جسده النحيل يرتجف خلف القضبان، وعيناه الغائرتان تحكيان قصص ليالٍ طويلة من الأرق والقلق. كل كلمة تخرج من شفتيه المرتعشتين كانت كسهم مسموم يخترق صدري يحمل معه مرارة الظلم وألم الحرمان.

كلماتنا كانت تتعثر، تتلعثم، تحاول أن تقول الكثير دون أن تنطق بشيء. نظراتنا كانت تحمل آلاف القصص التي لم نستطع البوح بها. كل تنهيدة كانت صرخة مكتومة، وكل ابتسامة باهتة كانت محاولة يائسة لإخفاء بحر من الدموع.

شعرت بثقل الحزن يجثم على صدري كجبل من الفولاذ، يكاد يسحق أنفاسي. رأيت بالبصر والبصيرة في شبح عينيه انعكاسًا لروحي المتألمة، كأننا مرآتان تعكسان ذات الألم، ذات الخوف، وذات الأمل الخافت.

سألني عن التفتيش فكذبتُ حتى لا أثقل عليه: "عادي". لكنه أدرك الحقيقة.

وقفنا متقابلين، يفصل بيننا حاجز من حديد بارد، وقد تلاقت أعيننا في لحظة مشحونة بالألم والشوق. نطق أسامة بصوت يرتجف كأوتار قيثارة حزينة: "كيف حالك؟"

أجبته، وقد حاولت جاهدة أن أخفي رجفة صوتي: "الحمد لله. وأنت كيف تبدو أحوالك في هذا المكان الموحش؟"

رد بابتسامة واهنة كشعاع شمس خافت في يوم شتاء قارس: "الحمد لله على كل حال. ثم أكمل بصوت يكاد يسبق دموعه: "ما رأيك في هذا القفص الذي أسكنه؟"

أدركت مغزى سؤاله من نبرة صوته المتألمة، إنه يحاول إخباري بحجم الإهانة التي يتجرعها كل يوم. كان قلبي ينزف ألمًا لرؤيته هكذا محاصرًا خلف القضبان كطائر حر سُلبت منه أجنحته.

حاولت أن أبث في نفسه شيئًا من الأمل قائلة: "اصبر يا حبيبي، فما هي إلا أيام وستنقضي. سنخرج من هذه المحنة أقوى مما كنا".

نظر إليّ نظرة عميقة، كأنه يحاول أن يقرأ أفكاري، ثم سألني بصوت يكاد يختنق بالدموع: "منذ متى وأنت هنا تنتظرين؟"

أجبته بصدق: "منذ الساعة السادسة صباحًا".

عندها، رأيت الألم يتجلى في عينيه كبحر هائج، وقال: "وهل حضر أحد من إخوتك معك؟"

هززت رأسي نفيًا، فقال بقلق ممزوج بالغضب: "كيف تأمنين على نفسك وأنت تأتين وحدك إلى هذا المكان الموحش؟"

ابتسمت ابتسامة مريرة وقلت: "زوجتك بقوة مائة رجل يا حبيبي".

نظر إليّ نظرة مليئة بالحب والأسى، وقال: "أعلم ذلك يا غادة، أعلم ذلك".

وفى تلك اللحظة بعد أن كنا قد تدرعنا بدروع الصمود الواهية متشبثين بأطلال كبريائنا المتداعي. لكن سرعان ما تمردت دموعنا على سجن الجفون فانهمرت كشلال يكتسح سدود الصبر. وما لبثت أن فضحتنا رعشات أصواتنا المخنوقة كأوتار قيثارة مشدودة على وشك الانقطاع. تساقط قناع القوة المصطنع عن وجوهنا كأوراق الخريف ليكشف عن ملامح الحقيقة النازفة محفورة بإزميل الألم على صفحات وجوهنا المنهكة. ثم، وبصوت مخنوق بالدموع، قال لي: "أريد أن أطلب منك طلبًا يا غادة".

أجبته بلهفة: "قل يا حبيبي، فأنا رهن إشارتك".

تنهد بعمق وقال: "عديني، إن شعرت يومًا أنك لم تعودي قادرة على الاستمرار معي، أن تخبريني. يبدو أن مكوثي هنا قد يطول أكثر مما نأمل، ولم أعد أحتمل المزيد من الضربات. أنت ما زلت شابة، ومن حقك أن تفكري في مستقبلك"...

قاطعته، محاولة إخفاء ألمي بمزاح مرير: "لا داعي لمثل هذا الحديث. أم أنك تحاول التخلي عني بأسلوب لبق لتتزوج المهندسة التي اختارتها والدتك لك؟"

وقفنا هناك، تفصل بيننا قضبان حديدية وسنوات من الألم، نحاول التشبث بخيوط أمل واهية في عالم بدا أنه فقد إنسانيته. كل كلمة كانت تحمل ثقل المعاناة، وكل نظرة كانت تروي قصة صمود في وجه الظلم. وفي تلك اللحظة، أدركنا أن حبنا، رغم كل شيء، هو سلاحنا الوحيد في مواجهة قسوة الواقع.

فأجابني بصوت يرتجف كأوتار قيثارة حزينة: أنا لم يخطر ببالي قط ولن يخطر، أن أفكر في غيرك. لكن هذا حقك الذي لا أستطيع إنكاره. يكفيك ما قد حل بك بسببي، فأنت بريئة من كل هذا العناء".

فرددت عليه، وقد تحول صوتي إلى همس متقطع، كأنه نسمة خريفية تحمل آخر أوراق الأمل: "لا تشغل بالك بي".

ثم صمتُ لحظة، أجمع شتات قلبي المتناثر، قبل أن أتابع بصوت يحمل مزيجًا غريبًا من القوة المهزومة والعزم المنهك: "لكن عدني بشيء واحد"...

ترددت كلماتي في الهواء، ثقيلة كرصاص، حاملة معها كل مخاوفي وآمالي: "إن راودتك فكرة الطلاق، لأي سبب كان"...

هنا توقفت، كأن الكلمات تأبى الخروج من حنجرتي، كأنها خناجر تمزق صوتي. ثم، وبجهد جهيد، أكملت: "دعنا نجعل هذا الأمر حصرًا بيننا".

كانت عيناي تتوسلان إليه، تستجديانه ألا يفكر في هذا أبدًا. كل حرف نطقت به كان يحمل معه دمعة لم تُذرف، وصرخة لم تُطلق.

كان صوتي مزيجًا من الرجاء الصامت والألم المكتوم، كأنني أحاول أن أرسم بكلماتي جسرًا فوق هوة اليأس التي تهدد بابتلاعنا.

وقفت هناك، أمام قفصه الحديدي، وكأنني أقف على حافة هاوية سحيقة. كانت كلماتي الأخيرة بمثابة حبل نجاة أتشبث به، محاولة أن أنقذ ما تبقى من حلمنا المشترك، من حبنا الذي يئن تحت وطأة الظروف القاسية.

كان صوتي يحمل قوة مهزومة، كجندي جريح يحاول الوقوف للمرة الأخيرة. وفي نفس الوقت، كان ينضح بإرهاق روح حاربت طويلاً ولم تعد تملك سوى بقايا أمل تتشبث بها.

وهكذا وقفت، أنتظر رده، وقلبي يخفق بعنف، كأنه يحاول أن يقفز من صدري ليعبر تلك القضبان الباردة ويصل إليه، ليؤكد له أن حبنا أقوى من أي سجن، وأن روحينا متحدتان مهما فرقت بيننا الجدران والقضبان. وفجأة، قطع حديثنا صوت الحارس الجهوري كرعد قاصف: "انتهت الزيارة"!

حاولت جاهدة أن ألتقط نظرة أخيرة لملامح وجهه الحبيب، أن أفهم ما تخفيه عيناه من مشاعر، لكن قضبان القفص ذات الفتحات الضيقة حالت دون ذلك، كأنها حاجز يفصل بين عالمين. وبينما هممت بالانصراف، سمعت صوته الحنون يودعني: "مع السلامة "

فأجبته بصوت يكاد يختنق بالدموع: "مع السلامة"

وهكذا انتهت زيارتنا، تاركة في القلب جرحًا غائرًا وفي العين دمعة حارقة. خرجت من السجن وأنا أحمل في صدري بركانًا من المشاعر المتضاربة: حب يتحدى القضبان، وألم يعتصر القلب، وأمل خافت يحاول أن يشق طريقه وسط ظلمات اليأس.

كل خطوة أبتعد بها عن السجن كانت تزيد من ثقل الحمل على كاهلي. تساءلت في نفسي: كيف لي أن أعود إلى حياة طبيعية وجزء من روحي محبوس خلف تلك الجدران الباردة؟ كيف أستطيع أن أتنفس بحرية وأنا أعلم أن نفَس حبيبي مقيد بقيود الظلم؟

ومع ذلك، شعرت بقوة غريبة تسري في عروقي. قوة مستمدة من حبنا الذي تحدى كل الصعاب، من إيماننا بأن الحق لابد أن ينتصر في النهاية. وعاهدت نفسي أن أظل صامدة، قوية من أجله، من أجل حبنا ومن أجل الأمل في غد أفضل، مهما طال الليل وقست الظروف.

خرجتُ من تلك القلعة الحجرية، السجن الذي يحمل الاسم والفعل معًا تاركة خلفي عالمًا من القهر والظلم. جدرانه الصماء تحتضن متهمين رهن التحقيق، لا مجرمين يقضون عقوبة. إنهم أقرب إلى رهائن تحت الإقامة الجبرية، ضحايا إجراء احترازي قاسٍ لا يعرف الرحمة!

في الساعة السادسة مساءا وصلتُ أخيرًا إلى باب منزلي، أجر قدمي جرًا، وكأنني أحمل على ظهري جبالاً من الهموم. فتحتُ الباب، ألقيتُ نظرة أخيرة إلى الشارع، متسائلة بمرارة: هل سيعود أسامة يومًا ليعبر هذا الباب معي؟ أم أن القدر قد كتب لنا فصولاً أخرى من المعاناة؟

في مشهدٍ يمزج بين براءة الطفولة وحكمة السنين، طالعتني ديمة بلعبها البريء، بينما جلست أم شمس بوقارٍ على نول السجاد. وبنبرةٍ مازحةٍ تحمل في طياتها بلسماً للروح، قالت لي مهوِّنة: "حمداً لله على السلامة. أرأيتِ الجوّ؟ تعني أسامة، زوجي وعشيق روحي".

نظرتُ إليها، وعلى الرغم من وطأة التعب الثقيل على كاهلي، ارتسمت على شفتيَّ ابتسامة خافتة، وهمستُ: "رأيتُه." في تلك اللحظة، أدركتُ أن طاقةً إيجابيةً عجيبةً قد سرت في أوصالي،

وحين رحلت أم شمس، احتضنتُ ديمة بين ذراعيَّ، وخلدنا إلى النوم. وهكذا انطوت صفحة يومٍ آخر، بكل ما حمله من معاناةٍ وأمل، تاركاً في النفس أثراً عميقاً، وفي القلب حكايةً لا تُنسى.

(٢٢)

حل موعد الزيارة التالية، فاتجهت إلى السجن بقلب يخفق بين الشوق والخوف. لحظات مريرة تلك التي تعصف بالروح، وتمزق أوصال الكرامة! وقفت على عتبة السجن، وفي قلبي لهيب الشوق يصطرع مع برودة الخوف. كانت خطواتي تتهادى ثقيلة، كأنما أحمل على كتفي جبال الهم والقهر.

وفجأة، اخترق صمت المكان صوت ذلك الشرطي، صاحب الزي الملكي، الذي يشي بانتمائه إلى فرقة المباحث. اقترب مني بخطوات ثعلبية ماكرة، وهمس بصوت يقطر خبثا: "هذا رقم هاتفي". ثم دس في يدي ورقة من علبة البسكويت، عليها أرقام كتبت بخط متعرج كأفعى سامة.

نظرت إليه بعينين متسعتين من الدهشة والاستنكار، وقد تجمدت الكلمات على شفتي من هول الصدمة. فأردف بنبرة تحمل من الوقاحة ما يفوق الوصف: "أريدك أن تتصلي بي. أنا هنا لمساعدتك. أراك تأتين وحدك، وأنا أحب أن أخدم. اتصلي بي، ولن تندمي. الذي أمامك رجل شهم جدا."

يا لها من كلمات! كل حرف منها كان كسكين مسموم يغرس في قلبي. شعرت بالغثيان يتصاعد في حلقي، وبالدماء تغلي في عروقي. كيف لهذا الوغد أن يستغل سلطته بهذه الطريقة القذرة؟ كيف يجرؤ على التحرش بي في هذا المكان، وأنا في أضعف حالاتي؟

تصارعت في داخلي رغبتان: الأولى تدفعني للصراخ في وجهه لفضحه أمام الجميع، لاسترداد ولو جزء يسير من كرامتي المهدورة. والثانية تحثني على الصمت، خوفا من أن تطال عواقب غضبي زوجي المسجون، فيزداد وضعه سوءا على سوء.

بلعت غصة الألم، وابتلعت معها دموعا كادت تنهمر. تحاملت على نفسي، وانصرفت عن وجهه القبيح لأواجه محنة أخرى: تلك المرأة العبوس التي تتولى تفتيش النساء.

يا إلهي! أي إذلال هذا الذي نتعرض له؟ امرأة تضع يدها في مواضع حساسة من أجسادنا، بحجة التفتيش. لو صرخت متهمة إياها بالتحرش، لقالوا إنني مجنونة. أليست امرأة مثلنا؟ ولكن هل يعطيها هذا الحق في انتهاك حرمة أجسادنا؟

تلك الثواني المقيتة، التي تمر وكأنها دهور من العذاب، لا أريد تذكرها أبدا. إنها بشاعة بكل المقاييس، تجعل الروح تصرخ طلبا للخلاص. لعنة الله على هذه المرأة القاسية، وعلى ذلك الرجل الحقير الذي كتب رقمه، وعلى كل من يستغل ضعف الآخرين لإشباع نزواته الدنيئة.

في تلك اللحظات، أدركت أن الصمت قد يكون أحيانا أثقل من الجبال وأن التضحية بالنفس قد تكون هي البطولة الحقيقية في زمن تضيق فيه السبل وتنعدم فيه الخيارات.

دلفتُ إلى ساحة الزيارة قُرابة الساعة الواحدة ظهراً، وقد أنهكني حمل الأثقال. كانت الحقائب التي أحملها تنوء بما فيها من أشياء، كأنني أحمل على كتفي هموم الدنيا بأسرها.

وفجأة، شق الهواء نداء أسامة، فاندفعتُ نحو مصدر الصوت. وجدته خلف القضبان الحديدية، يقف كزهرة محاصرة من الأشواك، تشتاق للحرية، لكن جذورها تتشبث بأرض الواقع القاسي. تبادلنا أطراف الحديث عن أحواله، لكن قلبي كان يغلي بما حدث عند البوابة. لم أستطع كتمان الأمر، فأخبرته بقصة ذلك الشخص الذي أعطاني رقمه.

نظر إليّ أسامة بعينين تفيضان بالألم والعجز، وقال: "الحل ألا تأتي ثانية حتى لا تتعرضي لمثل هذه المضايقات." كلماته طعنتني كسكين في القلب. معذور أسامة، فهو مقيد الحرية، لا يقدر على فعل شيء. وأنا، بدوري، لا أجيد التعامل مع مثل هذه المواقف العصيبة.

الأمور تتعقد بشكل مخيف، إما التعرض للتحرش من أجل رؤية أسامة، أو الحرمان من رؤيته تلك الرؤية التي تمنحني بصيص أمل في الحياة. لكن الحل جاء على لسان أسامة نفسه. أخبرني أنه يمكنني تغيير يوم الزيارة، فكل يوم هناك أشخاص مختلفون عن اليوم السابق. وعدني بالاتصال بي هاتفياً لنضبط موعد زيارة يكون فيها التفتيش أكثر احتراماً. حثني بعدها على التركيز في مذاكرة ديمة والاهتمام بتعليمها. كلماته كانت بلسماً لروحي المتعبة، رغم مرارة الموقف.

بعد انتهاء الزيارة، خرجتُ منى السجن وقلبي يخفق بشدة. كنت أخشى مواجهة ذلك الشخص مرة أخرى، أو تلك المرأة ذات الوجه العبوس التي تقوم بالتفتيش المهين. ترى ماذا سوف أفعل لو رأيته في مكان عام بالصدفة؟

أسئلة كثيرة تدور في رأسي كدوامة لا تنتهي. هل أصرخ طلباً للنجدة؟ هل أتظاهر بعدم رؤيته؟ أم أواجهه بكل ما أوتيت من قوة وشجاعة؟

في غمرةِ عودتي إلى المنزل، انبعث صوت هاتفي بنغمةٍ رنّانة، فإذا بطبيبة الطيور تُزفُّ إليَّ بشرى انقضاء موسم أنفلونزا الطيور، مُعلنةً عن توافر سلالاتٍ جديدةٍ من الكتاكيت. فأجبتها بلهفةٍ: "سآتي إليكِ غداً، فاحجزي لي كميةً منها." وما إن أغلقتُ الهاتف، حتى راودتني أفكارٌ شتى، أعقدُ مقارنةً بين عالم تربية الطيور الوادع وعالم بني آدم المضطرب.

وهنا، برز في ذهني سؤالٌ جدليٌ يُثير الحيرة: "ماذا كان سيفعل أسامة لو كان مكاني، زوجاً لامرأةٍ مسجونة؟" ثم تفرّع منه سؤالٌ آخر أكثر إثارةً للجدل: "أيُّهنّ أفضل حالاً: زوجة الرجل المسجون، أم المطلّقة أم الأرملة؟" حفظ الله أسامة من كل شرٍّ ومكروه.

تُرى، هل يستوعب أسامة حجم المعاناة التي أكابدها؟ هل يدرك الناس ما تقاسيه زوجة الرجل المسجون في حياتها؟ هل يعي أحدٌ مدى نظرة المجتمع المشمئزّة إليها؟ إنها، والحق يُقال، مسجونةٌ معه، ولكن بشكلٍ مختلف. يعاملها الجميع كأنها متُّهمة أيضاً، ويُطلب منها أن تواري سوءتها من كل حدبٍ وصوب، سواءٌ من الكلمة الجارحة، أو النظرة المُريبة، أو الفعل المُشين، أو الظن السيّئ.

تواجه هذه المرأة المسكينة ضغوطاتٍ رهيبة، فهي صيدٌ سهلٌ لمن في نفسه مرض، أمثال أم هيام وصاحب رقم الهاتف المجهول، وتحرُّش رجل التفتيش الذاتي. في حين أن المسجون لا يواجه المجتمع إلا عند خروجه. أعلم أنه في مأساةٍ حقيقية يراها الجميع، لكن زوجة المسجون لا يَزِن أحدٌ معاناتها بمقاييس عادلة وسليمة.

لذا، أرى أنه لا بد من تدخُّل جمعيات حقوق المرأة لإيجاد حلولٍ قوية لمساندة هذه السيدة، وحمايتها من براثن شرور المجتمع، وصون أسرتها من الانحراف الذي من شأنه أن يُسهم في تكاثرٍ مُفزع لمرتكبي الجريمة وإخلال الأمن بالمجتمع.

وها أنا الآن أرى صورةً ذات نظرةٍ سوداوية، يتضح من خلالها تعلُّق طرف الأصفاد مربوطٍ بمعصم أسامة والطرف الأخر برقبتي، ولا أقدر على فكِّه رغم أن فكّه قد يبدو سهلاً. وذلك لأنني أحب أسامة حباً جنونياً، ولكن ضغوط الحياة تجعلني أشعر كأنني مسحولةٌ على الطريق العام، والأصفاد موضوعة برقبتي، وطرفه الآخر في يد أسامة الذي يسير رغماً

عنه، والناس يُطلُّون وينظرون إليَّ من النوافذ ولا أقدر على فعل شيءٍ سوى ترك نفسي للسحل. لأنني بالتأكيد أحاول أن أستر نفسي من عيون الناس، وأخفف وزني حتى أكون عبئاً خفيفاً على أسامة وهو يسحلني خلفه رغماً عنه!

ما هذا؟ ما هذه القسوة في التعبير؟ إنه مشهدٌ سوداويٌّ للغاية! لكن هذه ليست قسوة. من يريد أن يعرف حجم المعاناة الحقيقية لزوجة المسجون، فليُغمض عينيه ويضع نفسه مكاني. سوف يرى هنا الحقيقة المطلقة لمعاناة كل امرأةٍ ذووها خلف جدران السجون، وهي تحاول ألا تنجرف وراء مساوئ المجتمع.

(٢٣)

أطلّ شهرُ رمضان، تلك المناسبةُ الروحانية التي تُذكي في النفس إحساساً موحشاً بفقدِ ما هو عزيز. إنه لشعورٌ قاسٍ أن تأتي هذه الأيامُ المباركة وأنتَ تفتقدُ حبيبك بجوارك. اتصل بي والدي، يدعوني للإفطارِ معهم في أولِ أيامِ الشهر الكريم، لكنني اعتذرتُ برقّة، مُفضِّلة أن أصنعَ لنفسي وابنتي ذكرياتٍ خاصة.

في أولِ أيامِ شهرِ رمضان المبارك، وبينما كنتُ أُعدُّ الإفطار بعد صلاةِ العصر، طرقَ بابَ منزلي أخواتي إيناس ومنّة. رحُّبت بهما بحرارةٍ فإذا بهما يطلبان مني الذهابَ معهما للإفطارِ في منزلِ أبي، مُخبرتين إياي أنّ حالتَه الصحية متدهورة، وأنّ حضوري سيُخفِّف عنه وطأةَ المرض.

تحتَ ضغطِ إلحاح أخواتي، وحالةِ أبي الصحيةِ المُقلقة، وتوسُّلات ديمة الرقيقة، وجدتُ نفسي أستجيبُ لدعوتِهم. وصلنا إلى منزلِ العائلة حيثُ اجتمعَ شملُ الأسرة. بعد الإفطار، جلسنا نُشاهدُ برامجَ المقالبِ الكوميدية، في محاولةٍ لإضفاءِ بعضِ البهجةِ على الأجواء.

لم يلبث عماد، زوجُ نهى، أن غادرَ إلى المقهى، فهو لا يكادُ يُفارقُ النارجيلة. وتوجَّه حسنى زوجُ إيناس إلى المسجد، تاركاً المجلسَ لنا ولزوجِ وسام، الذي ظلّ طوالَ الجلسةِ يتحدثُ بسخريةٍ عن زوجتِه مطالباً إياها بأن تقتدي بسلوكي تجاهَ بيتي وتحمُّلي للأعباءِ والمسؤوليات.

هذا الكلام، رغمَ ما فيه من مديحٍ لسلوكي، ثقُلَ على قلبي. فلم أرغب في أن أكونَ سبباً في إحداثِ شرخٍ في بيتِ أختي، خاصةً وأنّ زوجَها بدا وكأنه يلعبُ بالنار بهذه المقارنةِ التي من شأنِها إحداثُ فجوةٍ بيني وبينها.

بعد ذلك، توجهنا، أنا وأخواتي، لأداءِ صلاةِ العشاء. وعقبَ الصلاة فوجئتُ بزوجةِ عواض تقتربُ مني، طالبةً السماحَ عمّا بدرَ منها في الماضي

القريب. شعرتُ بثِقَلٍ يُزاحُ عن كاهلي، وكأنّ روحانياتِ الشهرِ الكريمِ بدأت تُلقي بظلالِها على القلوب.

ختمنا الليلة بجولةٍ في الشوارعِ التجاريةِ بالمنطقة. كانت الأضواءُ تتلألأ، والناسُ يتبادلون التهاني والابتسامات. وجدتُ نفسي أغرقُ في سعادةٍ غامرة وأنا أرى ديمة تلعبُ بفانوسِها، عيناها تلمعان بالفرح والبراءة.

في تلك اللحظة، شعرتُ أنّ روحَ رمضان الحقيقية تكمنُ في هذه اللحظاتِ البسيطة من الفرح والتسامح والتواصل. ورغمَ غيابِ أسامة وجدتُ نفسي أتمسكُ بالأمل، مؤمنةً بأنّ هذه الأيامَ المباركة ستحملُ معها بشائرَ الخير والفرج.

عدتُ إلى المنزل، وقد اتفقتُ مع أم شمس على زيارةِ أسامة في السجنِ في الصباح الباكر. وتجلس ديمة معها حتى أعود، رفضت ديمة الفكرةَ في البداية، لكنها وافقت حين وعدتُها بأن تشاهد المسحراتي، الذي كان يأتي كلّ يومٍ قبلَ السحور ينادي على أسامة، إذ كان أسامة يعطيه ما يجودُ به.

في صباحِ اليومِ التالي، توجهتُ إلى السجن، حاملةً معي مفاجأةً لأسامة. كان قلبي يعتصرُ شفقةً لحاله، وهو يصومُ دون طعامٍ يُفطرُ عليه. دخلتُ السجن، وأنا أدعو الله ألا أرى ذلك الشخص الذي أعطاني رقم الهاتف سابقاً، لكن دعائي لم يُستجب.

أثناء تفتيش الزيارة، إذ به يأتي ويقف بجوار من يفتش الزيارة، ثم يقول له وهو يقصدني بحديثه: "لو كنت حافظتِ على رقم الهاتف، لما كنت تعاني كل هذا العناء. على أي حال، إن ضاع منك أو سقط فبإمكاني أن أكتبه لك ثانيةً".

لم أنظر إليه، لكنه قال لي بعد ذلك بمنتهى الوقاحة: "ما بكِ؟ أتشعرين بالخجل؟" إنه لا يحترم النساء ولا الشهر الكريم. دبَّت في أوصالي قوةٌ

عظيمة لا أعلم مصدرها، فلم أستطع تحمل سخافته، فاندفعتُ قائلةً بصوتٍ عالٍ مرتجف: "احترم نفسك! أأنت شيطان؟ لا يفرق معك صيامٌ ولا حرمة بني آدم! إنك قليل الأدب ولم تُحسن تربيتك"!

على الفور، جاء ضابطٌ بزيّ عسكري مسرعاً. وقبل أن ينطقَ هذا المريضُ بأي كلمة، سألَ الضابطُ عمّا حدث. شرحتُ له ما جرى في المرةِ السابقة وهذه المرة. حاولَ هذا المريضُ تبريرَ موقفه قائلاً: "إنها تقول ذلك لأنها تريد إدخال أشياء مخالفة إلى المسجون المتوجهة لزيارته".

طلبَ الضابط، الذي علمتُ لاحقاً أنه مأمورُ السجن، تفتيشَ الزيارةِ أمامي. أثناء ذلك، أكدتُ له أنه لا يوجد أيُّ شيءٍ مخالف. سألني عن زوجي وقضيته، فأجبتُه باختصار. وبالفعل، لم يجد ما هو مخالفٌ في الزيارة.

أمرَ المأمورُ بإحالةِ هذا الشخص إلى المكتب، معلناً إيقافَه عن العمل. تعالت صيحاتُ السيداتِ الموجودات في الزيارة، وكأنّ الجميعَ كان يتمنى هذه النهاية له. هنا تيقَّن المأمورُ من سلوكِ هذا المعتوهِ المشين مع السيدات.

دخلتُ بعدها على السيدةِ ذاتِ الوجهِ العبوس التي تركتِ التفتيش وشاهدت الأحداثَ كلها. وكانت المفاجأةُ أنها لم تقم بتفتيشي، بل قالت لي بنبرةٍ مختلفة: "إن مَن هم مثلك، طالما يتكلمون بقلبٍ ثابتٍ هكذا فهم سليمون. ليت كل الناس مثلك".

في تلك اللحظة، شعرتُ بمزيجٍ من الارتياح والفخر. لقد وقفتُ في وجهِ الظلمِ والتحرش، ونلتُ حقي وحقّ كلّ امرأةٍ تعرّضت لمثلِ هذا الموقف. وبينما كنتُ أتقدمُ للقاءِ أسامة، أدركتُ أنّ قوةَ الحقّ والكرامةِ هي أقوى سلاحٍ في مواجهةِ الظلمِ والفساد، حتى في أحلكِ الظروف.

دلفتُ إلى قاعة الزيارة، وقلبي يخفق بنشوة النصر. وإذ بأسامة يرنو إليّ بعينين تتسعان دهشةً وخوفاً. فقد تمكنت أخيرا من تمييز ملامحه خلف

القضبان بوضوح، قال بصوتٍ مرتجف: "ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟" فأجبته، وفي صوتي رنين العزم والإصرار: "شوقٌ أضناني فما كان لي إلا أن آتي".

حدّق في وجهي متسائلاً: "أحقاً ما تقولين؟ أم ثمة خطبٌ جلل؟" طمأنته بابتسامةٍ واثقة: "كل شيء على ما يرام، والحمد لله يعلو كل شيء." فعاد يسألني: "لِمَ تكبدتِ عناء المجيء؟ بعد ثلاثة أيام سأمثل أمام القسم لتجديد الحبس أو إخلاء السبيل".

أجبته بصوتٍ يختلج بالعاطفة: "كيف لي أن أهنأ بطعامٍ وأنت لا تفطر إلا على ما يقدمه السجن؟" وقبل أن أكمل، قاطعتنا سيدةٌ جليلة القدر صاحت بصوتٍ جهوري: "يا لك من محظوظ يا بني! زوجتك هذه بألف رجل، رفعت هامات النساء عالياً اليوم".

ارتسمت الحيرة على وجه أسامة، وقبل أن ينطق بكلمة، دوّت القاعة بالتصفيق. بدأته السيدة الجليلة، وسرعان ما انضمت إليها جارتها، ثم تعالى صوت التصفيق من كل حدبٍ وصوب، حتى غدت القاعة بحراً هادراً من الاستحسان.

وحتى لا أزيد من حيرة أسامة، سردتُ عليه ما جرى بإيجاز. ابتسم ابتسامةً مشرقةً وقال: "في كل يومٍ تثبتين أنكِ خير مَن يحمل المسؤولية، يا أم ديمة".

"أم ديمة!" نطقها كما تنطقها أم شمس تماماً. ثم أردف دون أن يمهلني فرصةً للسؤال: "لقد بلغتِ من النضج ما يمكنكِ من مجابهة شرور المجتمع بكل شجاعة. والآن، حقّ لكِ أن تحملي هذا اللقب بكل فخر يا أم ديمة".

وقفتُ هناك، أمام أسامة، وقد غمرني إحساسٌ بالقوة والاعتزاز. في تلك اللحظة، أدركتُ أن رحلتي في مواجهة التحديات قد صقلت روحي وقوّت عزيمتي.

خرجتُ من محبس أسامة، وقلبي يفيضُ فخراً بقيمةِ الأنثى الشريفة كزهرةٍ تشقُّ طريقَها في صخر الحياة. وإذ بفكرةٍ غريبةٍ تراودني تتسللُ إلى عقلي كنسمةٍ عليلةٍ في ليلٍ حالك.

فكّرت في إنشاءِ صفحةٍ على منصةِ التواصلِ الاجتماعي "فيسبوك" تحملُ عنواناً يُثيرُ الشجون: "زوجةُ رجلٍ مسجون".

صفحةٌ تكونُ منبراً لأصواتِ النساءِ اللواتي يُعانينَ في صمتٍ، أولئكَ اللواتي ابتُلينَ بسجنِ ذويهنّ.

تخيَّلت كلماتِ الأمهاتِ والأخواتِ والبناتِ، تتدفقُ كسيلٍ جارفٍ تروي قصصَ معاناتهنّ اليوميّة. كلُّ حرفٍ يُكتَبُ سيكونُ صرخةً مكتومةً وكلُّ جملةٍ ستكونُ دمعةً حبيسةً خلفَ جدرانِ القهرِ الاجتماعي.

وفي خضمّ هذه الأفكارِ المتلاطمة، برزَ سؤالٌ كشوكةٍ في حلقي: هل سيتقبَّلُ المجتمعُ هذه الصفحة؟ أم ستُواجَهُ بسدٍ من الرفض والاستنكار؟

تساءلتُ عن مدى استعدادِ مجتمعِنا لسماعِ صوتِ هؤلاءِ النسوة اللواتي يحملنَ وصمةَ السجنِ دونَ أن يرتكبنَ جُرماً. هل سيُصغي الناسُ إلى حكاياتِ التحرِّش والظلمِ التي يتعرَّضن لها، مُكرَهاتٍ صاغراتٍ؟

إنّ هذه الفكرةَ، رغم غرابتِها، قد تكونُ شعلةَ أملٍ في ظلامِ اليأس وصوتاً للصامتاتِ في عالمٍ يميلُ إلى تجاهلِ آلامِهنّ. ولكن، هل ستجدُ هذه الصفحةُ آذاناً صاغيةً وقلوباً مُتعاطفة؟ أم ستُقابَلُ بالصدِّ والإعراض؟

وما هي إلا بضعة أيام حتى اشتعلت الأرجاء بصدى تلك الصفحة التي أطلقتُها على منصة التواصل الاجتماعي. كانت أشبه بشعلةٍ ألقيت في بحر من الزيت، فسرعان ما اندلعت ألسنة اللهب، متأججةً بين مؤيدٍ ومعارض.

انجذبت إليها بعض النسوة والفتيات كما تنجذب الفراشات إلى ضوء المصباح في ليلٍ دامس، يبحثن عن واحةٍ للتعبير عن معاناتهن المكتومة. ولكن، في المقابل، انهالت التعليقات الناقمة كسيلٍ جارف تحمل في طياتها سخطاً وعتاباً.

وهكذا، وجدتُ نفسي في خضم معركةٍ فكرية، تتصارع فيها الآراء كأمواجٍ متلاطمة في بحرٍ هائج. هل كان قراري بإنشاء هذه الصفحة صائباً؟ أم أنني فتحتُ باباً للجدل قد يصعب إغلاقه؟ إن الزمن وحده كفيلٌ بالإجابة، وما على سوى الصمود في وجه العاصفة، متمسكةً بإيماني بعدالة القضية التي أناضل من أجلها.

وفجأة، كبرقٍ يضيء سماءً مظلمة، لمع في ذهني سؤالٌ طالما راودني. فكتبتُ بأناملَ مرتجفة:

"ترى، ماذا لو انقلب الوضع رأساً على عقب؟ لو أصبح الأمر 'زوج امرأةٍ مسجونة' بدلاً من 'زوجة رجلٍ مسجون'؟ كيف ستكون نظرة المجتمع حينها؟ وما موقف الزوج في هذه الحالة؟"

طرحتُ السؤال وكأنني ألقيتُ حجراً في بركةٍ راكدة، منتظرةً الأمواج التي ستُحدثها. هل سيُظهر هذا السؤال التناقض في معايير مجتمعنا؟ هل سيكشف عن ازدواجية في النظرة إلى الرجل والمرأة؟

تخيلتُ ردود الأفعال المحتملة:

هل سيتعاطف المجتمع مع الزوج أم سينظر إليه نظرة ازدراء؟

هل سيُلام الزوج على بقائه مع زوجته المسجونة أم سيُمتدح لوفائه؟

هل ستختلف نظرة المجتمع للأطفال في هذه الحالة؟

كيف سيتعامل الزوج مع الضغوط الاجتماعية والنفسية؟

شعرتُ أن هذا السؤال قد يفتح باباً لحوارٍ أعمق حول قضايا المساواة والعدالة الاجتماعية. ربما سيدفع البعض للتفكير ملياً في المعايير المزدوجة التي نطبقها دون وعي.

وهكذا، انتظرتُ بشغفٍ وقلق، أترقب الردود التي ستأتي. هل سيكون هذا السؤال بمثابة مرآةٍ تعكس وجه مجتمعنا الحقيقي؟ أم سيكون شرارةً تشعل نقاشاً بنَّاء حول قضايا طالما تجنبنا مواجهتها؟

مهما كانت النتيجة، شعرتُ أنني خطوتُ خطوةً جريئةً نحو فهمٍ أعمق لمجتمعنا وقيمنا. وفي قرارة نفسي، تمنيتُ أن يكون هذا السؤال بداية لتغييرٍ إيجابي، مهما كان صغيراً.

تركتُ عالم التواصل الاجتماعي فيسبوك المضطرب، وغُصتُ في روحانيات شهر رمضان المبارك. وإذ بصوت القدر يدوي في أذني متجسداً في رنين هاتف من قسم الشرطة، يحمل صدى صوت أسامة الشجي. كان صوته كنسمة عليلة تخترق جدران زنزانته، تخبرني أن بإمكاني أن أحمل إليه شذا الإفطار قبل أن يلثم الليل خد النهار.

هرولتُ إلى المطبخ بقلبٍ يرقص بين أضلعي، أعد طعاماً يحمل عبق الحرية وشوق اللقاء. تركتُ ديمة، زهرتي الصغيرة، في حضن أم شمس الدافئ، وانطلقتُ كطائر مهاجر يحن إلى وطنه.

كانت الزيارة هذه المرة أشبه بومضة برق في ليلٍ حالك. قبل الأذان بنصف ساعة، وقفتُ أمامه كتمثالٍ من شوق، أكاد أذوب في عينيه. مصافحة خاطفة، كأنها لمسة طيف، ووضعتُ الطعام بين يديه. لم تكن هناك كلمات، ولا حتى ذلك الحضن الذي طالما كان ملاذي. "اللهم إني صائمة"، همستُ لنفسي، وقلبي يصرخ: "ولكنه زوجي"!

خرجتُ من القسم، والوقت يلهث خلفي. خمس وعشرون دقيقة، اشتريتُ طعاماً من محلٍ عبق اسمه في ذاكرة المدينة. لأول مرة في حياتي، أفطرتُ في الشارع،

صليتُ المغرب في مسجدٍ قريب، ثم وجدتُ نفسي أهيم في شوارع القاهرة حتى العاشرة مساءً، بعد أن صليتُ العشاء والتراويح. اشتريتُ طعاماً للسحور، حاملةً في يدي أكياساً ثقيلة بالطعام، وفي قلبي دعاءً أثقل: "اللهم، اجعل هذا آخر رمضان له خلف القضبان."

وأنا أخطو نحو القسم، كان قلبي يدق كطبلٍ يقرع أبواب السماء: "يا رب، فك قيده، وأعده إلينا كما عاد يوسف إلى يعقوب". وكأنني أخطو إلى جنة الوصال بعد طول فراق. دلفتُ إلى غرفة الزيارة، وإذ بذراعي أسامة تحيطانني كأنهما جناحا طائر يحتضن فرخه. كل لقاء معه كأنه الأول، يبعث في روحي نبضاً جديداً ويمنحني قوة لمواجهة أمواج الهموم القادمة.

همستُ له بصوت يحمل رنين الأمل: "يا حبيبي، عليك أن تتماسك. سواء جاء الغد بتجديد حبسك أم بنسمات الحرية، فهو قضاء الله وقدره. كل ما نحن فيه خير، وإن بدا لنا غير ذلك".

لكن أسامة، بعينين تحملان شوق الحرية وألم الفراق، قال بصوت يختنق بالعبرات: "لا أستطيع أن أتخيل أن يأتي العيد وأنا بعيد عنكم. كيف لي أن أحتمل فرحة العيد خلف هذه الجدران الباردة؟"

قلت لبث الأمل فيه: "يا حبيبي، العيد الحقيقي هو عيد القلوب المجتمعة بالحب، وإن تفرقت الأجساد. أنت معنا في كل لحظة، في كل دعاء، في كل نفس نتنفسه".

وكالعادة، انقضت الزيارة كومضة برق في ليل صيف، تاركة خلفها وهجاً يضيء ظلمة الفراق. خرجتُ من القسم، وقلبي يحمل مزيجاً من الأمل والألم، كأنه بحر تتلاطم فيه أمواج المشاعر المتضاربة.

(٢٤)

في تمامِ الساعةِ التاسعةِ صباحاً، وقفتُ بجوارِ الهاتفِ في انتظارِ مكالمةِ أسامة الموعودة. لم يتّصلْ بي كما وعدَني أثناءَ الزيارةِ ليُخبرَني في أيّ محكمةٍ ستكونُ جلسُتُهُ اليوم، فهو لا يعلمُ إلى أيّ محكمةٍ سوفَ يذهبُ إلا في صباحِ يومِ الجلسةِ نفسِه. الصمتُ كانَ يُثقلُ كاهلي، فتوضأتُ وصلّيت الضحى، ثمّ انغمستُ في تلاوةِ القرآن وقلبي يتساءل: هل يقرأُ أسامةُ في المصحفِ الآن؟

وبعدَ صلاةِ الظهر، رنّ الهاتفُ برقمٍ مجهول. أجابت ديمة، وإذا بصوتِ أسامة يأتي كأنّه يحملُ شلالاتٍ من الدموع المكتومة: "كلُّ عامٍ وأنتِ بخير يا ديمة. سأعودُ بعدَ العيد، ثم همسَ بصوتٍ مُثقَلٍ بألمِ الفراقِ وحسرةِ الحبس: "سأُنهي عملي وآتي إليكِ"، وكأنّ كلماتِهِ المُختَنِقَة تُخفي خلفَها شلالاتٍ من الدموعِ المُكبوتَة. ثمّ أنهى المكالمةَ بسرعةٍ، وقلبُهُ يتمزّقُ ألماً لعجزِهِ عن إبلاغي بالحقيقةِ المُرّة.

في تلكَ اللحظةِ الوجيزة، تلاقت أرواحُنا عبرَ أثيرِ الهاتف، وكأنّ الصمتَ بيننَا كانَ أبلغَ من ألفِ كلمة. فهمتُ من نبرةِ صوتِهِ المُتهدِّجةِ ومن الكلماتِ التي لم يَقُلها، أنّ القيودَ قد أُحكِمَت حولَهُ مرّةً أخرى.

كانَ عجزُهُ عن إخباري بالأمرِ مباشرةً كسكّينٍ يغرسُ نصلَهُ في قلبي. فهو، الذي كانَ دوماً صخرتي وملاذي، أصبحَ الآنَ أسيرَ ظروفٍ تمنعُهُ حتى من مشاركةِ ألمِهِ معي.

تلكَ الكلماتُ البسيطة، "سأُنهي عملي وآتي إليكِ"، حملت في طيّاتها قصّةً كاملةً من الحرمانِ والقهرِ والأملِ المكسور. كانت رسالةً مُشفّرة يقولُ فيها ما لا يستطيعُ التصريحَ به: "لقد تجدّد حبسي، يا حبيبتي وسأظلُّ بعيداً عنكِ لفترةٍ أطول".

وقفتُ هناك، والهاتفُ ما زالَ في يدي، أشعرُ بثِقَلِ الكلماتِ غيرِ المنطوقة. كانَ صمتُهُ صرخةً مدوِّيَة في أعماقِ روحي، تُخبرُني بكلّ ما لم يستطعْ قولَهُ. وفي تلكَ اللحظة، أدركتُ عمقَ المأساةِ التي نعيشُها حيثُ أصبحَ التواصلُ البسيطُ بينَ زوجين محفوفاً بالمخاطرِ والقيود.

همستُ لنفسي، والدموعُ تترقرقُ في عيني: "يا إلهي، كم هو قاسٍ أن يُحرَمَ المرءُ حتى من حقِّه في مشاركةِ ألمِهِ مع أحبائه." وفي تلكَ اللحظة، عاهدتُ نفسي على أن أكونَ قويَّةً من أجلِهِ، وأن أحملَ عنهُ ما لا يستطيعُ حملَهُ بنفسِه.

وهكذا، وجدتُ نفسي أواجهُ يوماً جديداً من الانتظارِ والأمل، مُدركةً أنّ الصبرَ مفتاحُ الفرج، وأنّ الإيمانَ هو نورُنا في ظُلمةِ هذهِ المحنة.

قبلَ أن يؤذنَ المؤذنُ لصلاةِ المغرب، توجَّهت إلى القسمِ، وفي صحبتي ديمةُ وأمُّ شمسٍ وابنتُها. كنتُ قد أقنعتُ أمَّ شمسٍ بحيلةٍ لطيفة، أخبرتُها عن ملابسَ جديدةٍ في محلاتِ وسطِ البلدِ بأسعارٍ زهيدة.

دلفتُ إلى القسمِ، وفي يدي وجبةُ الإفطارِ لأسامة. وما إن علمَ بوجودِ ديمة خارجاً، حتى طلبَ رؤيتَها في الزيارةِ. يا لهُ من لقاءٍ يمزجُ الفرحَ بالألم، واللهفة بالحسرة! كانَ لقاءً لا بدَّ منه، رغمَ قسوتِهِ وصعوبتِه فكلٌّ منهما يتوقُ إلى رؤيةِ الآخر بشوقٍ يكادُ يحرقُ القلب.

وقفتُ هناك، أتأملُ المشهدَ بعينٍ دامعةٍ وقلبٍ خافق. كيفَ يمكنُ للحظةٍ واحدةٍ أن تحملَ كلَّ هذا الكمّ من المشاعرِ المتناقضة؟ الفرحُ بلقاءٍ طالَ انتظارُه، والحزنُ لأنهُ سيكونُ قصيراً ومُقيَّدا. الأملُ في عيونِ ديمة البريئة، والألمُ في عينيّ أسامة المُثقلتين بهمومِ الحبس.

وهكذا، استعددنا للقاءٍ يجمعُ بينَ حلاوةِ الوصالِ ومرارةِ الفراق، في مشهدٍ يُجسِّد قوةَ الروابطِ العائليةِ في وجهِ أقسى الظروف. ولكنَّ المفاجأةَ كانت في انتظارنا.

وجدنا أسامة خارجَ الزنزانة، في مكتبِ معاونِ الضبطِ للقسم. كانَ هذا كفيلاً بحلِّ مشكلةٍ لن أقدرَ على حلِّها فيما بعد. أخبرَني أسامةُ أنَّ رجلَ أعمالٍ ذا شأنٍ، محبوس معهُ في النفس المحبس، قد توسَّط لدى مأمور القسم لقبولِ هذهِ الزيارةِ الاستثنائية.

وما إن التقت عينا أسامة بديمة، حتى اندفعا في عناقٍ حارٍّ، كأنَّهما يحاولانِ تعويضَ كلِّ لحظاتِ الفراقِ في هذهِ اللحظةِ الواحدة. وجدتُ نفسي أراقبُ المشهدَ بابتسامةٍ تملؤها الدموع، وتساءلتُ في قرارة نفسي: "أتُراني أغارُ من ابنتي في حبِّ أسامة لها؟" ولكنَّني سرعانَ ما نفضتُ هذا الخاطرَ، مدركةً أنَّ حبَّهما هو امتدادٌ لحبِّنا.

بعدَ جولةٍ طويلةٍ من الأسئلةِ والأجوبةِ بينهما، تذكَّرني أسامةُ وضمَّني إليه، ثمَّ التفتَ إلى ديمة قائلاً: " اعتني بأمك." جلسنا لدقائقَ معدودةٍ تجمعُنا الألفةُ والحبُّ والحنين، وكأنَّنا نحاولُ أن نختزلَ الزمنَ كلُّه في هذهِ اللحظاتِ القليلة.

انتهتِ الزيارةُ على خير، وخرجنا أنا وديمة، لنلتقيَ بأمِّ شمسٍ وابنتِها ونعودَ إلى البيت. وما هي إلا لحظاتٌ معدودة، حتى انطلقت ديمةُ في سيلٍ من الأسئلةِ المتلاحقة، وكأنَّها تقمَّصت شخصية محقِّق ماهر. كانت عيناها تلمعانِ بفضولٍ طفوليٍّ ممزوجٍ بحكمةٍ تفوقُ سِنَّها وكلماتُها تتدفَّق كشلالٍ لا ينضب.

وفي كلّ مرّةٍ كنتُ أجيبُ فيها، كنتُ أدعو في سرّي: "يا رب، امنحني الحكمة لأجيبَ بما يُطمئنُ قلبَها دونَ أن أبتعدَ عن الحقيقة. اجعلْ في كلماتي بلسماً يُداوي جراحَ قلبها الصغير".

وهكذا استمرّ الاستجواب، في رحلةٍ عاطفيةٍ متقلّبة، تجمعُ بينَ براءةِ الطفولةِ وقسوةِ الواقع، بينَ الأملِ في الغدِ والألمِ من الحاضر. كانَ كلُّ سؤالٍ وكلُّ جوابٍ يُضيفُ لوناً جديداً إلى لوحةِ حياتِنا المعقّدة، لوحةٌ تجمعُ بينَ ظلالِ الحزنِ وأشعةِ الأمل.

(٢٥)

في ليلةٍ كانت تترقب فيها القلوب هلال العيد، وتتهيأ النفوس لاستقبال أيام الفرح والسرور، خيَّم الحزن على بيتنا كغيمةٍ سوداء تحجب نور البهجة. كنتُ أنا وديمة نشعر بوخزٍ في القلب لغياب أسامة عن مجلسنا كأنما اقتُطعت قطعةٌ من روحينا.

وإذ بهاتفي يرنُّ في تلك الليلة المباركة، وصوت أسامة يأتيني عبر الأثير، يحمل تهانيه بقدوم العيد. كان صوته يحاول أن يبثَّ الفرح في نفسي، لكنه لم يستطع إخفاء نبرة الألم المكتوم. أخبرني بصوتٍ خافت بحذر: "يا حبيبتي، إن السجن المركزي ليس كغيره من السجون العمومية. فلا زيارات هنا في أيام العيد".

صُعقتُ من هول ما سمعت، وتساءلتُ في نفسي: "أهذا إذلالٌ أم قسوةٌ لا مبرر لها؟ كيف يُحرم الإنسان من لمسة الدفء في أيامٍ يفترض أن تكون للتراحم والتواصل؟"

شعرتُ بأن حال أسامة أشد مرارةً من أولئك الذين يقضون فترة عقوبتهم. فهو يقبع خلف القضبان دون إدانة، ينتظر حكمًا قد يأتي أو لا يأتي. إنه كطائرٍ حُبس في قفصٍ ضيق، يرى الحرية من ثقوبٍ صغيرة لكنه لا يستطيع الوصول إليها.

لم أستطع أن أفهم، ولعلي لن أفهم أبدًا، سرَّ هذه المعاملة القاسية. كيف يمكن لنظامٍ أن يتعامل مع إنسانٍ، لم تثبت إدانته بعد، بمثل هذه القسوة؟ أليس في هذا انتهاكٌ لكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية؟

وبينما كانت أصوات التكبير تتعالى من المساجد، معلنةً قدوم العيد كنتُ أنا غارقةً في بحرٍ من الأفكار المضطربة. أتساءل عن عدالةٍ تفصل الأحباب،

وعن رحمةٍ غابت عن قلوب صنّاع القرار. وفي عينيَّ دمعةٌ حائرة، تتأرجح بين فرحة العيد وحزن الفراق.

في تلك اللحظة، رن هاتفي، وكان المتصل أبي، سمعت في صوته حزناً عميقاً وأنا أعرف جيداً مصدره. كان قلبي يتمزق، أردت أن أركض إليه، أن أجلس بجانبه، أن أشارك هذا الشيخ المسكين فرحة العيد، لكن كيف أحتمل أن أكون محاطة بأخواتي اللواتي لا يعرفن الرحمة، وأزواجهن الذين لا يفقهون إلا في إثارة الغضب، وذاك المتعجرف عواض، وخالتي وابنها عاطف؟

أبي، الذي يبلغ من العمر سبعين عاماً، لم ينل من الدنيا إلا القليل، حتى ابنته الصغيرة، منة، التي رُزق بها وهو على مشارف الكهولة، تعاملت معه بقسوة وجفاء، منشغلة بخطيبها، لا تدرك ما تعنيه كلمة مسؤولية. ولدت في وقت كان أبي فيه منهكاً من حمل السنين، فأغدق عليها كل ما استطاع، لكنها لم ترَ في كل ذلك إلا حقاً مكتسباً.

اقترحت على والدي أن يأتي إلى بيتي، أن نتشارك الوحدة، أن نجلس معاً بعيداً عن هموم الدنيا، فرحب بالفكرة وكأنها أملٌ جديد. وعدني بأنه سيأتي بعد صلاة العيد، وقلبي يئن بين ضلوعي، فلا أستطيع انتظار لحظة لقائه.

وقفت في الشرفة، والناس يتوافدون لأداء صلاة العيد، وكل مشهد يزيد من ألمي. كل امرأة تمسك بيد زوجها، كل طفل يتشبث بوالديه وأتساءل في صمت: كيف حالك الأن يا أسامة؟

لم تمض لحظات حتى برزت أم شمس وزوجها وابنتهما شمس. وتوجه زوجها سريعًا إلى الساحة الشاسعة لأداء صلاة العيد. وإذ ألحت أم شمس عليَّ برقة وحنان، قالت: "يا أختاه، هلا رافقتنا لأداء الصلاة؟" وتحت

كثرة إلحاحها وتوسل ديمة، لم أستطع الرفض، فذهبت معهم وعيناي تغرقان في الدموع.

وأثناء الصلاة، ازدادت دموعي غزارة. وانشغلت ديمة مع شمس بينما أنا أضع الحجاب على عيني متذرعة بأن الهواء شديد، رغم أن الهواء كان لطيفًا.

في غمرة احتفالات العيد، وصل أبي متحاملاً على نفسه، فانطلقت فرحة ديمة كشعاع نور في ظلمة حزننا.

جلست مع والدي، كأننا نغوص في بحر من الظلمات، حيث تتلاطم علينا أمواج الهموم والأحزان من كل جانب. تحدثنا عن الفراغ الذي خلفته أمي برحيلها، وكأنها شمس غابت عن سماء حياته. ثم انتقلنا بحذر إلى قضية أسامة، وأكد أبي إيمانه ببراءته، وكأنه يزرع بذرة أمل في صحراء يأسي.

ثم بدأ أبي يسرد قصص أخواتي، وكأنه يروي مسلسلاً مليئًا بالدسائس والمؤامرات. تحدث عن نهى وعدوانيتها الجامحة، ومنة وتطاولها الذي يشبه سهامًا مسمومة، وإيناس التي تحاول ملء فراغ قلبها بالمال. ووصف وسام بالعاقلة التي تنجرف مع أدنى تيار.

وفجأة، كشف أبي عن سر كاد أن يفجر بركانًا من المشاكل. فقد اشتكت وسام من فتور علاقتها بزوجها وتردد اسم غادة على لسانه، مما دفع إيناس ونهى للطلب من أبى إبعاد غادة عن حياتها.

نزلت هذه الكلمات على قلبي كالصواعق المدمرة. تساءلت في أعماق نفسي: "أهذا ما آلت إليه عائلتنا؟ أصبحنا نحيك المؤامرات ضد بعضنا البعض كأعداء؟" أدركت أن ظروفي وسجن أسامة قد فتحا الباب على مصراعيه لهذه التصرفات المشينة.

شعرت وكأن قلبي يتمزق وأنا أستمع لهذه القصص. كيف تحولت عائلتنا من واحة حب وتراحم إلى ساحة حرب؟ كيف لأخواتي أن يتحولن إلى هذه الكائنات الغريبة التي لا أعرفها؟ وكيف لوالدي المسكين أن يتحمل كل هذه الأثقال وهو في خريف عمره؟

وما هي إلا ساعة حتى وجدت أختي وسام بصحبة زوجها وأبنائها في سيارتهم أمام المنزل. أدهشني الأمر وأثار تساؤلاتي: "ما الذي أتى بها إلى منزلي الآن؟ لماذا لم تنفذ نصيحة إيناس ونهى؟" رحبت بهم بحفاوة، وفرحت ديمة لقدوم أولاد خالتها.

أخرج زوج أختي خمسين جنيهًا وأعطاها لديمة كعيدية، فلم أجد بدًا من أن أعطي كل ولد من أولاد أختي عشرين جنيهًا. جلست وسام تتحدث عن صبري وتحملي للأزمات، لتفتح الطريق لزوجها الذي أفاض في الثناء على بصلة مدح طويلة. انتظرت أن توقفه وسام ولكنها كانت تبتسم ابتسامة مصطنعة لسبب في نفسها.

حتى طفح الكيل منها فقالت له: " إذا كنت ترى الأمور بهذه الطريقة فلماذا لم تتزوج امرأة مثل غادة؟

فأحرجتني قبل أن تحرجه. ولكن بكل برود لم يشعر بالحرج ورد عليها: " وهل يوجد في الدنيا كلها الأن من هم مثل غادة؟"

نظرًا لهذا الحديث الغريب المتوتر، قمت لأحضر لهم فاكهة. وسمعت حديثًا جانبيًا بين وسام وزوجها، دليلاً على عدم رضاها عن كلامه وأفعاله. لكنه قال لها إنها من طلبت منه أن يأتي إلى بيتي حتى يذهب والدي معه في السيارة، لأن هناك حربًا سوف تنشب بيني وبين إخوتي لو لم يذهب والدي إلى منزله. وذلك كما فهمت أن إيناس ونهى ومنة غير راضين عن حضور أبي لي.

لكن تساءلت: هل هذا إحساس بالذنب منهم تجاه أبي؟ ولكن زادت دهشتي حيث إن أبي كان في بيته فعلاً ولا أحد منهم يعتني به! نظرت إلى والدي وجدته مشغولاً بمشاهدة أخبار الكرة على التلفاز. وضعت أمامهم الفاكهة، وقلبي يعتصر ألمًا من هذه المواقف المتناقضة والعلاقات المتوترة في عائلتنا.

تناهى إلى مسامعي صوت وسام، يتسلل كنسمة الصباح الباردة، محملاً بطلبٍ ثقيلٍ كجبلٍ راسخ. قالت بنبرةٍ مترددة: "يا غادة، ألا ترين أن عودة والدك إلى بيته أمرٌ لا مفر منه؟ فالألسن لا تكف عن الهمس والعيون لا تنفك عن الرمق. كيف لأبيكِ أن يترك منزله، ذاك البيت الطويل العريض، ليقطن عند ابنته التي غُيّب زوجها خلف القضبان؟"

ثم أضافت بصوتٍ خافت، كأنها تخشى أن تسمعها الجدران: "أتدركين يا غادة؟ لن تسلمي من وصول هذا الخبر إلى مسامع أهل أسامة. وحينها"...

وما إن ذُكر اسم أهل أسامة، حتى انتفض قلبي كعصفورٍ مذعور، وكأن طبول الحرب تُقرع من بعيد. شعرتُ بظلالٍ قاتمة تلتف حول عنقي وكأن شبح الخوف يتربص بي من كل زاوية. فأهل أسامة، هم سيف مسلط على رقبتي، يهددني بالفناء في أي لحظة.

تماسكتُ، مستجمعةً قواي، واضعةً والدي في مقدمة أولوياتي متحصنةً به في وجه عاصفة أهل أسامة التي تلوح في الأفق. فلم أجد بُداً من أن أرد عليها بصوتٍ يحمل مزيجاً من الحزن والاستنكار محاولةً إخفاء رعشة الخوف التي تسري في أوصالي: " أواه يا وسام! أتطلبين مني أن أطرد والدي من بيتي؟ أيرضيكِ أن يعامله إخوتي معاملةً لا تليق بمقامه ومكانته؟"

وهكذا، وجدتُ نفسي عالقةً بين مطرقة واجبي تجاه والدي وسندان الخوف من أهل أسامة، في معركةٍ صامتة تدور رحاها في أعماق روحي المتعبة. استجمعتُ أنفاسي، فإذا بوسام تنطق بلسانٍ كأنه سوط يلهب ظهري، قائلةً بنبرةٍ مليئةٍ بالإجحاف والقسوة:

"أوَ لا ترين يا غادة أن والدكِ قد غلبته الشيخوخة، وأن التخريف قد نال منه؟ وإن كان يصعب عليكِ حاله، فلِمَ لا تأتين وتجلسين بجواره؟ فأنتِ كما يبدو لستِ مشغولةً بشيء يُذكر". ومعكِ من المال ما يكفيكِ".

وهنا تجمدت الكلمات على شفتي، فالحقيقة التي تجهلها وسام، ويجهلها إخوتي جميعاً، هي أن حياتي أشبه بلوحةٍ فسيفسائية، تتداخل فيها ألوان الكفاح والصبر والأمل، في تناغمٍ يعجز اللسان عن وصفه. لا أحد منهم يعلم أنني أعمل على نول السجاد وأقوم بتدريس محو الأمية، وأربي الطيور لبيعها.

وسام، في غفلتها، تظن أنني أعيش في بحبوحة من المال دون عمل. لا تدرك أن كل قرش أكسبه يأتي من عرق جبيني وكد يدي.

وقفتُ مذهولةً أمام هذا الهجوم غير المتوقع، وأسلوبها في الحديث الذي لم أعهده منها من قبل. لكن سرعان ما أدركتُ، من نبرة صوتها وحركات جسدها المتوترة، أن هذا ما هو إلا رد فعل لما بدر من مديح زوجها لي منذ قليل.

ازداد إصراري على موقفي، ولم نصل إلى حلٍ يحمي أبي. فغادرت وسام مع زوجها، الذي أصبح وجوده في أي مكان يجمعني به عبئاً ثقيلاً على كاهلي.

بعد رحيلهما، جلستُ مع أبي وديمة. وإذ بأبي يفاجئني قائلاً بصوتٍ مكسور: "لقد سمعتُ كل شيء يا ابنتي. لم أكن أشاهد التلفاز كما ظننتِ. أتمنى الموت، فأنا شخصٌ غير مرغوبٍ فيه في أي مكان".

حاولتُ تهدئة روعه. وبالفعل، هدأت روعه عندما بدأ يشاهد على التلفاز مباراة كرة قدم قديمة للمنتخب الوطني ضد منتخب هولندا

تأملتُ وجهه المبتهج، وتساءلتُ في نفسي: "يا لهذه الطيبة والبساطة! إنه يفرح بأقل شيء. فلماذا إذن يعامله إخوتي بهذا الأسلوب القاسي؟"

وضعتُ الغداء، وجلسنا نأكل. كانت ديمة في قمة سعادتها لوجود جدها معها، وكأن وجوده يعوض لها، ولو جزءاً بسيطاً، من غياب والدها.

ما إن لامست أولى اللقيمات شفاهنا، حتى دق جرس البوابة دقاً كأنه نذير شؤم. انفتح الباب ليكشف عن وجهي نهى وإيناس، وكأن موجة من التوتر والقلق قد تسللت إلى عتبة داري. حضورهن المفاجئ حمل معه هواءً ثقيلاً بالترقب، وكأن. أدركتُ في تلك اللحظة أن شرارة الحرب قد اندلعت مبكراً، قبل أن يجف عرق صلاة العيد على جباهنا.

دلفتا إلى الداخل بخطواتٍ ثقيلة، وعيناهما تقدحان شرراً كجمراتٍ متقدة. جلستا دون أن تهنئا أحداً بالعيد، وكأن الفرحة حرامٌ في حضرتهما. رأيتُ وجه أبي ينكمش عند رؤيتهما، كزهرةٍ ذابلة تحت وطأة صقيع قارس، وكأن روحه تنسحب إلى داخله هرباً من نظراتهما الحادة.

لم تفوت نهى الفرصة لتتفوه بكلماتها المسمومة، قائلة لوالدنا بتهكمٍ يقطر مرارة: "آه، الآن اتضحت الصورة! فهمت سر انتقالك للعيش مع غادة. أليست تقدم لك أشهى الأطباق وألذ المأكولات؟ يبدو أنها تحيطك برعاية ملكية وتدللك كملك في قصره"!

شعرتُ بكل كلمة تخرج من فمها كسهمٍ مسموم يخترق قلبي. نظرتُ إليها، وفي عيني ألف سؤال وألف دمعة حبيسة، متسائلة: "ماذا تقصدين؟"

انبرت إيناس، وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، لتصب جام غضبها: "أوَ لا تعلمين يا غادة أن في البيت هناك ابنة على وشك الزواج؟ أتريدينها أن تعيش وحدها كيتيمةٍ حية، وخطيبها يدخل ويخرج كأنه في فندق؟ ماذا سيقول الناس؟ ألسنتهم ستلوكنا كما تلوك الأفاعي فرائسها. لِمَ الآن بالذات يقيم أبوك عندك؟ متى كان يترك بيته؟ ألا يهمك كلام الناس؟ ماذا سيقولون عنا؟ ألم يكفِ موضوع زوجك ليجعلنا أضحوكة الحي؟"

كل كلمة نطقت بها كانت كسكينٍ يغرس في صدري. عقدتُ يدي حتى كادت أظافري تخترق لحم كفي، وقلت متحدية، وصوتي يرتجف كورقةٍ في مهب الريح: "وما شأن زوجي؟ على الأقل أنا أعلم أنه بريء، على عكس آخرين يتسترون على فضائحهم بستار رقيق من النفاق".

رمقتني نهى بنظرةٍ لو كانت سيفاً لقطعتني إرباً، مدركةً أنني أتحدث عن زوجها ذي السلوك والعلاقات المشبوهة. صاحت بصوتٍ كاد يهز جدران البيت: "قوليها إذن! يبدو أن ما حسبناه كان صحيحاً. لقد جلبتِ أبانا إليكِ لتظهري بمظهر الحنونة الطيبة، ثم ليكتب لكِ البيت باسمك وحدك، كما كان يهددنا هناك. أي قلبٍ أسود تحملين في صدرك يا غادة؟"

شعرتُ كأن الأرض تميد من تحت قدمي. أجبتها بصوتٍ مختنق بالدموع والغضب: "أي بيتٍ وأي تهديد؟ إنه أبونا، دمنا ولحمنا. والله لن أسامح أحداً منكم إن أصابه مكروه بسببكم. أي قلوبٍ من حجر تحملون في صدوركم؟"

ردت إيناس بنبرةٍ باردة كالثلج: "إن كان الأمر كذلك، فليعد إلى البيت ونحن سنرعاه. كفى خراباً للبيوت. أليس كافياً بيت أختك وسام الذي أوشك

على الخراب بسببك؟ أم تريدين أن تحرقي كل البيوت من حولك لتدفئي نفسك بنارها؟"

تسمرتُ في مكاني، أخواتي يلعبون بورقة سمعتي دائماً لكسب أي معركة. غياب أسامة وحبسه يضعفني، يجعلني كالعارية في وسط ميدان عام مأجج بالناس.

أدرك والدي أنني قد هُزمت بالضربة القاضية، فقال لهم بصوتٍ واهن: "كفى! سأبقى هنا عند غادة." ما إن نطق بهذه الكلمات حتى سقط مغشياً عليه، كشجرةٍ عتيقة اقتلعتها العاصفة.

نهضتُ مسرعة إليه، قلبي يخفق بعنف كاد يمزق صدري. أسكب قطرات الماء على وجهه الشاحب، وكأنني أحاول إحياء وردةٍ ذابلة بدموعي. وما إن أفاق حتى غادرتنا الاثنتان، بعد أن قذفت نهى سهمها الأخير: "يبدو أنه لا فائدة. دعيني أرى ماذا ستفعلين عندما تعلم حماتك أن أباكِ يقيم في بيت ابنها. ستكون تلك المعركة الأخيرة في حربك الخاسرة يا غادة".

وضعتُ يد أبي داخل راحة يدي، أدلكها محاولةً خفض توتره، وفي عيني دمعة حائرة، تأبى السقوط، كأنها قطرة أمل في بحرٍ من اليأس.

في اليوم الأخير للعيد، وكأن الأقدار أرادت أن تذكرني بهمومي، خطر ببالي أن أتصفح صفحة "زوجة رجل مسجون" من جديد. لاحظتُ أن عدد المتابعين قد ازداد نسبياً، لكنني لم أعر ذلك اهتماماً كبيراً، فالأرقام لا تعبر دائماً عن التجاوب الحقيقي مع القضية.

ما لفت انتباهي حقاً كانت الإجابات على سؤالي: "ما هو الوضع لو كان زوج امرأة مسجونة بدلاً من زوجة رجل مسجون؟" تباينت الآراء كألوان قوس قزح.

ألف سؤال يدور في رأسي كدوامة لا تنتهي. لا أريد أن أتحامل على أحد، لكن المفروض أن تكون الإجابات أكثر واقعية، تعكس مرآة مجتمعنا بكل تناقضاته وتعقيداته. شرحت وجهة نظري بسلاسة وأغلقت الصفحة وأنا أشعر براحة غريبة، كأنني ألقيت حملاً ثقيلاً عن كاهلي. فهناك شيء، مهما كان بسيطاً، أحاول من خلاله أن أكون متواجدة على ساحة الحياة، أعبر به عن رأي شخصيتي المستقلة.

مع أول خيوط شمس لليوم التالي للعيد، وقف الدهر على عتبة داري متجسداً في شخصي ماجد، وأمه إنعام. طلبت منهما الدخول بقلبٍ يخفق بين الأمل والخوف، لكن إنعام صدمتني بكلماتٍ حادة كنصال السيوف كعادتها: "لن أطأ بقدمي عتبة بيتٍ غاب عنه صاحبه، ابني الغالي. لستُ كأولئك الذين يتسللون إلى بيوت المسجونين ينعمون بخيراتها".

أدركتُ في تلك اللحظة أن خبر وجود أبي في منزلي قد وصل إليها لكن السؤال الذي حير عقلي: من أين علمت؟ وكأن ماجد قرأ أفكاري فأجاب دون تردد: "نهى، أختك، حدثتني عبر صفحة التواصل الاجتماعي فيس بوك. لقد وصلت إلى صفحتي من خلال صفحة أسامة، طالبةً تدخلنا لإعادة أبيكم إلى بيته".

وقفتُ مذهولة، وكأن صاعقةً قد ضربتني. أي أخوات هؤلاء؟ يحاربنني بقذارة ودناءة للوصول إلى مآربهن الدنيئة. لم يخطر ببال نهى، تلك التي كنت أعدها يوماً سنداً، أنها قد تدمر حياتي إلى الأبد بهذه الطريقة المقيتة.

لقد نفذت تهديدها بأنها ستسعى بكل الطرق للقضاء علي، وكأنني عدوتها اللدودة لا أختها من لحمٍ ودم.

وقفتُ هناك، على عتبة منزلي، أشعر وكأنني في مواجهة العالم بأسره. زوجي في السجن، أختي تتآمر ضدي، وعائلة زوجي تنظر إلى بعين الشك

والريبة. كل هذا وأنا أحاول جاهدةً أن أحمي أبي وابنتي، وأن أحافظ على ما تبقى من كرامتي.

في تلك اللحظة، أدركتُ أن معركتي ليست فقط مع الظروف القاسية، بل مع أقرب الناس إلي. وتساءلتُ بمرارة: هل هذا هو ثمن الوفاء والإخلاص في زمنٍ أصبحت فيه المصالح فوق كل اعتبار؟

قاطعتني إنعام بنبرة جافة: "اسمعي، لن أطيل الكلام. كان هناك ما يجب التأكد من وجوده، وقد تأكدت الآن".

ثم التفتت إلى ماجد قائلة: "هيا بنا يا ماجد".

لم يجد ماجد ما يقوله سوى أن عدّل نظارته بطرف إصبعه، ونظر إليَّ وإلى ديمة الواقفة في مدخل البيت، خائفةً من الخروج حتى لا ترى جدتها إنعام بعد حادثة صراخها ليلة القبض على أسامة، وعدم سؤالها عنها طوال الفترة الماضية.

بعد يومين من تلك الحادثة المؤلمة، رن هاتفي. كانت إيناس على الطرف الآخر، صوتها يحمل نبرة القلق والاضطراب. أخبرتني أن منة قد أصيبت قدمها بكسر، وأن هذا في اعتقادها من دعاء أبي عليها. ثم أردفت قائلة: "نحن في النهاية أخوات، ولا بد أن يأتي والدنا ليطمئن على حالة منة الصحية والنفسية".

انخلع قلبي وقلب أبي عندما سمعنا خبر كسر قدم منة. وعلى الفور قررنا أنا ووالدي وابنتي الصغيرة ديمة الذهاب إلى بيت أبي.

ما إن رأتنا منة حتى انخرطت في البكاء. قالت بصوت متهدج: "أنا ابنته مثلما أنتِ ابنته. لماذا قمت بإنجابي ما دمت لن تقدر على توفير مصاريفي وحياة كريمة لي؟ هل كانت أمي ستقبل بهذا الوضع؟"

للحظة، ظننت أن بكاءها نابع من إحساسها بالذنب تجاه معاملتها القاسية لوالدنا. ولكن هيهات! فهي ترى أن الحياة الكريمة هي تلك التي تفوق حياة متوسطي الدخل بمراحل.

لم أستطع تحمل كلماتها القاسية، فقاطعتها بانفعال: "لا يمكنك أن تتحدثي مع أبيك بهذا الأسلوب! أنتِ لا تدرين ما هي حالته النفسية بعد أن علم بكسر قدمك".

قررتُ أن أبقى مع والدي وأوازن بين مسؤولياتي. فصممتُ على العودة للنوم في بيت أبي كل ليلة، ثم العودة إلى منزلي نهارًا لمتابعة أعمالي وشؤون ابنتي ديمة.

وهكذا استمرت أيامي، أتنقل بين بيتي وبيت أبي، أحاول الموازنة بين مسؤولياتي تجاه ابنتي ووالدي. كان الأمر مرهقًا، لكن الحب والواجب كانا دافعي للاستمرار.

(٢٦)

توالت الأيام، وبدأتُ أشعر بسماحة نفسٍ تذيب أوصال الخصام في داخلي. وإذ بي أجد نفسي، كسفينة تائهة عادت إلى مرافئها القديمة أبحر مجدداً في بحار الحوار مع إيناس. ثم انساقت دفة كلماتي نحو شواطئ وسام، حتى وجدتني أطرق أبواب العقل المغلقة لنهى، تلك التي تحصنت أفكارها خلف أسوار من الجمود.

كان الأمر صعبًا في البداية، كأنني أمشي على حقل من الشوك، ولكن مع كل خطوة، شعرت بثقل يُزاح عن كاهلي.

مرت الأيام وتثاقلت خطواتي على عتبة بيت أبي، وقد أنهكني التنقل بين عالمين متباينين: عالم بيتي الصغير، وعالم طفولتي الذي عدت إليه مرغمةً. كانت روحي تئن تحت وطأة هذا العبء، لكن عيناي لمحتا بريقًا خافتًا في عيني والدي المتعبتين، فأدركت أن وجودي هنا يمنحه سكينة لم يعرفها منذ زمن.

تركت خلفي حياتي المعتادة؛ طيوري الصغيرة التي وضعتها في عهدة أم شمس لتعتني بها، وفصول محو الأمية التي كنت أتنفس فيها عبق الحروف والكلمات، "ونول السجاد، مرّ شهر كامل وأنا حبيسة جدران هذا البيت، لا أغادره إلا لقضاء حوائج من السوق أو لزيارة أسامة في سجنه.

كانت أنغام صوت أم شمس عبر الهاتف تترنم في أذني يومًا بعد يوم تنقل لي أخبار طيوري الصغيرة كنسمات عليلة تحمل عبق الوطن. وفي صباح أحد الأيام، جاءني صوتها مرتجفًا كورقة خريف في مهب الريح، تطلب مني العودة إلى بيتي على جناح السرعة. تسللت مخاوفي إلى قلبي كظلال داكنة، فاستأذنت والدي بكلمات مترددة، واعدةً إياه بالعودة.

رغم أن غيابي عن البيت لم يطل، إلا أن العودة إليه كانت كعودة الروح إلى الجسد. فهذا البيت، بجدرانه الصامتة وأركانه الدافئة، هو ملاذي الآمن من صخب العالم وضجيجه. هنا، بين هذه الجدران، أجد كرامتي التي تُسلب مني خارجها.

جاءت أم شمس، ووجهها شاحب كورقة خريف ذابلة. ارتعش قلبي في صدري، فقد أدركت أن ثمة خطب جلل يلوح في الأفق، كما اعتدت منذ أن غُيّب أسامة خلف القضبان. سألتها بصوت متهدج: "ما الخطب يا أم شمس؟"

تلعثمت في كلامها كمن يحمل على لسانه جمرات: "لا أدري كيف أخبرك... الطيور... إنها في حالة يُرثى لها. ارتفاع درجة الحرارة المفاجئ أصابها بالوهن".

هتفت بلهفة وقلبي يخفق كجناح طائر مذعور: "وماذا بعد؟ أخبريني كل شيء"!

أجابت بصوت خافت كهمس النسيم: "الطيور تنفق بأعداد كبيرة وكذلك تستهلك العلف بكميات ضئيلة، وأجنحتها مرفوعة بعيدًا عن أجسامها كأنها تودع الحياة".

عاتبتها بمرارة: "ولِمَ لم تخبريني فور ظهور هذه الأعراض؟"

ردت معتذرة: "لم تظهر الأعراض إلا منذ يومين فقط".

هرعت نحو الطيور كمن يسابق الريح، فوجدتها في حالة تدمي القلب. اتصلت بالطبيبة البيطرية على الفور، فأخبرتني بنبرة حزينة أنه فيروس في الهواء يسمى الاحتباس الحراري للدواجن البيضاء نتج عن ارتفاع درجة الحرارة، وأنه لا مفر من التخلص من باقي الطيور وذبحها.

وقفت مذهولة، أصارع أفكاري المضطربة: "أأذبح طيورًا قد تكون مريضة؟ كيف لي أن أتسبب في أذى كائن حي؟"

نظرت إلى الطيور بعينين دامعتين، وتذكرت أنها تمثل استثمارًا يقارب الخمسة عشر ألف جنيه، لم أحصل منه سوى على ألفي جنيه. ها هي مصيبة جديدة تنضم إلى قافلة ابتلاءاتي، وهذه الطيور كانت مصدر عون لأسامة.

بقلب مثقل بالهموم، قررت التخلص منها. قضيت يومين أبيع البط والأرانب، أجمع فتات الألفي جنيه. واختفت أم شمس وابنتها كما تختفي الشمس خلف الغيوم في يوم عاصف، ربما شعورًا بالذنب والإهمال. أو خوف من أن احملها تكاليف الطيور النافقة!

جلست في المنزل أفكر: "هل أعود إلى صنع السجاد؟ إنه أفضل من لا شيء. لكن والدي يحتاج إلى رعايتي في منزله." وجدت نفسي أمام معادلة صعبة الحل.

اتصلت بصديقتي لتحضر لي نول السجاد مرة أخرى، لكنها بأسلوب مهذب أوضحت لي أن هناك ركودًا في هذا المجال هذه الأيام. أدركت أنها في غنى عني، فأنا بالنسبة لها لم أعد على قدر المسؤولية بسبب التأخير في تسليم المنتج وعدم انتظامي في العمل.

(٢٧)

حلّ يوم جلسة تجديد حبس أسامة، وقلبي يخفق بين أمل ورجاء. هل ستشرق شمس الحرية اليوم على حبيبي، أم ستظل حبيسة خلف غيوم القضبان؟ مرّت الدقائق ثقيلة كالجبال، وأنا أجرُّ خطواتي المتعثرة نحو المحكمة القديمة، تلك البناية الشامخة التي تحمل في جنباتها آلاف القصص والأحكام.

وهناك، صُعقت بخبر كالصاعقة: إحالة القضية إلى محكمة الجنايات! أسامة، حبيبي وسندي، سيُحاكم بتهمة إهدار المال العام. يا لهول الصدمة! كيف تحوّل حلمي بخروجه اليوم إلى كابوس محاكمة قد تطول؟ وجدت نفسي في موقف غريب، أتمنى استمرار حبسه الاحتياطي بدلاً من هذا المصير المجهول.

هل بهذا القرار تمت إدانة أسامة فعلياً؟ سؤال ثقيل جثم على صدري كصخرة هائلة. دخلت في جدال محموم مع المحامي، وصوتي يرتجف بين الغضب والخوف: "كيف حدث هذا؟ ألم تكن هناك طريقة لتجنبه؟"

حاول المحامي تهدئة روعي بكلمات بدت لي كأنها قشة يتعلق بها غريق: "لا داعي للخوف، يا سيدتي. إنها فترة مؤقتة ستمر. القضية ستُحفظ في النهاية، وهذا أفضل من إطالة فترة التحقيقات. فأسامة لن يخرج من الحبس الاحتياطي في ظل الظروف الاقتصادية العصيبة التي تمر بها البلاد".

وأضاف بنبرة واثقة: "صحيح أن القضية أخذت شكل قضية رأي عام لكن القاضي لا يحكم إلا بالمستندات. سيحكم ببراءة أسامة، وما هي إلا مسألة وقت".

انصرف المحامي، تاركًا خلفه ظلالاً من الشك والقلق. وقفتُ أمام أسامة، أحاول أن أرفع من معنوياته بكلمات مترنحة بين الأمل واليأس. لم أجرؤ

على إخباره بمصير الطيور، فقد بدا لي أن قلبه لم يعد يحتمل المزيد من الأحزان.

وفجأة، كزوبعة هوجاء، اقتحمت إنعام، والدة أسامة، المشهد. كانت قد علمت بالخبر من ماجد في طريقها إلى المحكمة. انطلق صوتها الحاد كسهام مسمومة، مخترقًا هدوء المكان: "أليس هذا هو المحامي الذي جلبته ست هانم وأخذ أموالاً طائلة؟ أين النتيجة إذن؟ لقد مر عليك ما يقارب العام، فكم ستأخذ من السنين إذا حُكم عليك؟"

استفاضت في وصلتها المعتادة، وكأنها تصب جام غضبها على رؤوسنا جميعًا. ثم التفتت نحوي بنظرات حادة كشفرات السكاكين وأكملت: "والهانم، تقصدني طبعًا، مسرورة لأنها تعيش على هواها. تذهب وتعود متى شاءت، تخرج وترجع وحدها في منتصف الليل. هذا بالإضافة إلى والدها الذي يأكل ويشرب وينام في بيتك، ووالدك وإخوتك أولى به منهم. ها هم يتمتعون بخيرك وأنا أكتم في قلبي وأصمت".

وقفت هناك، عاجزة عن الكلام، أفكر في عواقب المرحلة الجديدة القادمة. هل سيأخذ أسامة حكمًا بالحبس؟ وجدت نفسي في موقف لا أُحسد عليه، محاصرة بين نظرات الناس المتسائلة، وهموم مصاريف المعيشة الثقيلة، وإحالة أسامة للمحاكمة، وضغط والدته المستمر على أعصابي المنهكة.

عدتُ إلى البيت والدنيا تدور بي كرحى طاحونة عملاقة. لساني ملتصق بسقف حلقي، جافٌ كأرض قاحلة لم تذق قطرة ماء منذ دهور. حتى أم شمس، التي كانت تشاركني همومي، لم تسأل عني رغم علمها بموعد الجلسة. وكأن العالم كله قد تخلى عني في لحظة ضعفي.

الصداع هاجمني كجيش من الدبابير الغاضبة، أغشى على عيني فلم أعد أرى شيئًا بوضوح. خلدت إلى النوم بصعوبة بالغة رغم إنهاكي الشديد، كأن جسدي يأبى أن يستسلم للراحة وسط هذه العاصفة من الهموم.

(٢٨)

استيقظت في اليوم التالي وشعور غريب يسري في يدي اليسرى وجانب وجهي الأيسر، كأن نملاً يسعى تحت جلدي. خطر ببالي أن ذلك من النوم بطريقة خاطئة. اتصلت بمنة ولم ترد، وبعد دقائق وصلتني رسالة من إدارة المدرسة تطالبني بدفع القسط الأول من المصاريف المدرسية للصف الثاني الابتدائي قبل بدء العام الدراسي الجديد.

وقفت حائرة أمام هذا المأزق الجديد، كمن يقف على حافة هاوية لا يرى قاعها. لم أجد أمامي سوى الأستاذ كمال كشعاع أمل وسط هذا الظلام الدامس. انتظرت حتى ما بعد صلاة الظهر لأحدثه، لكن هاتفه كان مغلقًا، كأن القدر يغلق أمامي كل الأبواب.

توجهت إلى بيت أبي، حاملة همومي كجبل على ظهري. سألني أبي عن جديد قضية أسامة، فأجبت بصوت خافت: "لا جديد يا أبي، لكن الحمل يزداد ثقلاً يومًا بعد يوم".

نظر إليّ أبي بعينين مليئتين بالحنان والقلق، وقال: "اصبري يا ابنتي لعله خير قادم".

انتفضت على صوت هاتفي كمن لدغته أفعى. كان الأستاذ كمال، ذلك الشعاع الأخير من الأمل في ظلمة أزمتي. بعد التحية، انهالت كلماته عليّ كسيل جارف من الأخبار المفجعة.

أخبرني بصوت يحمل نبرة الأسف أن إنعام وعزة قد تحدثتا إليه، وهما الآن على علم بأنه من قام بدفع مصاريف المحامي. وكأن القدر يسخر مني، أضاف أنه بحاجة إلى أمواله الآن لأنه يمر بضائقة مالية هو الآخر.

ثم جاءت الضربة القاضية: الحل المقترح هو أن يدفع سعيد زوج عزة المبلغ له مقابل أن يتم كتابة البيت باسمه، وأن تأتي عزة وإنعام إلى البيت لضمان حق زوج عزة.

شعرت وكأن الأرض تميد من تحت قدمي. سألته مصدومة بصوت مرتجف: "وأنا، إلى أين أذهب؟" فأجاب بنبرة تحمل مزيجًا من التعاطف والحزم: "إنها فترة مؤقتة لحين خروج أسامة من السجن".

كادت كلمات تفلت من شفتي: "وماذا لو صدر حكم ضد أسامة؟" لكنني كتمتها في صدري، كمن يبتلع جمرة متقدة. بدلاً من ذلك، سألته عن رأي أسامة، لتأتي الصدمة الأخيرة: الجميع كان عنده في القسم بالليل لزيارته، واقتنع بالفكرة ورحب ببيع البيت.

ابتلعت مرارة الموقف وهمست لنفسي: "وها هي ذي مصيبةٌ أخرى تُضاف إلى سلسلة المصائب المتتالية"لكنني تشبثت بفترة الأسبوعين وأغلقت الخط معه على هذا الاتفاق.

وقفت هناك، في منتصف غرفتي، أشعر وكأن العالم كله يتهاوى من حولي. لكن سرعان ما استدركت، وقد تداركتني رحمة الله: "أستغفر الله العظيم... إنا لله وإنا إليه راجعون... الحمد لله على كل حال".

جاء دور نهى، ملاذي الأخير. وقفت أمامها، كرامتي تنزف تحت قدمي، متوسلة من أجل ابنتي ديمة. أحضرت لي المال، ولكن عندما علمت أن المال لمصاريف ديمة الدراسية، تغير وجهها كسماء أصابها الكسوف. نصحتني بنقل ديمة إلى مدرسة حكومية، وكأنها تحاول اقتلاع أحلامي من جذورها. أدركت في قرارة نفسي أنها تسعى لقطع أجنحة ديمة قبل أن تحلق، ربما خوفًا من أن تسبق ابنتها في التحليق ابتسمت لها ابتسامة

مصطنعة، شاكرة لها شعورها ومحاولتها حل مشكلتي، لكنني لم أتنازل عن تعليم ديمة

تساءلت في حيرةٍ عميقة، ربما في محاولةٍ يائسة لتجنب التفكير في خذلان أخواتي لي. "من منهما أقرب إلى قلبي؟ أسامة أم ديمة؟" لكن السؤال كان أشبه بمن يسأل الشمس أي شعاع من نورها تفضل أن ينطفئ. حبي لهما كنهرين يلتقيان في بحر قلبي، لا يمكن فصل مياههما.

في غمرة الأيام الكئيبة، وتحت وطأة الظروف القاسية، وجدت نفسي أمام خيارٍ صعب؛ فقد آن الأوان لأن أضحي بآخر ما تبقى لي من ذكريات السعادة الغابرة. فبعتُ خاتم زواجي، ذلك الرمز الذهبي الذي طالما احتضن إصبعي كما احتضن قلبي الأمل في غدٍ أفضل.

رافقتني أختي إيناس، شاهدةً على تلك اللحظة المريرة، حيث تحول الخاتم إلى مجرد قطعةٍ من المعدن الثمين، تُباع لتسدّ رمق الحاجة. وبالمال الذي جنيته، دفعتُ قسط مصاريف المدرسة لابنتي، مؤمِّنة لها على الأقل حقها في التعليم، في عالمٍ بات فيه كل شيء مُعلَّقا على خيطٍ رفيع من الأمل.

وبما تبقى من المبلغ الزهيد، قررتُ زيارة أسامة في سجنه. وكالعادة وجدته خلف ذلك القفص الحديدي، الذي بات يفصل بيننا أكثر من مجرد قضبان. أخبرته عن مقال زوج خالته، الأستاذ كمال، فقال لي بنبرةٍ غريبة: "إنّ هذا أنسب شيءٍ في مثل هذه الظروف."

لكنّ شيئاً ما في طريقة كلامه أثار حيرتي. هل تأثر باتهامات أمه لي؟ وهو يعلم جيداً أنه لم يترك لي على مدار هذه السنة سوى سبعمائة جنيهٍ فقط لا غير. فكيف يمكن أن يظن أنني أصرف على أبي؟

لم أجد بُداً من أن أسأله: "ما بك؟" فأجاب بلا مبالاة: "لا شيء". ثم أكمل في أسىً ومرارة: "الظاهر أنكِ أنتِ الأخرى فقدتِ الأمل في خروجي."

صُعقتُ من كلماته، وقلت له في دهشة، وكأن قلبي قد امتلأ بشظايا دامية: "ولِمَ تقول ذلك؟"

فأجاب، وكأن كلماته كانت سكيناً صدئاً يغوص ببطء شديد في أعماق قلبي: "أين خاتم الزواج؟"

نظرتُ إلى يدي، فاضطرب قلبي لشعوري أن معه حقاً في استنتاجه الخاطئ. ولكني، مراعاةً لظروف حبسه، كذبتُ قائلة: "إنّ أصابعي بها شيءٌ من التورم، مما يجعل الخاتم يضيق عليها، لذلك خلعته حتى تتحسن حالة يدي مرةً أخرى."

وكأنّ لسان حالي يقول إنّ شكّه هو الذي يضيق على نسمات حياتي وهو حبي له. ولكنه بالفعل كمن يحمل مطرقةً ويهوي بها فوق رأسي مراراً وتكراراً مع كل حرف، حيث قال لي: "إنني مستعدٌ لطلاقكِ مثلما أخبرتكِ في مرةٍ سابقة. يكفي ما تتحملينه بسببي يا غادة. وأنا أعفيكِ من أي وعودٍ أو عهودٍ بيننا. اعتبريني ميتاً وأكملي حياتكِ."

لا أدري لماذا لم ألتمس له العذر هذه المرة، فلم أجد إلا أن أخرج عن شعوري صارخة: "ما هذا الطلاق الذي تتحدث عنه بهذه البساطة؟ أكلما مرّت لحظة تُذكِّرني به؟ أإلى هذه الدرجة تهون عليك التضحية بي؟"

فأجابني بهدوءٍ مستفز: "إنه حقكِ ولا أقدر أن أنكره. فأنا مسجون وأنتِ شابة، من حقكِ أن تعيشي أيام شبابكِ وحياتكِ في استقرارٍ كما تشائين."

حلّ الصمت بيننا، وكأنّ الكلمات قد نفدت. وجدتُ أن الزيارة قد انتهت ولكن بما أنني أصبحت معروفة، تركوني حتى النهاية. لكنّ أمين الشرطة أخبرني أن هذا القدر يكفي.

تركتُ أسامة، لأول مرة في محبسه، ونحن مختلفان. لم أقدر أن أتحمل كلامه السلبي أكثر من ذلك، وإن كنتُ ألتمس له الأعذار كل مرة لأنه مسجون. لكن من المفترض أن يتفهم من نفسه حجم معاناتي، وكيف يكون حالي وأنا أترك منزلي الذي لي حقٌ فيه لعائلته بمنتهى البساطة.

ولكن لأني لا أريد من الدنيا شيئاً سوى أسامة وديمة، تقبلتُ أمر تركي لبيتي. وها أنا أمضي في طريقي، حاملةً في قلبي جرحاً غائراً، وفي عيني دمعةً حبيسة، وفي روحي أملاً خافتاً يأبى الانطفاء.

ما خرجتُ من الزيارة حتى بدأت الأرض تميد من تحتي، كسفينةٍ تتقاذفها الأمواج في بحرٍ هائج. تحولت وجوه المارة إلى أطيافٍ ضبابية، تتراقص أمام عينيَّ كلوحةٍ سريالية، وأصواتهم إلى همهماتٍ غريبة، كأنها تأتي من أعماق كهفٍ سحيق.

وفجأة، انطفأت الدنيا في عينيَّ، وغرقتُ في ظلمةٍ دامسة، كنجمةٍ خبا ضوؤها في سماءٍ حالكة.

وحين عدتُ إلى وعيي، وجدتُ نفسي محاطةً بوجوه نسائية غريبة تنظر إليَّ بعيونٍ مليئة بالشفقة والفضول. كنتُ كغريقٍ يلتقط أنفاسه بعد صراعٍ مرير مع الأمواج، أحاول استجماع شتات نفسي المبعثرة. سألتني إحداهن بنبرة قلقة: "أأنتِ بخير؟"

فأجبتُ بصوتٍ واهن: "أين أنا؟ ومن أنتن؟"

فقالت لي بلطف: "أنتِ في السجن. لقد سقطتِ مغشياً عليكِ بعد خروجكِ من الزيارة".

تذكرتُ حينها ما حدث، وعلمتُ منها أنها طبيبة. عرضت عليَّ أن توصلني في طريقها، لكنني رفضتُ متعللةً بأن حالتي أصبحت أفضل. غير أنها

أخرجت لي بطاقتها الشخصية، والبطاقة الخاصة بعضوية النقابة التي تثبت أنها طبيبة، وأضافت أنها تعرفني. قالت إنني السيدة التي أوقفت ذلك الأمين عند حده، وتسببت في حماية مئات السيدات من تحرشه المشين.

منذ تلك الواقعة، وعلى الأقل، كانت تشكرني سيدة من الموجودات في السجن من أجل الزيارة على ما فعلته بأمين الشرطة. وبالفعل، ركبتُ معها سيارتها الفارهة، وعلمتُ منها أنها طبيبة مخ وأعصاب، وأنها من الواضح في حالة مادية ميسورة.

قالت لي وهي تقود السيارة بهدوء: "أنا آتي إلى السجن لزيارة ابني المتهم بتعاطي المخدرات. الغنى يمكن أن يكون نقمةً مثل الفقر تماماً".

وجدتُ في كلامها علامةً إلهية تدعوني لأن أحمد الله على حالي. عرَّفتني بنفسها قائلة: "أنا الدكتورة سلمى الخطيب، أخصائية مخ وأعصاب بإحدى المستشفيات الكبرى".

ثم طلبت مني أن أقوم بعمل فحوصات طبية وأشعة على نفسي لكي أطمئن على صحتي. شعرتُ أنها تشكُّ في أمرٍ ما في صحتي! وأعطتني البطاقة الخاصة بها مع موعدٍ لزيارتها في عيادتها.

حدث كل ذلك وعقلي مشغولٌ بما جرى بيني وبين أسامة. وفي خضم هذه الدوامة من المشاعر والأحاسيس المتضاربة، بدأ صوتٌ في داخلي يعلو، صوتٌ لائم، قاسٍ كسياط الجلاد:

"أيتها الحمقاء! كيف سمحتِ لنفسكِ بالانجراف وراء مشاعركِ الجياشة؟ كيف تركتِ لسانكِ يسبق عقلكِ، وقلبكِ يغلب حكمتكِ؟ أكان ينبغي أن تنفجري هكذا في وجه أسامة، وهو القابع خلف القضبان يعاني مرارة السجن وقسوة العزلة؟"

كانت كلمات اللوم تنهال على رأسي كحجارةٍ صلبة، تدقُّ في صدري كأجراسٍ حزينة. شعرتُ وكأن قلبي ينكمش، يتقلص حتى كاد يختفي بين ضلوعي.

"لقد كان عليكِ أن تكوني صخرةً صلبة، تتحطم عليها أمواج اليأس والقنوط. كان يجب أن تكوني نسمةً رقيقة، تحمل إليه عبق الحرية وأريج الأمل. لكنكِ خذلتِه، خذلتِ نفسكِ، وخذلتِ حبكما الذي طالما تباهيتِ بصموده في وجه العواصف".

وهكذا، وجدتُ نفسي أسيرةً بين قضبانٍ من الندم والحسرة، أحاول جاهدةً أن أتنفس في جوٍّ خانق من اللوم الذاتي، متسائلةً في حيرة: هل من سبيلٍ لإصلاح ما أفسدته يداي؟ أم أن الوقت قد فات، وأن قطار الأمل قد غادر المحطة، تاركاً إياي وحيدةً على رصيفٍ مهجور أنتظر قطاراً قد لا يأتي أبداً؟

وبينما كانت السيارة تشق طريقها في شوارع المدينة، وجدتُ نفسي غارقةً في بحرٍ من الأفكار المتلاطمة. كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟ وهل من سبيلٍ للخروج من هذه الدوامة المظلمة؟ لم أجد إجابات، بل وجدتُ نفسي أمام المزيد من الأسئلة، تتراكم كجبالٍ شاهقة أمام عيني المُتعبتين.

خطوتُ إلى بيتي، قلبي يخفق بألم الوداع. نظرتُ إلى كل ركنٍ فيه نظرة المودع، متسائلةً في حيرة: أيعود هذا المنزل يوماً ما ليكون ملاذي الآمن؟ أم أنني أودعه الآن وداعاً أبدياً؟

بيدين مرتجفتين، جمعتُ أشيائي وأشياء ديمة في سيارةٍ صغيرة، كأنني أجمع شظايا حياةٍ تحطمت. توجهتُ إلى بيت أبي، وكأنني أرى نفسي امرأةً موصومةً بالعار، حُكم عليها، بسبب أفعالٍ لم ترتكبها أن تعيش منبوذةً في الجبال.

شعرتُ بعيون الناس تترقب رحيلي، وكأن نظراتهم حجارةٌ يقذفونني بها. كل عينٍ تنظر إليّ كانت كسهمٍ مسموم يخترق روحي. بعضهم بلا شك يراني وكأنني نفذت خطةً محكمة، ذاهبةً لأتمتع بأموالٍ واهية لأسامة، تلك الأموال التي يعتقدون خطأً أنه نهبها.

وصلتُ إلى بيت أبي، وقفتُ أمام الباب، يدي ترتجف وهي تطرقه. شعرتُ وكأنني طفلةٌ ضائعة تعود إلى بيتها بعد رحلةٍ مريرة في عالمٍ قاسٍ. وبينما انتظرتُ أن يُفتح الباب، تساءلتُ: هل سيفتح لي أبي ذراعيه كما كان يفعل دائماً؟ أم أن نظرة الشفقة والخيبة ستكون هي كل ما سألقاه؟

وقفتُ هناك، على عتبة حياةٍ جديدة، أحمل في قلبي أملاً خافتاً وخوفاً عميقاً، منتظرةً أن ينفتح الباب على فصلٍ جديد من قصتي المليئة بالتحديات والآمال المحطمة.

مرت الأيام، وجيبي خاوٍ كصحراء قاحلة. الحاجة إلى مصدر دخل تضغط على صدري كصخرةٍ ثقيلة. فكرتُ في العمل كمدرسة، لكن الأبواب موصدة. المدارس الحكومية لا تقبل طلبات جديدة، والمدارس الخاصة تحتاج إلى وساطة وهو ما لا أملكه. وماذا لو علموا بسجن أسامة؟ سيكون الرفض حتمياً. فلا شيء يمكن إخفاؤه في هذا العالم الصغير!

وقفتُ أمام نافذة غرفتي، أتأمل العالم الخارجي. شعرتُ وكأنني سجينةٌ في قفصٍ من الظروف القاسية والنظرات المتهمة. تساءلتُ في أعماق روحي بمرارة: هل من مخرجٍ من هذه الدوامة؟

دخلت عليَّ إيناس بخطواتٍ متثاقلة، وعلى وجهها ابتسامةٌ مصطنعة تشي بنوايا خفية. قالت لي بنبرةٍ تحاول أن تكون ودودة: "لديَّ عرضٌ لا يُقبل الرفض، توصلتُ إليه بعد مباحثاتٍ مع نهى ووسام".

سألتها بحذر: "وما هو هذا العرض؟"

فأجابت: "أن تعملي معي في مصنع الملابس".

صُعقتُ من هول المفاجأة، وقلت: "ماذا تقولين؟"

فأردفت بسرعة: "سأعطيكِ مرتباً قدره ثلاثة آلاف جنيه، وهذا مبلغٌ لا يحصل عليه أحدٌ في المصنع. أفعل ذلك لأنكِ أختي".

شعرتُ بالمرارة تملأ فمي، وقلت: "أتريدين أن أعمل عند ابن خالتك وزوجته، على الرغم من رفضي الزواج منه في الماضي، وامرأته تعلم ذلك؟"

ردّت بنبرةٍ باردة: "لا يمكن حساب الموضوع من هذا الاتجاه. أنا أريدكِ أن تعملي معي".

حاولتُ التملص: "لكنني لا أعلم شيئاً عن هذه المهنة".

فقالت بثقة زائفة: "سأعلمكِ مثلما تعلمتُ أنا. كنتُ في الماضي لا أعلم شيئاً عن هذه المهنة".

تخيلتُ نفسي في ذلك المصنع، وكأنني أرى المشهد بعيني روحي المكلومة: وكم المهانة والذل.

قلت بصوتٍ خافت: "لا أستطيع".

هنا، ظهرت نواياها الخبيثة: "إذاً، ما يقوله الكل صحيح. أنكِ تُخفين الأموال التي تركها أسامة، وكأنكِ تنسجين شبكة من العقبات حولنا خيطاً خيطاً، بمهارة حائك ماهر. كل فعل من أفعالك يضيف حجراً إلى جدار المصاعب الذي تشيدينه أمامنا.

شعرتُ بالانكسار يملأ كياني، وأنا على يقين أن نظرات الشك تحاصرني من كل جانب، فهي تخترق درعي الواهي:

ومتى سيرى الناس الحقيقة البسيطة التي أعيشها، بدلاً من الأوهام التي نسجوها حولي؟ لذلك قلت: "ربنا وحده يعلم".

ضغطت عليَّ قائلة: "إذاً لا تفوتي الفرصة".

حاولتُ تجنب الشكوك التي استنزفت طاقتي: "اتركيني أفكر في الأمر".

قالت بيقينٍ مزعج: "سآتي إليكِ صباح الغد لنذهب إلى المصنع سوياً." ثم تركتني وذهبت.

وقفتُ هناك، في وسط الغرفة، كتمثالٍ من الحيرة والألم. تذكرتُ كيف هنتُ على أسامة في آخر زيارة، كيف طلب مني ترك البيت دون أن يعبأ بما سيكون عليه وضعي ووضع ابنتنا بعد ذلك. شعرتُ بمرارةٍ تملأ فمي. الضغط المادي يدفعني للقبول بأي عمل حتى لو كان في مصنع سيذكرني كل يوم بماضٍ أحاول نسيانه. ومن ناحيةٍ أخرى، كرامتي تصرخ، ترفض أن تنحني أمام من كانوا يوماً سبباً في آلامي.

ثم خطرت لي فكرة: لماذا أشغل بالي بابن خالتي وزوجته وخالتي أصلاً؟ ألم يحن الوقت لأن أفكر في مصلحتي ومصلحة ديمة أولاً؟

همستُ لنفسي. "المهم أن أكمل مسيرتي كزوجة رجلٍ مسجون، وأم تحاول توفير حياةٍ كريمة لابنتها".

انسلّت منة أختي كظلٍّ خفيف، واتخذت مجلسها بجواري. في عينيها بريقٌ يشي بالقلق، وعلى شفتيها ابتسامةٌ مترددة كأنها تحاول أن تُخفي سراً ثقيلاً. بصوتٍ يحمل رنين الحنان، ولكنه يرتعش قليلاً قالت:

"يا أختاه، إني أدرك تمام الإدراك أن الأمر يبدو عصياً كصخرةٍ صماء، ولكن ألا ترين أن المرتب يلمع كنجمٍ ساطع في سماء مظلمة؟"

ثم، وبسذاجةٍ فاضحة كشفت النقاب عن نوايا إيناس، أردفت قائلة:

"اعلمي يا عزيزتي أن ابن خالتنا هو من رفع مرتبك إلى هذه القيمة الباهرة، وليست إيناس صاحبة هذه المبادرة كما قد تظنين".

توقفت لحظة، كأنها تزن كلماتها بميزانٍ دقيق، ثم تابعت:

"ولكن، أليس من الحكمة أن تقبلي؟ فهذه فرصتك السانحة لتحسين دخلك، ومن يدري؟ فلربما وجدتِ في هذا العمل راحةً تفوق ما قد تجدينه في أي مكانٍ آخر".

وبهذه الكلمات، تركتني غارقة في بحرٍ من الأفكار المتلاطمة وانسحبت بهدوء لإعداد كوبٍ من الشاي، تاركةً خلفها أريج الحقيقة المُرّة.

ومن بين كلماتها، فهمت خيوط المؤامرة المحاكة ضدي بدقةٍ وحذر.

قررت القبول، وانغمستُ في عالم الإنترنت، باحثةً عن ملاذٍ يُنسيني مرارة المؤامرة التي حيكت حولي. فتحتُ صفحة "زوجة رجل مسجون" على الفيس بوك، وكأنني أفتح نافذةً على عالمٍ موازٍ لعالمي.

وجدتُ العدد يتزايد كأمواجٍ متلاطمة في بحرٍ هائج، وردود الأفعال تتدفق كسيلٍ جارف، أكثر نضجاً وعمقاً من ذي قبل. شعرتُ بشجاعةٍ تسري في عروقي، فقررتُ أن أطرح سؤالاً جديداً، يعكس صراعي الداخلي:

"أيُّ الأحوال أسوأ للمرأة: أهي زوجة رجلٍ مسجون، أم المطلقة، أم الأرملة؟"

وأنا أكتب هذه الكلمات، تردد في أذني صدى كلمات أسامة في زيارته الأخيرة، كأنها نبوءةٌ قاسية:

"اعتبريني قد متُّ، وبذلك تكونين كالأرملة".

ثم أردف بنبرةٍ باردة كالجليد: "أو اطلبي الطلاق متى شئتِ، فتصبحين مطلقة".

كان يتخيل أن هذا هو الحل، كأنه بذلك كما في خيالي يفك الأصداف المربوطة بيده عن رقبتي، ويوقف سحلي على قارعة الطريق بتلك الأصداف ذاتها.

وهكذا، وجدتُ نفسي عالقةً بين ثلاثة خيارات، كلٌّ منها مرٌّ كالعلقم:

أأبقى زوجةً لرجلٍ مسجون، أعيش في ظل غيابه وأحمل عبء وحدتي؟ أم أختار طريق الطلاق، لأواجه المجتمع بوصمةٍ جديدة؟ أم أعتبر نفسي أرملةً، أحيا في ظل ذكرى رجلٍ حيّ ميت؟

كل هذه الأفكار تدور في رأسي كدوامةٍ لا تنتهي، وأنا أنتظر بلهفةٍ إجابات النساء اللواتي قد يشاركنني هذا الألم، أو يقدمن لي بصيص أملٍ في هذا النفق المظلم.

بعد دقائق من الانتظار، بدأت الردود تتوالى كقطرات المطر في ليلةٍ عاصفة.

أدركتُ أن زوجة المسجون تعيش في سجنٍ نفسي وات لا يقل قسوةً عن سجن زوجها المادي. فهي أسيرة الانتظار، والأمل الخادع والواجب المجتمعي الثقيل.

تسارعت دقات قلبي كعقارب ساعةٍ مجنونة حين سمعتُ وقع أقدام منة تقترب حاملةً الشاي. بحركةٍ لا إرادية، أغلقتُ الصفحة بسرعةٍ تشبه إخفاء سرٍّ ثمين. تساءلتُ في نفسي: "أهو الخجل يدفعني لهذا التصرف؟ أم خشية أن أكون موضع استهزاءٍ من أخواتي؟" لم أجد جواباً شافياً.

تناولتُ كوب الشاي من يد منة، وكأنه طوق نجاةٍ في بحرٍ هائج من الأفكار. اتجهنا نحو الشُرفة تلك التي هجرتُها منذ زمنٍ بعيد وكأنها أرضٌ محرَّمة تحمل ذكرياتٍ مؤلمة.

وإذ بي أفاجأ بزوجة عواض واقفةً هناك، تبتسم ابتسامةً مصطنعةً كزهرةٍ بلاستيكية، وتسأل: " كيف حالكم يا أم ديمة؟ أجبتُها بكلمةٍ واحدة: "الحمد لله!" وفي داخلي صراخٌ صامت: "ما الذي دفعني للدخول إلى هذه الشرفة الآن؟ إنها أحد مصادر الشرور لي"!

أدركتُ أن سؤالها عن حالي كان إشارةً خفيةً لي للخروج من الشرفة فوراً. وحتى لو لم تقصد ذلك، فإن الانسحاب هو أسلم وضعٍ لتجنب نشوب مشكلةٍ جديدة. فهذه المرة، لن أقدر على الهروب إلى بيتي المسلوب مني.

تركتني منة مسرعةً لتتحدث مع خطيبها في غرفةٍ أخرى. اقترب موعد زواجها، ولكن لا يزال الكثير من مستلزمات زواجها لم يُشترَ بعد. وأبي، كعادته لا يفهم في مثل هذه الأمور!

تذكرت أم شمس، أمسكتُ الهاتف واتصلتُ بها. تحدثت معي بتحفظٍ في البداية، ثم عادت لطبيعتها حين وجدتني لا أتحدث عن الطيور. أخبرتني أن حماتي إنعام وابنتها شذى يقيمان في البيت، وأن والد أسامة يزورهم كل يومين أو ثلاثة على الأكثر.

سألتني عن سبب تركي للبيت لهم، فتعللتُ كاذبةً بأن أبي بحاجةٍ إلى رعايتي بسبب سوء حالته الصحية. لكن في داخلي، شعرتُ باختناقٍ شديد لوجودهم في بيتي - ذلك البيت الذي بنيته مع أسامة طوبةً فوق طوبة.

تساءلتُ في نفسي: "أهذا كابوس وأنا أحلم؟" شعرت أم شمس بتغيرٍ في نبرة صوتي، فأنهت المكالمة بحجة انشغالها.

وهكذا، وجدتُ نفسي وحيدةً مرةً أخرى، أواجه واقعاً مريراً كطعم الحنظل، وأتساءل: متى ستنتهي هذه المحنة؟ ومتى سأستعيد بيتي وحياتي؟

نظرتُ إلى ديمة النائمة على السرير، وكأنها ملاكٌ صغير يحمل في جناحيه كل آمالي وأحلامي. خاطبتُها في سري:

"يا ديمة، هل أقبل العمل عند خالتك أم لا؟ أترى هذه الفرصة ستتكرر في ظل هذه الظروف القاسية؟"

قطع حبل أفكاري رنين الهاتف. كان أسامة، صوته متحفظ، كأنه يزن كل كلمة بميزان الذهب. تساءلتُ في نفسي: "لِمَ الاتصال إذن؟"

طلب مني تصوير ملف القضية. أدركتُ أنني سبيله الوحيد لذلك، فهو لا يريد أن يتواصل مع أهله من السجن بعد إحالة القضية لشعوره أنه أصبح منبوذ. ويحتاج القضية لعرضها على محامٍ كبير محبوس معه احتياطياً في نفس الغرفة.

وفجأة، دون تردد، وجدتُ نفسي أسأله: "هل ما زلتَ تحبني يا أسامة؟"

كنتُ أحتاج لبصيص أمل، لشعاع من الطاقة الإيجابية يدفعني لتقبُّل العمل عند ابن خالتي. لكن رده جاء كصفعةٍ على وجهي:

"أنا أكلمك في القضية وأنتِ تتحدثين عن ماذا؟ ألستِ مدركةً لحجم المعاناة التي أنا فيها؟"

صمتُ للحظة، وفي داخلي صراخٌ مكتوم: "وهل أنتَ تعلم بحجم المعاناة التي أنا فيها؟"

وهكذا، في تلك الليلة، اتخذتُ قراري. سأمضي قُدماً، متحملةً ثقل الحاضر، آملةً في غدٍ أفضل. فالأمومة تعني التضحية، والحب يعني الصبر، والحياة تعني المواجهة.

عندما استلقيت على فراشي، تزاحمت الأفكار في رأسي كأمواج متلاطمة في بحرٍ هائج:

طلب أسامة يلح على كثقلٍ على صدري. "من أين لي أن آتي بصورة القضية؟" تساءلت. "هل من المحكمة؟ لكن لماذا المحكمة وصورة القضية حتماً عند المحامي؟"

وفي الجانب الآخر، يلوح عرض إيناس للعمل كشعاعٍ أمل في ظلمة يأسي. الوقت يجري، وكل ثانية تحتاج إلى الماديات. قررت في نفسي بحسم: "سأعمل مع أختي، ولكن بشروطي الخاصة".

رسمت في ذهني شروطي: المرتب أسبوعياً: سبعمائة وخمسون جنيهاً. إجازتي يوم السبت، العمل يوم الجمعة أو ساعات إضافية. أو تخفيض المرتب إلى ألفين وخمسمائة جنيه شهرياً مقابل إجازتي يوم السبت.

همست لنفسي: "هكذا سأتمكن يوم السبت من الذهاب إلى أسامة والوقوف بجانبه في محنته".

(٢٩)

في غمرة الأيام الأولى من عملي مع إيناس، وجدتُ نفسي كسفينةٍ تشق أمواجاً هائجة في بحرٍ لجّي. كانت الساعات ثقيلةً كجبالٍ من الرصاص، تجثم على صدري وتكاد تسحق روحي. لكن، وبعزيمةٍ فولاذية، تعلمت فن الجلوس على ماكينة التشطيب النهائي للجلباب الحريمي. كنت كفراشةٍ تتحدى قوانين الطبيعة، تخرج من شرنقتها لتطير في سماءٍ لم تألفها من قبل.

في خضم هذا العالم الجديد، كانت نظرات ابن خالتي الخبيثة تخترقني كأسهمٍ مسمومة، بينما كانت مناوشات زوجته المستاءة من وجودي تحيط بي كأشواكٍ حادة. لكنني، وبصبرٍ أيوب، لم أعبأ بشيءٍ سوى عملي. كنت كصخرةٍ صماء في وجه عاصفةٍ هوجاء، همي الوحيد هو الظفر بالنقود التي تُدير عجلة حياتي المتعثرة.

مع اقتراب عيد الأضحى، وجدتُ نفسي أمام معضلةٍ مزدوجة: إحضار صورة القضية لأسامة، وزيارته في غياهب السجن. كان العمل بمثابة ستارٍ كثيف، يحجب عني ولو لحظياً ظلمة أفكاري: جفاء أهل أسامة الذي يلسعني كالسياط، منزلي المسلوب الذي يئن في صمت وجحود إخوتي الذي ينخر في روحي كالسوس.

عقدتُ صفقةً مع منة، أن ترعى ابنتي ديمة مقابل أن أجلب لها أحد مستلزمات زواجها. كنت أغادر إلى العمل مع أول خيوط الفجر وأعود مع غروب الشمس. كنت أؤجل لذة الطعام حتى عودتي لبيت أبي، مدخرةً كل قرشٍ كأنه قطرة ماءٍ في صحراء قاحلة.

لكن، وكأن الدهر لم يكتفِ بما ألقاه على من محن، ظهرت مشكلةٌ جديدة كشوكةٍ سامة في طريقي. فبعدما رصد عواض إيقاع حياتي اليومي، بدأ

في الترصد لي كذئبٍ جائع. كنت كغزالٍ مذعور يحاول الإفلات من فخاخ صيادٍ ماكر.

لذا، استنجدتُ بمنة. طلبتُ منها أن تقف في الشرفة كحارسٍ أمين عند خروجي، وأن تنتظر مع ديمة أمام المنزل عند عودتي. أردتها أن تكون شاهدةً على طهارتي، درعاً يقيني من نزوات هذا المجنون. كنت كعصفورٍ يائس يحاول حماية عشه من أنياب الثعابين.

مرّت الأيام كقطارٍ سريع، وإذا بي أجد بين يدي ألفاً وخمسمائة جنيه ثمرة كدّي وعرقي في أسبوعين من العمل الشاق. لكن، وكأن القدر يسخر مني، وجدتُ نفسي أمام معضلةٍ جديدة: ماذا أفعل بهذا المبلغ الضئيل في عيني الدنيا، الكبير في عيني؟

قررتُ أن أدخر هذه النقود لزيارة أسامة ولإحضار أوراق القضية كما طلب. كنت كمن يختار بين أن يقتلع قلبه بيديه أو أن يطفئ نور عينيه، ولكن هكذا هي الحياة، سلسلة من الاختيارات المؤلمة.

لم أعد أملك الوقت ولا الطاقة لتصفح الفيسبوك ومتابعة الصفحة. كان هناك ما هو أهم يشغل بالي وقلبي.

وفجأة، هبّت نسمات عيد الأضحى كعاصفةٍ مفاجئة. في آخر يوم عمل قبل يوم عرفة، وبينما كنت غارقة في إنهاك العمل، ظهرت زوجة ابن خالتي حاملةً كرتونة كبيرة مليئة بأكياس اللحم. بدأت توزعها على العاملين والعاملات في المصنع بابتسامةٍ مصطنعة.

عندما وصل دوري، مدّت يدها نحوي بكيس اللحم. تجمدتُ في مكاني كتمثالٍ من جليد. لم يكن هذا الموقف في حساباتي أبداً. كنت حريصة طوال الوقت على تجنب همسها ولمزها، لكن أن آخذ منها زكاة العيد أو صدقة؟ وضعتني الأيام في موقفٍ لا أُحسد عليه.

فكرت بسرعة البرق: إن أخذتُ كيس اللحم، ستتشعر بنشوة النصر متخيلةً أنها قللت من شأني وهدمت عرين كرامتي. لكن... ربما سيجعلني هذا في مأمن من شرها فيما بعد.

قررتُ في لحظة: سأبتسم ابتسامة امتنان وآخذ الكيس. نطقتُ بصوتٍ هادئ: "كل سنة وأنتِ طيبة".

اندهشَت من رد فعلي غير المتوقع. عقدت حاجبيها وكأنها كانت تنتظر مني عكس ذلك تماماً. زادت علامات التوتر على وجهها، لكنني لم أشغل بالي بها. هي وزوجها ابن خالتي لا يعنون لي شيئاً سوى اجتهادي في عملي.

تماسكتُ أمامها بقوةٍ فولاذية حتى خرجت من المصنع وفي الطريق سمحتُ لنفسي بالتفكير في هذا الموقف الصعب. كان على أن أختار بين كرامتي وبين الحاجة العملية. اخترتُ ما رأيته الأفضل لمصلحتي ومصلحة أسرتي على المدى الطويل.

دلفتُ إلى البيت كعصفورٍ مكسور الجناح، يلتمس ملاذاً من عواصف الحياة القاسية. وإذ بعيناي تقعان على مشهدٍ مألوف: أختي وسام وزوجها يجالسان والدي في ردهة المنزل. تسللتُ بخفةٍ إلى حجرتي بعد أن أودعتُ اللحم في يد منة لتضعه في الثلاجة، كأنما أودع آخر أمل لي في الحياة.

هويتُ على فراشي، ضاممةً ركبتيَّ إلى صدري كطفلةٍ تائهة في غابةٍ موحشة. وما هي إلا لحظات حتى انهمرت الدموع من عينيَّ كسيلٍ جارف، غارقةً في بحرٍ من الحزن والألم.

وفجأةً، اقتحمت وسام خلوتي، لتشهد وجهي المغسول بماء العين. للحظةٍ خاطفة، ظننتُ أن قلبها قد رقَّ أخيراً، وأن شعاعاً من الرحمة قد تسلل إلى

قلبها الحجري. لكن كلماتها جاءت كسهامٍ مسمومة تخترق صدري بلا رحمة:

"لِمَ تغلقين على نفسكِ باب الغرفة عندما ترين زوجي، ولا تجلسين معنا؟ ما الذي حدث بينكما حتى يكون هذا قراركِ؟ ولِمَ تذرفين الدمع الآن بعد أن رأيتِه؟"

نظرتُ إليها بذهولٍ، وكأن الدموع قد تجمدت في مآقيَّ. شعرتُ وكأن الأرض قد انشقت تحت قدميَّ لأهوي إلى أعماق سحيقة. صرختُ بغضبٍ عارم:

"ماذا تقولين؟ أأنتِ قد فقدتِ عقلكِ تماماً ولم تعي ما تتفوهين به؟"

ردَّت بحدةٍ وثقةٍ مستفزة: "مَن المجنون، أأنا أم أنتما الاثنان؟ ثمة أمرٌ مريب في تصرفه تجاهكِ، وكذلك في سلوككِ نحوه، بما في ذلك تجاهلٌ متعمد".

أجبتها بمرارةٍ تفوق العلقم: "وما الغريب في أن أعتزل في غرفتي حين يكون حاضراً؟ أعلم كم من المشاحنات نشبت بينكم بسببي، واتهام إيناس ونهى لي بأنني، إن ظهرتُ في أي مكانٍ يتواجد فيه هو وأنتِ أكون بذلك قد خربتُ بيتكِ لأنه يفضل حياتي وأسلوبي على نمط عيشكِ"!

سألتني بإصرارٍ: "وإن كان في كلامكِ شيءٌ من الصحة، فلِمَ تبكين الآن بعد أن رأيتِه؟"

صرختُ بيأسٍ يمزق نياط القلب: "أيتعين عليَّ أن أبرر دموعي أيضاً؟ حسناً، أبكي لأن زوجة ابن خالتكِ أعطتني اليوم كيساً فيه لحمٌ صدقة".

سألتني باستخفافٍ: "وهل خصتكِ بهذا العطاء دون سواكِ؟"

أجبتُ: "لقد أعطت جميع مَن في المصنع".

ردت ببرودٍ يثلج الصدر: "إذاً فالأمر اعتيادي، فلا تسيئي الظن بها".

أدركتُ في تلك اللحظة أنني، مهما حاولتُ، سأظل المخطئة في نظرهم دائماً. رحلت وسام مع زوجها، تاركةً في قلبي جرحاً غائراً لم يداوِه سوى سُبات عميق.

أقبل يوم عرفة المبارك. صُمت رغم عدم تسحُّري، وقضيتُ نهاري أتلو آيات الذكر الحكيم، وأرفع أكفَّ الضراعة إلى السماء، داعيةً لأسامة أن يفكَّ الله كربه ويفرج همه. آثرتُه على نفسي في الدعاء لعلمي اليقين أن تفريج كربه هو مفتاح خلاصي من جميع كروبي.

وكالعادة جاءت نهى وقبل أن تذهب أشعلت فتيل الفتنة، بمحاولتها أن تجعل ديمة تفهم أن والدها مسجون، عاد الصداع، ولكن بشكلٍ أقوى، يزداد في كل مرة عن سابقتها. لا بد أن أذهب إلى الطبيب كما طلبت الدكتورة التي قابلتها في السجن بعد الزيارة.

(٣٠)

جاء عيد الأضحى المبارك، وكأنه زائرٌ لم يجد في دارنا ترحاباً يليق بمقامه. لم نخرج لصلاة العيد، خرج الجميع ما عدا أنا وأبى وديمة.

جاء عمي شاهين إلى منزلنا كنسمةٍ منعشة في يومٍ قائظ، حاملاً معه ذكريات الماضي وأملاً في المستقبل. لم أره منذ أكثر من خمس سنوات، وها هو الآن يقف أمامنا، شامخاً بعلمه وتواضعه.

جاء ليعايد أبي، وفي يده ألف جنيه، يقدمها بامتنانٍ عميق. كان المشهد أشبه بلوحةٍ تجسد الوفاء والعرفان؛ فعمي يدين بنجاحه وعلمه لوالدي الذي تحمل عبء تعليمه حتى أصبح أستاذاً دكتوراً في الاقتصاد بإحدى الجامعات المرموقة.

أخبرنا أنه كان في زيارةٍ لقبر جدي وجدتي، الذي لا يبعد سوى خمسمائة متر عن منزلنا. وكأن هذه المسافة القصيرة تختزل سنوات من الذكريات والحنين.

لم ينسَ عمي شاهين أن يمد يد العون لنا أيضاً. أعطاني خمسمائة جنيه وقدم لديمة مائة جنيه، مع ابتسامةٍ حانية تشع من عينيه.

ثم بدأ يتحدث عن قضية أسامة، وكأنه يفتح نافذةً من الأمل في جدارٍ صلب من اليأس. قال إنه قرأ عن القضية، وأن هناك سوء فهم في الموضوع. شرح لأبي بتفصيلٍ دقيق أن تهمة إهدار المال العام لا تحمل أي شبهة لحصول أسامة على مليمٍ واحد.

بصوتٍ هادئ ومطمئن، أوضح أن الأمر لا يعدو كونه استخداماً للوظيفة أدى إلى خسارة الدولة أموال كانت ستحصل عليها وتضاف إلى خزائنها.

وأكد أن نهاية مثل هذه القضايا غالباً ما تكون البراءة لأنها في الأغلب تكون أخطاءً إدارية يمكن تصحيحها لو تمت المراجعة بضميرٍ وتركيز.

شعرت وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن صدري. كلمات عمي شاهين كانت كبلسمٍ يداوي جروح قلبي المثخن بالهموم. لأول مرة منذ فترة طويلة، بدأت أرى بصيص أمل في نهاية هذا النفق المظلم.

وقبل أن يغادر، أخبرنا أنه على وشك السفر إلى محافظة أسيوط، مقر سكنه. ودعناه بقلوبٍ مليئة بالامتنان والأمل. وبينما كنت أراقبه وهو يبتعد، شعرت بقوةٍ جديدة تسري في عروقي.

عاد إخوتي بوجوهٍ عابسة، كل منهم يلقي باللوم على الآخر. التزمتُ الصمت، مستمعةً دون تعليق، حذراً من أن يُساء فهم كلامي. غادروا جميعاً، تاركين وراءهم أجواءً مشحونة بالتوتر.

بقيت منة، وكأنها تنتظر مني أن أسألها عما حدث. لكنني آثرت الصمت، عالمةً أنها ستأتي لتحكي من تلقاء نفسها. وبالفعل، حوالي الساعة العاشرة، حاولت الاتصال بخطيبها لكن هاتفه كان مغلقاً.

جلست بجواري وأنا أتأمل صور أسامة على هاتفي المحمول. ابتسمت منة وسألتني: "ألهذا الحد تحبينه؟"

أجبتها بصدق: "ما بيني وبين أسامة حالة عشق خاصة".

تنهدت منة وقالت: "أنا أيضاً أحب خطيبي، وأتمنى أن يحبني بنفس قدر الحب والعاطفة".

شعرت بنبرة الحزن في صوتها، فنظرت إليها بعطف. أدركت أن منة رغم صغر سنها، تبحث عن الحب الحقيقي والعميق الذي تراه بيني وبين أسامة.

قلت لها برفق: "الحب الحقيقي يا منة، ليس مجرد كلمات تُقال أو مشاعر عابرة. إنه التزام وتضحية وصبر. ما تريْنه بيني وبين أسامة هو نتيجة سنوات من التفاهم والدعم المتبادل، حتى في أحلك الظروف".

صمتت منة للحظات، ثم سألتني: "كيف عرفتِ أن أسامة هو الشخص المناسب؟"

ابتسمت وأجبت: "لم أعرف ذلك فجأة. بل اكتشفته يوماً بعد يوم. وجدت في أسامة شخصاً يحترمني، يدعمني، ويكون بجانبي في السراء والضراء. الحب الحقيقي يا منة، ينمو ويزدهر مع الوقت والتجارب المشتركة".

بدا على وجه منة الاهتمام، فأكملت: "لا تتسرعي في الحكم على مشاعرك أو مشاعر خطيبك. امنحي علاقتكما الوقت لتنمو وتتطور. وتذكري دائماً أن الحب الحقيقي يبنى على أساس من الاحترام والتفاهم المتبادل".

أومأت منة برأسها، وكأنها تستوعب كلماتي. ثم قالت: "شكراً لكِ. ‘‘أرجو أن يحالفني الحظ يوماً لأعيش هذا الحب الذي تتحدثين عنه.’’

ربتُّ على كتفها بحنان وقلت: "سيصلك يا عزيزتي، عندما يحين الوقت المناسب. المهم أن تكوني صادقة مع نفسك ومع من تحبين".

انتهى حديثنا، وشعرت أن منة قد وجدت بعض الإجابات التي كانت تبحث عنها. وفي نفس الوقت، أدركت كم أنا محظوظة بحبي لأسامة وحبه لي. رغم كل الصعاب التي نمر بها، فإن حبنا يظل منارة تضيء لنا الطريق في أحلك الظروف.

تنهدت بعدها منة بحسرةٍ، ثم أطلقت العنان للسانها، فانسابت الكلمات كشلالٍ من المرارة: "والله يا أختاه، لقد كان يومًا عصيبًا، مُثقلاً بالملل. وبدئت تسرد ما حدث.

في صباح اليوم الثالث من العيد، هبّت رياح المفاجآت، فإذا بإخوتي جميعًا يتوافدون على منزلنا كأسراب الطيور المهاجرة. بدا جليًا أن هناك اتفاقًا مسبقًا بينهم، كأنهم يحيكون خيوط مؤامرة صغيرة. وفي غمرة هذا التجمع غير المتوقع، ظهر خطيب أختي منة، ليزيد المشهد تعقيدًا.

اشتعلت منة غضبًا، كشعلة نار في ليل بارد، لجهلها المسبق بقدومهم. كانت تدرك، بحاسة الأنثى المرهفة، أن خطيبها يستشيط غيظًا من رؤيتهم، كمن يرى شبحًا في وضح النهار.

تسلق الجميع درجات السلم نحو سطح المنزل، كأنهم يرتقون جبلاً شاهقًا.

انشغلت في المطبخ وفي تلك الأثناء، انبرت إيناس لإعداد السلطة الخضراء. وبينما كانت أناملها تداعب الخضروات، انفتح لسانها بالشكوى من يوم النزهة الأخير:

"يا أختاه،" همست لي بصوت خافت كحفيف أوراق الشجر، "لقد كان يومًا عصيبًا. الجميع تسبب في إفساده، وكنت أنا الضحية الوحيدة في هذه المسرحية الهزلية".

ثم استطردت، وكأنها تفضي بسر دفين: "أزواج أخواتنا، بمن فيهم زوجي، كانوا يتغازلون بمياعة ودلال منة. وإنها الأنثى الوحيدة بيننا التي لا تزال محتفظة برشاقتها، بينما تحولنا نحن إلى أكياس من القطن المنفوش. هذا ما أشعل نار الحقد في قلوب الجميع، خاصة عندما رأوها تضع يدها في يد خطيبها بكل ثقة".

عند تلك اللحظة، انقشعت الغمامة عن عيني، وأدركت حقيقة الأمر كما تنجلي الشمس بعد عاصفة هوجاء. المشكلة لم تكن فيّ قط، بل كانت متجذرة في نفوس الآخرين هذا الإدراك كان بمثابة شعاع نور اخترق ظلمات شكوكي، فازدادت ثقتي بنفسي.

صعدتُ مع إيناس بعد إلحاحها، جلستُ بجوار أبي، ذلك الجبل الشامخ الذي يحمينا بظله الوارف. تناول الجميع اللحم المشوي، وكأنهم يلتهمون شهد الحياة. تبادلت الحديث مع الجميع بثقة وشموخ، كنسر يحلق في الأعالي، لا تهزه الرياح. رأيت وسام تنهض، تطلب من زوجها الرحيل، وعيناها تشعان بالشك والريبة نحوي. في الماضي كنت لأختفي في غرفتي، هاربةً من المواجهة. لكنني اليوم امرأة أخرى، قوية، واثقة.

قررت أن أبقى في مكاني، أستمتع بصحبة أبي وبقية العائلة. لم أعد تلك المرأة التي تهرب من المواجهة أو تسمح للآخرين بإيذائها. استمررت في المشاركة في الحديث والضحك مع الجميع.

ذهب الجميع، ومنة يكسو ملامحها الغضب، لأن خطيبها ذهب وهو مستاء من وجودهم، حملتُ ديمة النائمة على كتفي، كأنني أحمل كنزًا ثمينًا. وضعتها برفق على السرير. جلست أداعب شعرها بأناملي وكأنني أعزف لحنًا سحريًا على أوتار الحياة.

في رابع أيام عيد الأضحى المبارك، استمرت تكبيرات العيد تتردد في الأرجاء حتى صلاة العصر، كأنها ترانيم سماوية تملأ الأفق. وما إن خفتت أصداؤها، حتى طرق باب منزلنا ضيوف غير متوقعين، خالتي وابنها عاطف.

دخلا بيتنا كأنهما يدخلان مسرحًا قد أُعدت خشبته مسبقًا لعرض مسرحية معدة بإحكام. جلس الاثنان مع والدي، وبدأت خالتي تنبش في ذاكرة الماضي، مسترجعة ذكريات أيقظت في قلب أبي نار الحنين إلى أمي المتوفاة. كانت كلماتها كأمواج البحر، تضرب شاطئ ذكريات أبي بلا هوادة.

ثم انتقلت خالتي، بمهارة ممثلة محترفة، إلى الفصل الثاني من مسرحيتها. دخلتْ معي في جدال، بدا جليًا أنها قد أعدت له مسبقًا كما يُعد المحامي لمرافعته. بدأت تتحدث عن وضعي كزوجة لمسجون احتياطي: "يا ابنتي،" قالت بنبرة تمزج بين الشفقة المصطنعة والحزم "زوجة المسجون الاحتياطي ليس لها أي معاش من الدولة. إنه ليس مسجونًا محكومًا عليه. من في مكانك لابد أن تفكر في الطلاق وتبحث عن ضمان لمستقبلها".

استمرت في حديثها كنهر جارف: "أسامة محبوس منذ سنة تقريبًا أو أقل قليلاً. لا داعي للمكابرة واللهث وراء سراب من الأوهام يرمي بك على شاطئ من حطام الأحلام".

كانت كلماتها كسهام مسمومة، تحاول اختراق درع إيماني وثباتي. لكنني وقفت صامدة، كصخرة في وجه أمواج عاتية.

في هذه الأثناء، كان عاطف يلعب دوره في هذه المسرحية بإتقان تظاهر بالانشغال بمداعبة ديمة، مصطنعًا الحب والحنان تجاهها أعطاها مائة جنيه كعيدية، لكن ديمة، بفطرتها النقية، رفضت أخذها وكأنها تستشعر نواياه الخفية ونوايا أمه غير الطيبة.

غادر الاثنان، تاركين المائة جنيه على كنبة الصالون كأنها طُعم في فخ. أخذتُ المال وجعلت ديمة تضعها في حصالتها، ليرتفع رصيدها إلى مائة وخمسة وثلاثين جنيهًا.

تركتني خالتي وبالي مشغول، ليس بمحاولتها زعزعة إيماني بقراري في الاستمرار مع أسامة، بل بنظرة الدولة للمسجون، خاصة المسجون احتياطيًا. كان هذا هو السؤال الذي يدق أجراس القلق في عقلي.

لاحقًا، طلبت مني منة أن تأخذ ديمة معها وخطيبها لدخول السينما. ترددت في البداية، قائلة: "لا أريد أن تتسبب ديمة في مضايقة خطيبك وإفساد جو المرح بينكم".

لكن منة فاجأتني بردها: "يا ليت خطيبي يحبني مثلما يحب ديمة"!

كلماتها أجبرتني على العدول عن قراري. ارتدت ديمة ملابس عيد الفطر مع تعديلات بسيطة تناسب الطقس، وكنت أراها فيها مميزة ومشرقة كنجمة صغيرة.

قبل خروجها، أعطيتها عشرين جنيهًا، قائلة: "خذي هذا يا حبيبتي، في حال أردتِ شيئًا. لا أريدك أن تكوني عبئًا ماديًا على خطيب منة".

شاهدت ديمة وهي تغادر مع منة وخطيبها، وفي قلبي دعاء صامت أن تحفظها العناية الإلهية وتعيدها إليّ سالمة غانمة.

تنهُّدت بعمقٍ، وقد ثقُلت على صدري هموم الدنيا وأحزانها. جلستُ مع والدي، ذلك الحكيم الذي طالما كان ملاذي في زمن الشدائد. أردتُ أن أستنير برأيه حول قضيةٍ طالما أرّقتني: موقف الدولة من أسر المسجونين. فإذا به يفاجئني بردٍّ لم أتوقعه:

"يا بُنيّتي، إنكِ تثيرين مشكلةً من نوعٍ فريد"!

انعقد حاجباي دهشةً، وقبل أن أنطق بكلمة، انبرى والدي في الشرح وكأنه يفتح أمامي كتاباً من كتب الحكمة:

"المسجون، الذي من المفترض أن تعاقبه الدولة، يأكل ويشرب في السجن على نفقتها. وحتى لو كان الطعام والشراب دون المستوى المأمول، فإنه ينام دون أن يدفع فاتورة كهرباء أو ماء، ولا يشعر بوطأة الغلاء الذي يثقل

كاهل المواطنين. فمعاناته هنا نسبية، تنحصر في حبسه بين أربعة جدران، وفي كبح جماح نفسه".

توقف والدي لحظة، كأنما يتأمل في عمق المأساة، ثم أكمل:

"لكن الدولة، يا بُنيّتي، لا يشغلها العقاب الذي قضى به القدر على أسرة المسجون. تلك الأسرة التي تُعاقَب على ذنبٍ لم تقترفه يداها. بل إنها في الحقيقة، تُعاقَب أشد من المسجون نفسه".

وهنا ارتسمت على وجهي جميع علامات الاستفهام، فأردف والدي موضحاً: "الأسرة هي من تتحمل نفقات نفسها ونفقاته، وتدفع أتعاب المحامي، وتواجه نظرات المجتمع القاسية. وهذا غيض من فيض يا بُنيّتي".

صمتُ لحظة أتأمل كلماته، ثم سألته: "ألا ترى الدولة إلى هذه الأسرة على أنها ضحية كارثة؟ أليست مصيبتها كمصيبة من سقط بيته؟"

ابتسم والدي ابتسامة حزينة وقال: "الدولة تعطي لمن سقط بيته شقة بديلة أو تعويضات مادية. أما أسرة المسجون، فلا تحظى بمثل هذه الرعاية".

ثم أضاف بنبرة تنم عن قلق عميق: "وهناك ما هو أخطر يا بُنيّتي. هل هناك رؤية مستقبلية لسلوك أسرة المسجون؟ فمن السهل أن يتحول أبناء المسجون جميعهم إلى مجرمين في المستقبل".

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي وأنا أتخيل هذا المصير المظلم. فسألت: "وماذا عن زوجة المسجون؟"

تنهد والدي وقال: "ما هو السلوك الذي ستتبعه زوجة المسجون في مواجهة ضغوط الحياة؟ أسهل شيء هو طلب الطلاق والتخلي عن أولادها، والتفكير في الاستمتاع بحياتها وشبابها".

ثم أضاف بصوت خافت، كأنه يخشى أن يسمعه أحد: "وهناك أمر خطير جداً يا بُنيّتي. لو أنها تحملت كل هذه الأعباء، ماذا سيكون رد فعل زوجها بعد خروجه من السجن، إن طالت أو قصرت مدة سجنه؟ هل لديه طاقة ليعوضها عن تضحياتها؟ هل سيكون على نفس المستوى الذي تتوقعه من مردود نفسي ومادي واجتماعي؟"

انتهى والدي من حديثه، تاركاً في نفسي أسئلة أكثر مما قدم من إجابات. وجدتُ نفسي أتأمل في عمق هذه المعضلة الاجتماعية، وفي حجم المسؤولية التي تقع على عاتق المجتمع والدولة تجاه هؤلاء الضحايا الصامتين "أسر المسجونين".

فقال لي والدي موضحاً: "لا أقصدكِ أنتِ بالذات يا بُنيّتي، بل هي رؤية عامة لنماذج مختلفة من زوجات المسجونين وأمهاتهم وأخواتهم وأبنائهم. أودُ أن يكون الاهتمام بهم أكبر، فهم نواة الشرارة التي قد تندلع منها حرائق مروعة: أشخاص يعانون من أمراض نفسية خطيرة قد تدفعهم إلى القتل والإرهاب وأوجه كثيرة من الأعمال الإجرامية. كان في استطاعة الدولة حل هذه المشاكل وقتلها في مهدها".

ضحكتُ وقلت له متسائلة: "أتريد أن تصرف الدولة على عائلات المساجين؟ بذلك كل شخص لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية بيته سيفتعل مشكلة من أجل أن يسجن، وتتحمل الدولة أعباء ومسؤوليات بيته"!

فأجابني بحكمة: "لم أقصد ذلك مطلقاً يا بُنيّتي. كل ما أريد قوله هو أن تضع الدولة حلولاً لتلك المشكلة. ومن المؤكد أن هذا الموضوع لو طُرح على طاولة الاجتماعات بشكل جاد، ستكون هناك حلول مبشرة لأزمة طال انتظار حلها، وستؤتي ثمارها بعد فترة قصيرة".

نهضتُ ووضعتُ قبلة على جبين أبي، وسألته مازحة: "أين كان كل هذا العمق والحكمة يا عبقري؟"

فضحك قائلاً: "لا تنسي أنني خريج معهد لاسلكي في الستينات وقرأت كثيراً في علم النفس والمنطق قبل أن أتزوج والدتك".

ابتسمتُ وسألته: "ولماذا لم تُظهر هذه المواهب أمامنا من قبل؟ إخوتي لا يفهمون مثل هذه اللغة في الحوار".

فأجاب بهدوء: "إنني بطبعي أميل إلى الوحدة والتأمل".

فقلت له مازحة: "ومشاهدة كرة القدم"!

ضحك وقال: "لا بد أن يكون عندك شيء يخفف عنك ضغوط الحياة اليومية. ومشاهدة كرة القدم بالنسبة لي كذلك. والآن، أعدي لي كوب شاي حتى أشاهد مباراة مهمة ستبدأ بعد قليل".

ابتسمتُ له وقلت: "من عيوني يا عم حمدي يا فيلسوف الفلسفة"!

دخلتُ إلى المطبخ وأنا أفكر في كلام أبي العميق، وكذلك في جملة أو جملتين من كلام خالتي. أحضرت لأبي كوب الشاي ودخلت الغرفة وفتحت الإنترنت على صفحة زوجة رجل مسجون. اندهشت عندما رأيت أنه قد أثير موضوع: من هي الأسوأ حالاً، زوجة مسجون أم المطلقة أم الأرملة؟

تباينت ردود الأفعال، فقررت أن أطرح سؤالاً جديداً: "هل أنت مع أم ضد أن تهتم الدولة بشكل أكبر بشؤون أسرة المسجون لمنع انتشار الجريمة من الأعماق وتجنب مكافحتها بعد ذلك، مما يكبد الدولة مبالغ كبيرة للتصدي للجريمة؟"

وضعت السؤال وخرجت من الصفحة، وحضنت ركبتي وجلست أفكر في حال الناس بعد حل مشاكل المسجونين.

(٣١)

انقضى العيد، وعدتُ إلى عملي مرة أخرى. توجهتُ إلى مكتب المحامي لطلب نسخة من ملف القضية، وانتظرتُ حتى حان دوري. دخلتُ إلى مكتب المحامي، الذي بدا وجهه عابساً. ما إن بدأتُ حديثي قائلة:

"أودُّ الحصول على نسخة من ملف القضية، وأتساءل عن آخر التطورات فيها".

حتى نظر إليَّ نظرةً تنمُّ عن استغراب، وقال بنبرة حادة:

"ما كل هذه الأسئلة؟ ألا تعلمين أن والد ووالدة أسامة سحبوا ملف القضية مني؟"

صُعقتُ بهذه المعلومة، وسألته متعجبة: "ولِمَ حدث ذلك؟"

فأجاب بفتور: "الإجابة عندهم هم".

ثم أضاف موضحاً: "لقد أخذوا مني مبلغ خمسة وستين ألف جنيه وكل ما تحصلتُ عليه خمسة عشر ألف جنيهاً أتعاب حضوري أو محامٍ من مكتبي لجلسات التجديد".

شعرتُ بالحيرة والغضب، فقلتُ له: "أنا لا أفهم أي شيء. المفترض أنني أنا من اتفقت معك على القضية. كان لابد أن ترجع إليَّ قبل فسخ الاتفاق"!

نظر إليَّ مندهشاً وقال: "فهمتُ أنكِ وهم في النهاية أصحاب مصلحة واحدة".

شرحتُ له الوضع بشكل مختصر، فأدرك أن هناك خطأً في هذه النقطة. طلب من معاونه نسخة من ملف القضية الذي لم يأخذه أهل أسامة.

خطر ببالي سؤال، فسألته: "هل من الممكن في مثل هذه القضايا أن يتم التحفظ على منزل أسامة لو تمت إدانته؟"

ضحك وقال: "من أين لكِ بهذا الخيال الجامح؟ زوجكِ ليس عليه شبهة الحصول على أموال بطريقة غير شرعية. إنه متهم بأنه تسبب في ضياع أموال الدولة بشكل غير مباشر".

فهمتُ قصده، ولكني سألته مرة أخرى: "ولماذا تم إثارة التحفظ على أمواله وممتلكاته في بداية الأمر؟"

فأجاب: "هذا إجراء وقائي لأنه تم فرض توجيه تهم أخرى لأسامة يستوجب على إثرها التحفظ على الأموال. ولكن هذا لم يحدث في أمر إحالة القضية، لذلك التحفظ على ممتلكات أسامة أصبح أمراً مستبعداً نهائياً".

شكرته على المعلومات، وأنا أشعر بمزيج من الارتياح والقلق. فبينما كان من المطمئن أن منزلنا ليس في خطر، إلا أن تصرف أهل أسامة المفاجئ أثار في نفسي الكثير من التساؤلات والمخاوف. خرجتُ من مكتب المحامي وأنا أفكر في الخطوة التالية التي يجب عليَّ اتخاذها لحماية مصالح أسرتي وضمان عدالة محاكمة زوجي.

وأنا على وشك الخروج، استوقفني المحامي قائلاً: "مدام غادة، لحظة واحدة".

نظرت إليه بدهشة، فقال لي بنبرة جادة: "أنتِ واضح أنك علاقتك بالله رائعة. هذه مذكرة بثغرات قضية زوجك. ليس معنى أني تركت القضية أن أترك بريئاً يأخذ عقاباً على جريمة لم تقترفها يداه".

ثم أضاف موضحاً: "بهذه المذكرة، مطلوب الحصول على بعض المستندات والقوانين من الجهات المعنية. ولابد أن تحصلي على تلك المستندات. وأهم هذه المستندات هو هذا المستند، والذي هو عبارة عن حكم محكمة يدل على أن الأرض التي وقّع زوجك على أنها غير مملوكة للدولة هي بالفعل كذلك، وليس كما اتُّهم أنها ملك للدولة".

أوضح لي: "لأن حكم المحكمة صدر لملكية رجل متوفى منذ حوالي ثلاثة عشر عاماً للأرض. والمتوفى له ورثة لم تنفذ الحكم طوال هذه المدة، ولكن هذا لا يمنع أن الأرض من حقهم بحكم المحكمة".

سألته متعجبة: "كيف لزوجي أن يكون وقّع وهو لا يعلم عن هذا الحكم؟ ولو كان يعلم، لماذا لم يذكر شيئاً عنه في النيابة؟"

أجابني: "أسامة قال لي إنه كانت هناك صورة من حكم المحكمة بالأرشيف بالوزارة واختفت. وأنه نسي الموضوع ولم يتذكر ملابساته لمرور فترة على توقيعه. ولا يعلم سبب اختفاء الحكم من الملف. فمن الممكن أن يكون بفعل فاعل أو إهمال من موظف. كل شيء وارد في مثل هذه الأمور".

ثم طمأنني قائلاً: "لا تخافي، فإن براءة زوجك مضمونة بشكل مؤكد".

شعرت بموجة من الأمل تسري في أوصالي. غصت في نهر ذاتي العذب: "سبحان الله! كيف تأتي الفرج من حيث لا نحتسب؟"

قلت للمحامي بصوت مليء بالامتنان: "جزاك الله خيراً يا أستاذ. ولكن كيف يمكنني الحصول على هذه المستندات؟"

فأجابني: "سأعطيك قائمة بالجهات التي يجب مراجعتها. عليكِ أن تكوني صبورة ومثابرة، فالبيروقراطية قد تكون متعبة. ولكن تذكري دائماً أن هذه المستندات قد تكون المفتاح لحرية زوجك".

أخذت القائمة منه، وقبل أن أغادر، سألته: "هل تعتقد أن هناك من يحاول تعقيد القضية عمداً؟"

نظر إليّ بعينين ثاقبتين وقال: "في مثل هذه القضايا، يجب أن نكون حذرين ويقظين. لا تثقي بأحد ثقة عمياء، ولكن في الوقت نفسه، لا تدعي الشك يسيطر عليكِ. ركزي على جمع الأدلة وتقديمها بالشكل الصحيح".

غادرت مكتب المحامي وأنا أشعر بمزيج من الأمل والقلق. كان أمامي مهمة صعبة، ولكنها قد تكون السبيل لإثبات براءة زوجي. قررت أن أبدأ فوراً في السعي للحصول على المستندات المطلوبة، مستعينة بالله أولاً، ثم بكل من يمكنه مساعدتي في هذه المهمة الشاقة.

خرجتُ من مكتب المحامي وقلبي يخفق بمزيج من السعادة والقلق. سعادة لتأكيد المحامي براءة أسامة، وقلق من المسؤولية الملقاة على عاتقي للحصول على المستندات والقوانين الدالة على براءته. شعرت بمرارة الغدر من موقف أهل أسامة، وكيف أخذوا بيتي مني بهذه الطريقة الخسيسة.

حاولتُ الاتصال بالأستاذ كمال، زوج خالة أسامة، لكن هاتفه كان مغلقاً. عدتُ إلى المنزل وأنا أنتظر بفارغ الصبر يوم السبت لزيارة أسامة.

في اليوم التالي، بعد صلاة الجمعة، اتصلتُ بالأستاذ كمال وأخبرته بما حدث. نزل كلامي عليه كالصاعقة، وقال بنبرة حادة: "ولماذا ذهبتِ إلى المحامي دون أن تخبري أحداً؟"

اندهشتُ من لهجته. هل كان يعلم كل هذا؟ واضح أنها خطة متفق عليها من الجميع. قلتُ له بحزم: "أليس من حقي معرفة مصير زوجي أنا الأخرى؟ وكذلك الاطمئنان على مضي المحامي في الاتجاه الصحيح في القضية؟"

سكت للحظة ثم قال: "إنني لا أعلم شيئاً سوى أن إنعام طلبت مني، بعد أن أخذ المبلغ الذي استلفته منه، أن أتولى أنا القضية مرة أخرى".

سألته: "وماذا ترى أنت الآن في موقف أسامة في القضية؟"

أجاب: "الموقف معقد جداً. فالقضية قضية رأي عام ويجب ألا نتهاون بها. وفترة التجديد لأسامة الطويلة جداً خير دليل على ذلك".

قلتُ له بغضب: "ولماذا، وأنت تعلم أن المنزل ليس له علاقة بالقضية قمتَ بتضليلي وجعلتني أترك منزلي؟"

فقال: "إنها فترة مؤقتة حتى موعد خروج أسامة".

صرختُ: "ما هذا التناقض؟ كيف وأنت تقول إنها قضية معقدة؟"

فقال إنه الآن مشغول وأن الموضوع يحتاج شرحاً طويلاً، وأنهى المكالمة معي.

وقفتُ مذهولة، أحاول استيعاب ما حدث للتو. كل شيء بدا وكأنه مؤامرة ضدي وضد أسامة. هل لأذني أن تصدق ما سمعت؟ أيعقل أن تفعل أم هذا بفلذة كبدها، حتى لو كان من باب العناد والجهل؟ وإذ بي أشعر في طريقي إليها برعشةٍ تسري في أوصالي، وخوفٍ يتسلل إلى قلبي كالثعبان. بدأ التنميل يزحف في جسدي بشكلٍ مقلق، متجاوزًا الحد الذي يمكنني تحمله. وهنا عادت إلى ذاكرتي كلمات الدكتورة وطلبها مني زيارة طبيب مختص.

وصلت إلى بيتي، محاولةً فتح بابه، لكن يبدو أن يدًا خفية قد غيرت قفل البوابة. قرعت الجرس كأي غريب، فإذا بشذى، تفتح لي. وقفت كالصنم، سادةً على طريق الدخول، ثم نادت على إنعام التي أقبلت إلى البوابة وهي من الواضح أنها على علمٍ تام بقدومي.

سألتني إنعام بصوتٍ يقطر سخرية: "ماذا تريدين؟ "فأجبت بصوتٍ يحاول أن يكون واثقًا: "أريد استعادة منزلي".

ضحكت بصوتٍ مسموع، غير مكترثةٍ لحال ابنها السجين، وقالت بتحدٍّ وثقة: "أي بيتٍ تقصدين؟ هذا بيت أسامة، وأنا من أنجبته، وفؤاد أبوه بالداخل. ألم تعلمي أن الابن وماله من حق الأب؟"

فقلت لها محتجة: "لكن أسامة على قيد الحياة، ولي حقٌ في هذا المنزل"!

فردت على بتحدٍ سافر: "لديكِ بدل الجدار أربعةٌ، اخبطي رأسك في أفضلهم لكِ"!

صرخت في وجهها" :ولكن هذا ظلم! لقد علمت أنك أخذتِ النقود من المحامي"!

فقالت بتجاوز: "إنكِ حقًا يا غادة شخصٌ وقح! أتريدين أن تحصلي على كل شيء؟ أفلا يكفيكِ ما حصلتِ عليه من أموال بالاتفاق مع أسامة؟ أتطمعين الآن في هذا البيت هو الآخر؟ يكفي ما اختلستِه وأخفيتِه. حلالٌ عليكِ ابن خالتكِ وأمواله هو الآخر".

ثم أخرجت لي صورة إيصال أمانة وأكملت: "هل تتذكرين هذا الإيصال الذي وقعتِ عليه للأستاذ كمال؟"

عدت بالذاكرة، وتذكرت أنه إيصال الأمانة الذي وقعت عليه بالفعل عندما استلفت من الأستاذ كمال أتعاب المحامي. ولكن من الذي أتى به إلى يد إنعام؟ إنها بالفعل خطة محكمة ضدي وليست صدفًا.

أكملت إنعام بنبرة تهديد: "في حالة محاولتكِ التفكير في هذا المنزل سيتم حبسكِ بعد وضع مبلغ مليون جنيه في الإيصال باسم أحد أزواج بناتي حتى

يكون الموقف سليمًا. ويتعين عليكِ يا غادة إحضار ديمة لنا، إننا أولى منكِ بتربيتها بعد أن تتزوجين ابن خالتكِ وتصبحين ضرةً لامرأةٍ أخرى".

وقالت وهي تغلق عينًا وتفتح الأخرى: "ألم يكن بمقدوركِ يا غادة الانتظار بدون رجل حتى خروج أسامة؟ يا لكِ من خسيسة"!

وأغلقت البوابة في وجهي وأنا متجمدة، لم أنطق ببنت شفة. نظرت حولي، وتوجهت عيناي إلى شرفة أم شمس، وأحسست أن هناك من ينظر خلف الستائر يتابع الموقف. فلم أجد إلا أن أنسحب قبل أن يعلم أحدٌ بمجيئي إلى البيت، تاركةً خلفي أحلامًا تتهاوى وآمالاً تتبخر كقطرات الندى تحت وهج شمس الصيف.

في طريق عودتي إلى بيت أبي، داهمني ذلك الدوار اللعين مرة أخرى فهويت إلى جانب منزل، محاطةً بأنظار المارة الفضولية. تحاملت على نفسي، وبخطى متثاقلة، عدت إلى منزل أبى. تسللت إلى غرفتي دون أن أنبس ببنت شفة، فوالدي كان مستغرقًا في مشاهدة التلفاز، ومنة في الغرفة الأخرى تهمس لخطيبها عبر الهاتف، وديمة تجلس معها في سكون.

ألقيت برأسي تحت الوسادة، وانخرطت كعادتي في بكاء مرير. تساءلت في نفسي: "مَن ذا الذي أخبر إنعام بعملي في مصنع ابن خالتي؟" رحت أتخيل حياتي لو ابتعدت عني ديمة ولو للحظة واحدة إنه الموت المحقق لي، لا محالة.

بعد برهة، دلفت ديمة إلى الغرفة وسألتني بصوت رقيق: "لِمَ لم تدخلي وتحتضنيني كعادتك كل يوم؟ "فأجبتها بصوت واهن: "أعتذر يا حبيبتي، فأنا متعبة اليوم".

اقتربت مني وأخذت تدلك كف يدي برفق، قائلة: "ألف سلامة عليكِ يا غادة".

ابتسمت ابتسامة لم أتوقعها في هذه اللحظة العصيبة، وقلت بمرح مصطنع: "غادة؟ هكذا من غير 'ماما'؟ هل كبرتُ لهذه الدرجة؟ وديمة أيضًا كبرت؟"

أجابت بثقة: "بالطبع، ديمة كبرت. لقد طلب صديق خطيب خالتي منة يدي، وهو مستعد أن يدفع ألف جنيه"!

احتضنتها بقوة وقلت لها: "ألف جنيه دفعة واحدة؟ حسنًا، من يريد أن يخطفكِ مني عليه أن يدفع عمره كله، وحتى عمره كله لا يكفي لقاء وجودك بجواري يا ديمة".

فاجأتني بسؤال صاعق: "هل حقًا ستتزوجين ابن خالتك؟"

نظرت إليها في دهشة وتساءلت: "من أين لكِ بهذا الكلام الفارغ؟"

أجابت: "خالتي نهى كانت هنا اليوم مع ابنتها زينب، وقالت ذلك".

لم أستطع تمالك أعصابي، فناديت بصوت عالٍ على منة التي أتت مسرعة. أخبرتها بما قالته ديمة عن ابنة نهى، فضحكت وقالت: "إنه لعب أطفال. هل تريدين أن تثيري مشكلة من لا شيء؟"

نظرت إلى ديمة التي بدا على وجهها الانزعاج للشعور بالذنب والأسف للتحدث معي في مثل هذا الموضوع الحساس. ابتسمت لها وقلت مطمئنة: "كيف يكون هذا وأنا متزوجة من أبيكِ؟ لا يجوز للمرأة أن تتزوج اثنين. المرأة تتزوج مرة واحدة مدى الحياة، وأسامة هو الحياة كلها".

حاولت طمأنتها، وفي داخلي بركان من المشاعر المتضاربة يغلي. كيف لي أن أحمي هذه الزهرة الصغيرة من عواصف الحياة التي تتربص بنا؟ كيف أحافظ على براءتها وسط هذا العالم المليء بالمكائد والدسائس؟ تنهدت في صمت، وأنا أدرك أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد.

في يوم السِّبت، حملتُ أوراقَ القضيَّة بينَ يديَّ وكأنَّها قطعةٌ من روحي، وتوجَّهت لزيارةِ أسامة. جلستُ في الاستراحةِ أنتظرُ نداءَ الأسماء، وقلبي يخفقُ كعصفورٍ حبيسٍ في قفصٍ من الأملِ والخوف. كنت أترقب لحظة التفتيش والتوجه لرؤية أسامة، وكأنني أنتظر ميلاد فجر جديد بعد ليل طويل.

وإذ بالطَبيبة سلمى تأتي وتجلسُ بجواري كنسمةٍ عليلةٍ في صحراءِ الانتظار. ابتسمتُ لها كأنَّني كنتُ أترقَّب قدومَها، رغمَ أنَّ احتمالَ ذلك كان ضئيلاً كقطرةِ ماءٍ في بحرِ الصَّحراء. ولكن لأنَّه أوَّل يومِ زيارةٍ بعد العيد، فالكلُّ يتوقُ لرؤيةِ ذويهِ من خلفِ القضبانِ التي تفصلُ بين عالمين.

تبادلنا أطرافَ الحديثِ كأنَّنا نَنسجُ خيوطَ الأملِ في نسيجِ الواقعِ القاسي. أخبرتُها أنَّني جئتُ لأسلِّمَ أسامة أوراقَ القضيَّة. سألتني متعجِّبة: "وماذا سيفعلُ بها وهو عاجزٌ عن فعلِ شيءٍ لنفسهِ؟" شرحتُ لها باختصارٍ الوضعَ وموقفَ أهلهِ منِّي، وكأنَّني أروي قصَّة ألمٍ مكتوبةً بحبرِ الدُّموع. واستنجي على قدرِ المستطاع، ثمَّ سألتني عن سببِ عدمِ حضوري للعيادةِ كما طلبت.

أجبتُها أنَّ حالي بدأ يتحسَّن، لكنَّها أصرَّت على ضرورةِ زيارتي لها كأنَّها ترى في عينيَّ ما لا أراه. وعدتُها بالحضورِ السَّبت المقبل وكأنَّني أعِدُ نفسي بفرصةٍ جديدةٍ للحياة.

جلسنا ننتظرُ ميعادَ الزِّيارة وهي تقرأُ ملفَّ القضيَّة بعينين ثاقبتين. وما إن بدأ نداءُ الأسماءِ حتَّى قامت وأعطتِ الأوراقَ إلى ضابطِ التَّفتيش مباشرةً، لأنه ممنوع دخول أي مستندات لمسجون دون مراجعة أدارة السجن.

دخلتُ قاعة الزِّيارة وعيناي تبحثان عن أسامة في القفصِ كما يبحثُ الظَّمآن عن قطرةِ ماءٍ في الصَّحراء. كم اشتقتُ لرؤيةِ ملامحهِ والاستماع

إلى لحن صوتهِ! كم أرهقتني الأيُّام في غيابكَ يا أسامة! كلُّ لحظةٍ بدونكَ كانت كدهرٍ من العذابِ.

ناداني أسامة: "ديمة!" وكأنَّ اسم أبنتنا على شفتيهِ أغنيةٌ عذبةٌ تُحيي الرُّوح. اقتربتُ منه متسائلةً: "كيفَ حالُك؟" أجابَ: "الحمدُ لله، وأنتِ؟" قلتُ: "الحمدُ لله. لقد أحضرتُ لكَ أوراقَ القضيَّة. أخذوها منِّي بالخارج لفحصِها".

ابتسمَ ابتسامةً مريرةً كأنَّها شوكٌ في قلبي وقال: "لا عليكِ، أعلمُ أنَّني أشغلتُكِ عن مشاريعِك." سألتُه باستغرابٍ: "أيُّ مشاريع؟" أجابَ بنبرةٍ مُحمِّلة بالألمِ والشَّك: "مشاريعُكِ مع ابن خالِك. يبدو أنَّ وقتَكِ أصبحَ ضيِّقا لدرجةِ أنَّك تأخَّرت في إحضارِ أوراق القضيَّة".

وقفتُ أمامَ كلماتهِ مذهولةً، وكأنَّ صاعقةً قد ضربتني. كيفَ لهُ أن يشكَّ في إخلاصي بعد كلِّ ما مررنا به؟ أحسستُ بأنَّ العالمَ يدورُ من حولي وأنَّ الكلماتِ قد تجمَّدت على شفتيَّ. كيفَ أُقنعُه بأنَّه الوحيدُ في قلبي وحياتي؟ كيفَ أمحو هذا الشَّكّ الذي زُرعَ في قلبهِ كشوكةٍ سامَّة؟

حاولت أن أوضح له، لكنه قاطعني قائلاً: "لماذا لم تخبريني في العيد أنك استثمرتِ أموال الطيور في مشروع ابن خالك؟ شعرت بذلك منذ أن خلعتِ خاتم الزواج. معذرةً يا غادة، أعلم أنني عبء عليكِ، لكن للأسف لا أحد يسأل عني، حتى أهلي أصبحت لهم منبوذ منذ إحالة القضية، فقط شذى من أتصل بها كل فترة، والمحامي ليس له وجود وكأنه دخان".

أكمل حديثه بنبرة حزينة: "أعدك أن نكون أصدقاء بعد خروجي وسأتركك وشأنك لتعيشي الحياة التي تليق بك مع ابن خالك. أعلم أنه طلب يدك للزواج أكثر من مرة سابقًا، ويبدو أن طلبه تجدد بقوة هذه المرة. كل ما

أرجوه منك يا غادة أن ترفعي ضدي قضية خُلع، فأنا لن أقدر على طلاقك بإرادتي. حقك علي، لقد كنت نموذجًا سيئًا للزوج غير المسؤول".

قاطعته بعد أن فاض بي الكيل من طعناته: "ما هذا الكلام؟"

وفجأة، قطع حديثنا صوت أمين الشرطة: "من فضلك يا أستاذة لابد من تفتيش الزيارة مرة أخرى. وبعد تفتيشها طلب منى الذهاب معه للضابط المسئول وبالفعل توجهت معه وانا خائفة من هذا الطلب ابتسم الضابط وأعطاني القضية وسألني هل زوجك محامي فقولت له لا ولكن هو يريد كتابة مذكرة فنية عن الاتهامات الموجه إليه تفهم الموقف وجعل الأمين يضع صورة مستندات القضية مع الزيارة .ليقول الأمين: "حضرتك، الزيارة انتهت ".اعترضت: "لكن وقت الزيارة ضاع في تفتيش الزيارة "! اعتذر قائلاً: لايمكن أن يكون هناك زائر في السجن الأن، لابد من غلق بوابات السجن.

وهكذا انتهت زيارتي لأسامة، تاركة في نفسي ألف سؤال وسؤال. كيف تحول حبنا إلى هذا الجفاء؟ وكيف أقنعه بحقيقة مشاعري وإخلاصي له؟

خرجتُ من ذلك المكان الموحش، وقلبي يَنزف ألمًا وحسرةً على تلك الصورة التي نحتها أسامة لي في مخيلته. بعد كل هذا الحب الفياض وتلك التضحيات الجسام، والمعاناة التي لا توصف، أيظن أنني قد أفكر في سواه؟ واأسفاه! رغم السنين الطوال التي قضيناها معًا، لم يدرك بعد من هي غادة حمدي.

لم أنتظر الطبيبة، توجهتُ خارج أسوار السجن الرهيبة، وكأنني أبحث عن نسمة هواء تُحيي روحي المخنوقة. لِمَ لا يوجد هواء في هذه الدنيا؟

(٣٢)

جاءَ يومُ السِّبت حاملاً معهُ أملاً جديدًا ومخاوفَ قديمة. تسلُّمت مرتَّب الأسبوع وكأنَّه قطعةٌ من الذَّهب الثَّمين، ثمَّ توجَّهت إلى عيادةِ الطَّبيبة وقلبي يخفقُ بين جنباتِ صدري. لم أكنْ خائفةً من المجهولِ في صحَّتي، فأنا مؤمنةٌ بكلّ ما كُتِبَ عليَّ، ولكنَّني كنتُ أرتجفُ خوفًا من حجمِ المصاريفِ التي ستلتهمُ ما في جيبي من مالٍ قليل.

تبادلنا أطرافَ الحديثِ حولَ حالِ ابنِها كمدمنٍ للمخدِّرات، وأسامة زوجي. أخبرتني أنَّ من المنتظرِ خروجَ ابنِها في الجلسةِ القادمةِ التي موعدُها بعد خمسة عشر يوما، وأنَّها لا تريدُ أن يعلمَ أحدٌ بأمرِ ابنِها المحبوسِ خوفًا من تسريبِ الخبرِ والفضائح. فهمتُ جيِّدا ما تقولُه، فقد دُقتُ مرارةَ الفضيحةِ تلك في أوَّلِ يومٍ لأسامة.

همَّت بفحصي بعنايةٍ فائقةٍ، مستخدمةً كلَّ ما لديها من أجهزةٍ ومعدَّات طبيَّة تبدو حديثة. بدا على ملامحِها النُّوتُر، فسألتُها بابتسامةٍ تعني الإيمانَ بالقدر: "هل هناك أمرٌ خطير؟" فأجابت: "لا، ولكن لا بدَّ أن تأتي إلى المستشفى غدًا".

قلتُ في نفسي: "كيف وأنا عندي عملٌ غدًا ولا أقوى على مصاريفِ المستشفى؟" تعلَّلت لها بأنَّه لا يمكنُ أن آتيَ قبلَ يومِ السِّبت المقبل... ولكنَّها قاطعتني قائلةً: "لا بدَّ أن تأتي إلى المستشفى غدًا".

رنَّت الجرسَ فدخلتِ الممرِّضة، وأمرتها الطَّبيبة بإعطائي ثمنَ الكشف. جاءتِ الممرِّضة بظرفٍ يحوي الخمسَمائةِ جنيه، وأنا أرفضُ أخذَ الظَّرف بكلّ ما أوتيتُ من قوَّة. لكنَّ الطَّبيبة تمسَّكت بموقفِها وقالت لي: "لو لم تأتِ غدًا سوف آتي لكِ أنا وآخذُكِ من بيتِكِ".

تعجُّبت من معرفتِها بعنواني، فأوضحت لي أنَّها علمتْ عنواني من ملفِّ القضيَّة بعد أن قرأتْهُ قبلَ أن نهمَّ بالدُّخول إلى السِّجن. هنا تذكَّرت أنَّه عنوانُ بيتي الذي أصبحَ ليس بيتي، واحتلَّته إنعام.

صرختُ في داخلي: "لا... لا أريدُ أن يعلمَ أحدٌ منهم أيَّ شيءٍ عن حالتي الصَّحيّة." وافقتُ على أن تجعلَها يومَ الاثنين، فرضخَتْ لطلبي.

وإذ بالطَّبيبة تُفاجِئُني بحديثٍ لم أكنْ أتوقَّعه، كأنَّه نسمةٌ عليلةٌ في صحراءِ همومي. قالت بصوتٍ ملؤُهُ الاهتمام: "هناك صفحةٌ على فيسبوك تتحدَّث عن أحوالِ زوجةِ الرَّجل المسجون".

بدأتْ تشرحُ بحماسٍ كيف أعجبتْها الفكرة، رغمَ أنَّ النَّاس لم يفهموها بشكلٍ واضح. ثمَّ أضافت بنبرةٍ مُفعَمةٍ بالأمل: "سوف يأتي يومٌ ويكونُ لهذه الصَّفحة شأنٌ في تغييرِ نظرةِ المجتمع للمرأة".

قلتُ لها بصوتٍ يرتجفُ من شدَّة التَّأثُّر: "إنَّني صاحبةُ الفكرةِ ومؤسِّس هذه الصَّفحة".

نظرتْ إليَّ بدهشةٍ، كمن يكتشفُ كنزًا ثمينًا في مكانٍ لم يتوقَّعه. قالت بصوتٍ مُتعجب: "أنتِ يا غادة؟"

أجبتُها بهدوءٍ: "نعم، أنا".

قالت لي بنبرةٍ مليئةٍ بالفضول والإعجاب: "أنتِ وراءَكِ قصَّةٌ كبيرة".

حاولتُ أن أُخفِّف من وقعِ كلماتِها، فقلتُ لها بتواضع: "بالعكس، إنَّها كانت على سبيلِ الفضفضةِ ليس إلاَّ".

ابتسمتْ ابتسامةً عريضةً وقالت: "حسنًا، سأنتظرُكِ يومَ الاثنين ونُدردِشُ في هذا الأمر".

خرجتُ من العيادةِ وأنا أشعرُ بمزيجٍ غريبٍ من المشاعر. الفخرُ يملأُ صدري لأنّ فكرتي قد لاقت استحسانًا، والخوفُ يتسلّل إلى قلبي من احتمالِ انكشافِ أمري. ولكن، في أعماق روحي، شعرتُ بشعلةِ أملٍ تتّقدُ.

فكّرت في سماء نفسي: "هل يمكنُ أن تكونَ هذه الصُّفحة بداية تغييرٍ حقيقيّ؟ هل سيأتي يومٌ يفهمُ فيه المجتمعُ معاناةَ زوجاتِ المسجونين؟"

قرّرت أن أستغلّ هذه الفرصة لأُوصِلَ صوتَ كلّ امرأةٍ تعاني في صمت. سأحكي قصّتي للطّبيبة، ليس من أجلِ نفسي فقط، بل من أجلِ كلّ زوجةٍ تنتظرُ زوجَها خلفَ القضبان.

تسمّرت في مكاني فجأةً، كأنّ قدميّ قد تحجّرتا وأصبحتا جزءًا من الأرضِ التي أقفُ عليها. استرجعتُ الجانبَ المُظلِمَ من جلستي مع الطّبيبة، وبدأ قلقُها وإلحاحُها يتسلّل إلى أعماق روحي كظلٍّ ثقيل. لا بُدّ أن أذهبَ إلى المستشفى، ولكن... تُرى ماذا سيكونُ مرضي؟

همستُ لنفسي بصوتٍ خافت: "ليس مُهمًّا، ومهما كان، لن أكترثَ لأيّ شيء." ثمّ خطرَ على بالي سؤالٌ مُرعِب: "هل سأموت؟"

وكأنّ صوتًا داخليًّا أجابني بسخريةٍ مُرّة: "الموت راحة؟"

ولكن سرعانَ ما تبدّدت هذه الأفكارُ السّوداء عندما تذكّرت أحبّائي. ديمة وأسامة... برغمِ كلّ شيء، أسامة. تساءلتُ بقلبٍ يعتصرُهُ الألم الشديد: "هل سألتقي بهم في الجنّة؟"

(٣٣)

في اليومِ التّالي، وأنا في خِضَم العمل، جاءَ عاطف ابن خالتي، وهو يبتسمُ ابتسامة الظّفر، مُعلِنًا أنه طلّق زوجتَه. صَدَمَني الخبر كصاعقةٍ من السّماء، فسألتُهُ بدهشة مغلفة بالصدمة: "ولِمَ تُخبِرُني أنا بذلك؟"

فأجابَ بنبرةٍ غامضة: "لا شيء، ولكنُّه كانَ همًّا وانزاحَ من فوق قلبه." ثمَّ أكملَ بنظرةٍ ذاتِ مغزى: "وقلبُكِ".

تساءلتُ بدهشةٍ: "ماذا؟"

فقالَ لي مُحاولاً التّوضيح: "لا تفهمي خطأً. ما أريدُ أن أقولَهُ هو أن يتمُّ إزاحةُ أيّ همٍّ من على قلبكِ." قالَها وتركَني، تاركًا خلفَهُ دوَّامة من الأفكارِ المُضطربة.

في اليومِ التّالي، ذهبتُ إلى العملِ مُتصنِّعة التّعب. طلبَ منّي عاطفٌ أن أعودَ إلى البيت، وبالفعلِ توجّهت إلى المستشفى. قابلتُ الطّبيبة وبعدَ إجراءِ أشعّةٍ لا أعلمُ اسمَها وعدّة فحوصات، جلسَت تتحدّث إليّ وكان يملؤُها الحزنُ والهمُّ.

قالت: لا بُدَّ أن أُوصِلكِ بسيّارتي وتحكي لي قصّتكِ كلّها منذُ يومِ القبضِ على أسامة." وبالفعلِ حدثَ ذلك.

بعدَ أن سمعَت قصّتي، قالت: "إنّها قصّة غريبة." فقلتُ لها والغُصّة تعتصرُ قلبي: "أريدُ أن أسألَكِ سؤالاً".

قالت: "ماذا؟"

فسألتُها: "ما هو المرضُ الذي بي؟"

أبطأت السيارة فجأةً وأجابتني قائلةً: "لا تُثقلي قلبَكِ هَمًّا، فما هو إلا خلل عابر في تفاصيل المخ، فلا تدعي القلقَ يتسللُ إلى فؤادِكِ".

فقلتُ لها بسلام داخلي: "لا تخافي لحالي، فأنا لن يُحزنَني الأمر. فأنا مُتوقِّعة كلَّ شيء، وكلُّ شيءٍ يضعُني فيه اللهُ أعلمُ أنَّه ما هو إلاَّ اختبارٌ من اللهِ عزَّ وجل".

لتقولَ بصوتٍ مُتهدِّج حزين، حروفُهُ ممزوجةٌ بالدُّموع المكبوتة: "بما أنَّك كذلك، لا بُدَّ أن تعلمي أنَّ هناك مشكلةً صحَّيَّةً لديكِ ليست صعبة ولكن لو تركتِ نفسَكِ أكثرَ من ذلك سوفَ يكونُ الأمرُ صعبًا. لا بُدَّ من أخذِ العلاج بشكلٍ سريع استعدادًا لإجراء عمليَّة".

قلتُ لها بدهشة: "عمليَّة؟ كيف في هذا التَّوقيت؟ أنا لا بُدَّ من استكمال مشواري لإثباتِ براءةِ أسامة".

فقالت لي إنَّها سوفَ تجعلُ الأستاذ فوزي المحامي يتولَّى أمرَ القضيَّة مرَّة أخرى وبالنِّسبة لأتعابه، لا تشغلي بالكِ، سوفَ تدفعُها هي. ومن الممكن أن أدفعَها لها بعدَ خروج أسامة. وأنَّها سوفَ تذهبُ لزيارةِ ابنِها يومَ السَّبت المقبل، ولا بُدَّ أن آتيَ معها لزيارةِ أسامة وإخبارهِ بكلِّ شيء، ويعلمَ أنَّك مظلومة. الكلُّ وضعَكِ في هذه الصُّورة، وأنَّه من أشدِّ درجاتِ الظُّلم أن تظلمي نفسَكِ أكثرَ من ذلك.

وافقتُها، لعلَّه يعرفُ من هي غادة حمدي. وصلنا إلى المنزل، وأنا أطلبُ منها أن تنزلَ للتَّرحيب بها في بيتِ والدي. فقالت: "في مرَّة أخرى"، وذهبَت.

وفي يوم السبت، الذي كان كئيبًا كحالي، توجهت إلى السجن بخطى متثاقلة. هناك، التقيت بالطبيبة التي حثتني بحرارة قائلة: "يا غادة، أفصحي عن

مكنون صدركِ لأسامة. فالحقيقة، وإن كانت مرّة، هي العلاج الناجع لهذا الداء".

لكن ما لم يكن في حسباني، وكان كالصاعقة التي تضرب في يوم صحو، أن أسامة، حين علم بهويتي، رفض طلب الزيارة بحزم. ففي عالم السجون المظلم، من حق السجين أن يرفض زائره كما يرفض الليل النهار.

وجدت نفسي في حالة يُرثى لها، كورقة خريف تتقاذفها الرياح. غير أن الطبيبة بعد أن خرجنا وأخبرتها بما حدث، قالت بصوتها الحاني كنسمة ربيعية: "لا تيأسي لقد أتصل بها محام أبنها وأخبرها أن الأستاذ فوزي المحامي تفهم الوضع وتبنى القضية من جديد، وكل شيء يسير على ما يرام. سيأتي يوم، وليس ببعيد، يعلم فيه أسامة الحقيقة كاملة فيُزال الغشاء عن عينيه".

ثم أردفت ببشرى سارة كانت كشعاع شمس اخترق غيوم حزني الداكنة: "لقد تم تحديد جلسة محاكمة أسامة في غضون الشهر المقبل".

مرّت الأيام ثقيلة كجبال الرواسي، وأنا أذوي كزهرة في صحراء قاحلة. كل يوم يمر كان يسلبني قطرة من روحي، حتى بتُّ أشبه بظل لما كنت عليه. لم أسلم من ضغط عاطف وإيناس في العمل، يحثانني على الانفصال والطلاق من أسامة كأنهما يدفعانني نحو هاوية سحيقة. لكنني تصنعت البلاهة، فلم أعد أقوى على التصدي لسيل أقوالهما الجارف.

وبفضل من الله، أحضر المحامي كافة المستندات المطلوبة لإثبات براءة أسامة، كأنه يجمع قطع أحجية معقدة. حتى جاء ميعاد الجلسة وكأن الحياة عادت إليّ من جديد، تدب في أوصالي كنسمة ربيع منعشة. لم يعلم بها أحد من إخوتي، إذ كان يوم السبت موعد الجلسة هو يوم إجازتي.

وقفت في المحكمة، قلبي يخفق كعصفور حبيس. رأيت أسامة لكنه لم يرني، كأننا في عالمين متوازيين. أعصابي الواهنة لم تحتمل دخول القاعة. جلست أنتظر المجهول والثواني تمر كأنها سنوات وسنوات.

جاء أستاذ فوزي وقال بصوت خافت: "لقد تم تأجيل القضية ثلاثة أشهر أخرى لدراسة المستندات المقدمة".

صرخت في وجهه: "ماذا يعني ذلك؟" فأجاب بهدوء مستفز: "إنه إجراء عادي".

كيف يكون عاديًا؟ تسعون يومًا أخرى هي في حد ذاتها حكم محكمة، تعني لي الكثير... بل تعني العالم بأكمله!

قال لي إنه فعل كل ما في وسعه اليوم، لكن هذا قرار المحكمة الذي لا راد له. سألته عن عائلة أسامة، فأجاب: "لم يأتِ أحد منهم أصلاً، ولا حتى محامٍ من جانبهم".

طلبت منه أن أتحدث مع أسامة، فأخبرني أنه خرج في صحبة الشرطة ليعود إلى محبسه. وبالفعل، رأيته وهو يركب سيارة الترحيلات كأنه يركب قطارًا إلى المجهول.

انطلقت ألهث وراء السيارة بخطوات متعثرة، كمن يحاول اللحاق بحلم يتلاشى. كنت أتمنى أن أسمع صوته ولو لثانية واحدة. لكن لم يكن هناك جدوى من لهاثي المحموم. لم ألحق بالسيارة، ورأيته يبتعد أكثر فأكثر، كأنها الحقيقة المرة التي أغفلتها طويلاً تصفعني على وجهي بقسوة لا ترحم.

توجهت إلى القسم، وقد عقدت العزم على أن أتحدث مع أسامة وجهًا لوجه، ولا يفصلني عنه الآن سوى بضع خطوات. وما إن لاح لي باب القسم حتى

رأيت إنعام وفؤاد وابنهما ماجد يقفون هناك كأنهم حراس على بوابة الانتقال عبر الزمن. انتظرت حتى خرجت إنعام من الزيارة، لكنها ظلت واقفة أمام باب القسم كتمثال من حجر. ثم أتت عزة أخت أسامة الكبرى ومعها زوجها ودخلا هما الآخران لزيارته. خرجا بعد فترة، وأعطت إنعام بعضًا من النقود إلى الأمين. ثم ذهبت بصحبة الجميع بعد أن همست له بشيء ما، كأنها تلقي تعويذة سحرية.

هممت أنا بالدخول إلى القسم، لكن أوقفني الأمين الشرطي قائلاً لي بصوت جاف: "إلى أين أنتِ ذاهبة؟ "فقلت له بلهفة: "لزيارة أسامة فؤاد الشايب ". فقال لي بحزم: "إن الزيارة انتهت ".فقلت له بحدة وإصرار: "لا بد أن أزوره الآن ".قال لي: "لا يمكن ذلك ".فقلت له بسذاجة: "أنا مستعدة أن أدفع له المبلغ الذي يريده".

وإذ بضابط برتبة ملازم أول، لم أراه من قبل، يَنبثقُ من العَدَم كأنما انشقَّت عنه الأرض، فانبرى الأمينُ يُخاطبني بصوتٍ جَهوريٍّ يَصِلُ أصداؤه إلى مسامع الضابط. ثم أردفَ بنبرةٍ تَنضحُ تحذيرًا: "إنّ ما تَفوّهت به من كلامٍ قد يُعرِّضكِ لِمُساءلةٍ أمامَ القانون".

سأل الضابط: "ماذا يحدث؟ "فأجاب الأمين: "إنها تريد رؤية مسجون الآن والزيارة انتهت ".فقال لي الضابط: "لماذا تأخرتِ؟ "فقلت له بنبرة استجداء: "لقد أتيت من مكان بعيد ".فقال للأمين: "أدخلها لتراه على عجل".

لكن الأمين أجاب: "إن هذا الشخص زار مرتين الليلة ".فسأل الضابط بحزم: "متأكد؟" فأجاب الأمين: "هذا هو الكشف".

فقال لي الضابط: "إذًا هذا يكفي اليوم. وتفضلي بالانصراف، فلابد أن أذهب إلى موقعي بنقطة تفتيش الطريق الأن. ومن حقكِ أن تزوريه غدًا ". فقلت له بإلحاح: "ولكني لا بد أن أزوره اليوم".

فاندهش وقال بريبة: "ولِمَ اليوم بالتحديد؟ اليوم من غد لن يفرق الأمر شيئًا، إلا إذا كان هناك شيء مخالف معكِ له." فقلت له بحسرة دون تردد: "على الإطلاق، زوجي لا يدخن أساسًا. ولكني زوجته ولم أره منذ فترة طويلة".

فقال لي بنبرة حاسمة: "إذًا انتظري إلى الغد." وتركني وذهب، كأنه يترك خلفه قطعة من روحي.

راجعت وأنا ألملم ذيل الخيبة وراء ظهري، كأنني أجر خلفي ثقل الدنيا كلها. وفي تلك اللحظة، أدركت أن الأمل قد يكون أحيانًا أقسى من اليأس، وأن الانتظار قد يكون أشد إيلامًا من الفراق نفسه.

(٣٤)

في اليوم التالي، بعد أن أنهيت عملي وكأنني أنهي فصلاً من رواية حياتي المضطربة، توجهت إلى القسم. كانت روحي مشحونة بعزيمة لا تلين، مقتنعة أنني سأواجه إنعام اليوم بقوة لم أعهدها في نفسي من قبل. وقفت في الصف، عيناي تترقبان قدوم إنعام أو أي من عائلة أسامة، كما يترقب الصياد فريسته.

لكن الأمين، بصوته الجاف كصحراء قاحلة، قال لي: "إنه غير موجود بالقسم. لقد توجه صباح اليوم إلى السجن." وقعت كلماته على مسامعي كصفعة قاسية، أيقظتني من حلم اليقظة الذي كنت أعيش فيه.

وقفت هناك، أمام باب القسم، كتمثال من حجر نحته الحزن والخيبة. لم أجد مفرًا سوى أن أعود من حيث أتيت، أجر خلفي خيبة الأمل كثوب ثقيل، وأحمل في قلبي ألف سؤال وسؤال.

عدت إلى منزل أبى، وأنا أحمل في قلبي مزيجًا من الحزن والأمل من اليأس والإيمان. وقررت أن أستريح، وأترك للغد ما يحمله من مفاجآت وتحديات جديدة. فربما، في صباح يوم جديد، ستشرق شمس الأمل من جديد، وتنير لي الطريق الذي طال انتظاري له.

وفي ليلة من الليالي، وقف عواض في شرفته وقد أثقل الخمر رأسه وأطلق لسانه. تحدث بوقاحة عني وعن زوجي وكلماته كانت كسهام مسمومة تخترق صمت الليل وتصيب كرامتي في مقتل.

كنت أسمع كلامه، وقلبي ينزف ألمًا وغضبًا، لكنني لم أقدر على فتح باب الشرفة وردعه. شعرت بالعجز يكبلني كقيود ثقيلة. اتصلت منة بإخوتي، وكأنها تستدعي جيشًا لنجدتي.

جاءت أختي إيناس وزوجها، وعاطف ابن خالتي الذي لم أدرِ لماذا أتى ومن الذي أخبره. فضيحة جديدة نبتت من العدم، تخيلت الآن الدرس الذي سوف يلقنني إياه إخوتي، كنت أتوقع عاصفة من التوبيخ والتأنيب، كسيل جارف يجرف ما تبقى من كرامتي.

لكن الأمر انتهى بتدخل أهل الشارع، كحكماء يفضون نزاعًا قبليًا. لم يصعد إخوتي إلى البيت، فالساعة كانت تشير إلى منتصف الليل، كأنها حد فاصل بين عالمين: عالم الفضيحة وعالم الستر.

أغمضت عيني، وبقيت أنتظر شروق شمس يوم جديد، متسائلة: هل سيحمل معه بصيص أمل، أم فصل في مسرحية حياتي المأساوية؟

لم تأتِ المفاجأة من صمت إيناس في العمل، بل من ذلك الاجتماع العائلي الذي حُشد له الجميع كأنه مؤامرة قد أُحكمت خيوطها في الخفاء. ما إن عدتُ إلى البيت، حتى تقاطر إخوتي واحدًا تلو الآخر كأنهم طيور جارحة تحوم حول فريستها.

جلست وسام، وكأنها قاضية القضاة، تتلو حكمًا واضح أنه قد صُكَّ في غيابي: "لنعرض البيت للبيع!" صرختُ بلسان الصدمة: "أي بيت تقصدين؟" فأجابت ببرود الجليد: "هذا البيت الذي نحن فيه." وكأنها تقرر مصير حجر لا روح فيه، لا بيتًا يحتضن ذكريات العمر وأحلام المستقبل.

التفتُّ إلى والدي، فرأيته كتمثال من رخام، قد نحتته الصدمة وأسكتته الدهشة. همستُ في سري: "أتقتلون هذا الرجل بسيف الجحود وتدَّعون أنكم تصونون كرامته؟"

سألتُ بلهفة المذهول: "أهذا عبث أم جنون؟" فانهالت عليَّ الإجابات كسيل جارف من الطمع والأنانية:

قالت إيناس بلهجة التاجر الماهر: "منة على أبواب الزواج، وتحتاج إلى مهر يليق بمقامها. وأنا أطمح إلى توسيع أعمالي في مصنع الملابس".

أضافت نهى بنبرة الطامع: "وأنا أيضًا أتوق إلى حياة أرغد وعيش أرفه".

أما وسام، فتحدثت بلسان الحكمة المزيفة: "إن كنتُ لا أطمع في المال فإني أرى في بيع البيت حلاً لمشكلة قادمة. فبعد زواج منة وعودة أسامة، سيبقى أبونا وحيدًا في هذا البيت الفسيح .أليس من الأفضل أن نبيعه ونتناوب على رعايته؟"

همست إيناس بجحود يقطر سمًا: "إن أيام أبينا معدودة، والموت آتٍ لا محالة. فلِمَ ننتظر حتى يأتي الأجل، ونحن نستطيع الاستفادة الآن؟" ووافقتها نهى على رأيها الجائر.

جلست إيناس بجواري، تهمس بكلمات حادة كنصل السكين: "الأمر جلي الآن يا غادة. عليكِ أن تطلبي الطلاق من أسامة. فابن خالتك يعرض عليكِ الزواج، وسبب طلاقه هو أنا ووجودي في العمل".

صرختُ بصوت يمزقه الألم: "ولكنكِ لم تفصحي عن هذا من قبل"!

فردت ببرود الثعبان: "وما ظننتِ؟ أتعلمين أن موافقتك ستحولك في لمح البصر من عاملة كادحة إلى سيدة أعمال؟"

لتكمل نهى قائلة بقسوة لا ترحم: "وما أيسر أن تتركي ابنتك لأهل زوجك، فهم أولى بتربيتها. وانزعي من رأسك أحلام المجد لابنتك فهي في نهاية المطاف ابنة سجين".

أضافت وسام بنبرة الواعظ الزائف: "زوجك أسامة ما زال أمامه طريق طويل في ظلمات السجن، وأنتِ لن تقوي على تحمل المزيد هذا مستحيل"!

نظرتُ إلى منة التي أكملت المشهد المأساوي بقولها: "خطيبي يستعجل الزواج، ولم يعد لديَّ من الحجج ما أؤخر به الأمر".

لزمتُ الصمت، مدركة أن الوسوسة في الآذان أشد فتكًا من السحر في تلك اللحظة المصيرية، أدركت أن المعركة الحقيقية قد بدأت للتو. انصرف الجمع، وبقيت منة وحدها، فأفصحت بلسان حاد كنصل السيف: "في مثل ظروفك، لا بد أن تنحي الحب جانبًا، فإنه لن يقوى على مجابهة الطوفان الهادر. أسامة قد ولّى، وابن خالتك هو شمس المستقبل المشرقة".

غير أنها لم تدرك أن أسامة هو روح المستقبل ونبضه، وأن الحياة بدونه كجسد بلا روح، كليل بلا فجر.

وإذ بالدكتورة تتصل، تستطلع حالي ومعنوياتي. زفت إليّ بشرى براءة ابنها، وقلبها يفيض سرورًا لعودة فلذة كبدها إلى أحضانها. فأيقنت أن هذه إشارة سماوية، تحثني على مواصلة دربي كزوجة رجل قيّدته الأقدار خلف القضبان.

ألحّت عليّ الدكتورة بزيارتها لمتابعة حالتي، لكن خاطري كان مشغولاً بديمة. فكرت: "ماذا لو غادرت هذه الدنيا الفانية؟ هل سيوجد في هذا الكون الفسيح من هو أمين عليكِ يا ديمة مثلي؟"

إنها ابنتي ورفيقة دربي، بل إنني أشعر أحيانًا أنها أمي. نعم، أمي رغم أن سبع سنوات فقط هي عمرها في هذه الدنيا. فهي نور عيني وبلسم روحي، وشعاع الأمل في ظلمات حياتي.

نظرت إلى صورة ديمة المعلقة على الحائط، وابتسمت رغم الدموع التي ترقرقت في عيني. قلت في سري: "من أجلك يا صغيرتي، من أجل أسامة، من أجل عائلتنا، سأكون الصخرة التي تتحطم عليها أمواج اليأس. سنبني مستقبلنا معًا، مهما كانت العقبات، ومهما طال الطريق".

وهكذا، في تلك الليلة الحالكة، ولدت من رحم المعاناة امرأة جديدة قوية الإرادة، ثابتة العزيمة، مؤمنة بأن الفجر آتٍ لا محالة، وأن بعد العسر يسرًا.

(٣٥)

مرّت الأيام كأنها لحظات خاطفة، وإذا بالشمس تشرق على يوم جديد يحمل في طياته أحداثًا غير متوقعة. عدتُ من عملي، وقد أرهقني الطريق وأثقلت كاهلي هموم الحياة، لأجد منظرًا لم يخطر على بالي. كان هناك رجل غريب الوجه، يتصدر المجلس بهيئته وحديثه المتزن يجلس بجوار نهى وزوجها مع أبي العزيز.

عرفت فيما بعد أنه أحد السماسرة، جاء ليقدّر ثمن منزلنا العتيق، ذلك البيت الذي شهد على مرّ السنين أفراحنا وأحزاننا، وحمل بين جدرانه ذكريات لا تُنسى. وكأنه يقدّر روحًا لا جسدًا، فخرج من فمه رقم يكاد يقطع نياط القلب: "نصف مليون جنيه"، قالها بلهجة الواثق من حكمه.

حاولت نهى وزوجها جاهدين رفع السعر، لكن السمسار كان حاسمًا في قراره، مؤكدًا أن المنزل "لن يساوي أكثر من ذلك". وفي لحظة من الصمت الثقيل، وافق الجميع على السعر، بينما والدي الحبيب لم ينبس ببنت شفة، كأن الاستسلام قد تملك منه.

اتصلت منة بخطيبها، وصوتها يرتعش من الفرح، معلنةً أن موعد الزفاف سيكون بعد شهر من الآن. ثم هرولت إلى بيت إيناس.

جلسنا حول المائدة، أنا وأبي وديمة الصغيرة، وكان الصمت يخيم علينا كستارٍ ثقيل. وفجأة، كما تنفرج الغيوم عن شمسٍ خجولة، انفرجت شفتا أبي عن كلماتٍ أيقظت في قلبي نياماً من المشاعر. قال وعيناه تلمعان بدموعٍ حبيسة: "أتدرين يا غادة، يا ابنتي الغالية، أنكِ منذ نعومة أظفارك كنتِ كالنسمة الرقيقة في بيتنا؟ لم تُرهقينا يوماً، ولم تطلبي ما يُثقل كاهلنا. كنتِ كالوردة الصامتة، تنشر عبيرها دون أن تطلب ماءً أو اهتماماً. حتى ظننا، وا أسفاه، أن صمتكِ وقناعتكِ ضربٌ من البلاهة. ولكن الأيام، يا

ابنتي، علمتنا أن حكمتكِ فاقت حكمة الحكماء وأن رضاكِ كان أعظم من فهمنا".

توقف أبي لحظة، وكأن الكلمات تزاحمت على شفتيه، ثم أكمل وصوته يرتجف: "والآن، وقد أدركتُ حكمة السماء، أرى في وجودكِ بيننا رحمةً من الله. ففي زمنٍ صار فيه الأبناء يضحون بآبائهم على مذبح الطمع، كنتِ أنتِ الملاك الحارس، تحمين قلب أبيكِ من قسوة الزمن وجفاء البشر".

غرقت عيناي بالدموع، وشعرت كأن قلبي يكاد ينفطر من فرط المشاعر المتدفقة. وأكمل أبي، وكأنه يفتح صندوق أسرارٍ ظل مغلقاً لسنين: "أتعلمين يا غادة؟ إني أرى أمكِ، رحمها الله، واقفةً أمامي الآن، تتوسل إليّ أن أجعلكِ تسامحينها. وها أنا أتوسل إليكِ، سامحيها، وسامحيني معها. فما كان قصدنا يوماً أن نفرق في المعاملة بين أبنائنا، ولكن طيبتكِ الفائقة، ورضاكِ العجيب، جعلانا دون أن ندري نتمادى في ظلمكِ".

صمت لحظة وكأنه يجمع شتات روحه، ثم قال بصوتٍ خافت كالهمس:

"يا بنيتي، إياكِ أن تندمي يوماً على طيبة قلبكِ. وتيقني، إن الله سيعوضكِ خيراً، وسيرفع قدركِ في الدنيا والآخرة".

ثم، وكأنه يريد أن يختم حديثه بطلبٍ يجمع شتات ذكرياتنا، قال: "لي عندكِ رجاء أخير يا غادة".

فأجبته والدموع تغسل وجهي: " قل يا أبي، وأشهد الله أنني لن أرد لك طلباً".

فقال بابتسامةٍ حزينة: "أشتهي أن آكل بسيسة، كتلك التي كانت تصنعها أمكِ".

ابتسمت من خلال دموعي وقلت: "بسيسة؟ وهل هذا طلب صعب؟ إنه أسهل ما يكون. سأحضر دقيق الذرة غدًا وأنا عائدة من العمل وسأصنع لك صينية بسيسة تليق بك". هذا الطلب البسيط، في بساطته وعمقه، كان كالسهم الذي اخترق قلبي. فهمت في تلك اللحظة أن والدي لا يطلب طعامًا عاديًا، بل يسعى إلى استنشاق أكبر قدر من عبق ذكريات الماضي، وربما يودع الحياة بطعمٍ حلوٍ على لسانه وفي قلبه.

خرجت من عملي في اليوم التالي، وقلبي يخفق بلهفة الوفاء بوعدي لأبي. طُفت المحال كفراشة تبحث عن زهرة نادرة، حتى عثرت على دقيق الذرة. جمعت مكونات البسيسة كمن يجمع أحجاراً كريمة، وحملتها بين يدي كأنها كنز ثمين.

وفي طريق العودة، رنّ هاتفي معلناً اتصال منة. أغلقت الخط مرة، ثم مرتين، ظناً مني أنها ستفهم أنني في طريقي إلى البيت.

وصلت إلى شارعنا، فرأيت جمعاً من الناس أمام منزلنا. خيَّم على قلبي ظلٌ من القلق، وظننت للحظة أن عواض قد أثار مشكلة جديدة. لكن الأمر بدا أكثر غرابة وإثارة للريبة.

الأعين كانت ترنو إليّ بنظرات غريبة، مزيج من الشفقة والحزن. شعرت بالخجل يكبل خطواتي، فأطرقت برأسي إلى الأرض وصعدت الدرج وكأنني أتسلق جبلاً شاهقاً.

صوت البكاء تسلل إلى أذني، يخترق صدري كسهام حادة. ثقلت قدماي، وبدأ قلبي يخفق بعنف. هل أصاب ديمة مكروه؟ أم ماذا حدث؟

الدرجات الواحدة والعشرون التي كنت أعدها منذ طفولتي، تحولت في تلك اللحظة إلى ألف درجة، كل درجة منها تحمل ألف هم وألف خوف.

دخلت شقتنا، فإذا بالوجوه كلها غارقة في بحر من الدموع. وفجأة ارتمت منة في أحضاني، وصرخت بكلمات زلزلت أركان روحي:

"بابا مات... بابا مات يا غادة"!

في تلك اللحظة، شعرت كأن الكون توقف عن الدوران. سقطت الأكياس من يدي، وكأنها آخر ما تبقى من أحلامي. دار بي العالم واختلطت الأصوات والوجوه، وغبت عن الوعي.

منذ تلك اللحظة، أدركت أن الحياة قد تسلب منا أحباءنا في غمضة عين، وأن كل لحظة نقضيها مع من نحب هي كنز ثمين. فلنغتنم كل فرصة لإظهار حبنا وتقديرنا لمن حولنا، قبل أن يفوت الأوان.

مرّت أيام العزاء الثلاثة كأنها دهر. وها هي الحياة تعود إلى مجراها كأن شيئًا لم يكن. كيف للناس أن ينسوا بهذه السرعة؟ أيصبح الإنسان بعد رحيله نسيًا منسيًا، إلا من القليل، بل من القليل جدًا؟ وأنا، هل سيأتي يومٌ تشغلني فيه الحياة فأنسى؟ أستغفر الله! رحمك الله يا أبي رحمكِ الله يا أمي.

وكأن مصائب الدهر لا تكفي، فها هم الإخوة والأخوات يتهافتون على بيع البيت، كأنه غنيمة حرب. لولا وقفة وسام الشجاعة، لكان مصير بيتنا، مهد ذكرياتنا، إلى زوال. ولكن، إلى متى سيصمد قرار الانتظار أمام أطماعهم؟

في خضم هذا الظلام، أشرق نور الدكتورة سلمى في حياتي. جاءت لعزاء أبي، وطلبت مني الاستمرار في تلقى العلاج، خوفًا على صحتي. أخبرتني عن رحلتها مع ابنها المكتئب إلى أوروبا، ووعدتني بالعودة والاتصال. يا لها من سيدة! ظهرت في حياتي لتكون سندًا لي في قضيتي، وبريق أمل في ظلمات طريقي.

وهنا، أدركتُ حقيقةً جوهرية: إذا كان ابن الدكتورة سلمى مصابًا بالاكتئاب، فما بالك بأسامة المحبوس ظلمًا؟ يجب أن ألتمس له ألف عذر وعذر.

(٣٦)

في غياهب ليلة حالكة، تسللت أصابع الشر إلى عتبات بيتنا وكادت أن تعصف بما تبقى من أمننا وسكينتنا.

كان الليل قد بسط جناحيه على الحي، وغرقنا في سبات عميق، حين اخترق صمت الظلام صوتٌ غريب. كان صوت يد تعبث بباب شقتنا تحاول فتحه بخفة لص ماهر. انتفضتُ من فراشي، وقلبي يخفق بعنف كأنه يقرع طبول الخطر.

أيقظتُ منة، وتسلحنا بالمكنسة الخشبية، درعنا الوحيد ضد مجهول يتربص بنا في الظلام. توجهنا نحو الباب، والخوف يسري في عروقنا كالسم. سألتُ بصوت مرتجف: "مَن؟"، وأنا أتذكر كيف أحكمتُ إغلاق الباب قبل النوم، ليس فقط بالترباس، بل بقفل إضافي، كأنني كنت أستشعر خطراً قادماً.

سمعنا وقع أقدام تهرول مسرعة على درج السلم. وكأن قوة خفية دبت في أوصالي، فاندفعت نحو الشرفة، لأرى مشهداً صدمني: كان عواض، جارنا المعتوه، يفر هارباً إلى بيته!

يا لهول ما كدنا نتعرض له! لم يكن يفصل بيننا وبين كارثة محققة سوى أمتار قليلة ولحظات معدودة. رفعت عيني إلى الأعلى، فإذا بزوجته تقف في شرفتها، تنظر إليَّ بعينين تشعان شراً، وكأنني أنا المعتدية على حرمة بيتها، لا زوجها المتربص بنا!

تلاقت أعيننا في صمت مشحون، وأنا أتصنع القوة لمواجهة هذا الموقف العصيب. دخلت هي دون أن تنبس ببنت شفة، وبعد لحظات حتى علا صوت شجار عنيف بينها وبين زوجها، أيقظ الحي بأكمله.

دخلتُ أنا ومنة إلى الشقة، محاولتين تجنب أعين الفضوليين. ولكن الشجار لم يهدأ، بل تصاعد، حتى انقطع فجأة، ليعقبه صراخ نساء مفزع في الشارع.

هرعنا إلى الشرفة مرة أخرى، لنشهد مشهداً مروعاً: شباب الحي يمسكون بعواض، الذي يحاول الإفلات منهم، ويداه ملطختان بالدماء! صرخ بصوت مجنون: "قتلتها! قتلتها"!

صعد بعض الرجال مسرعين إلى شقة عواض، ليعودوا بعد لحظات مطأطئي الرؤوس، مؤكدين الفاجعة: لقد ماتت بالفعل.

سرعان ما حضرت الشرطة، واقتادت عواض، ولم يكد الفجر يبزغ حتى خيَّم الفضولُ على المكانِ من كلّ حدبٍ وصوب، وسرت بين الناسِ همساتٌ ثقيلةٌ كأنها أنفاسُ الهمّ، تحملُ في طيّاتها نذيرَ مأساةٍ جديدةٍ، تنضمُّ إلى قافلةِ المآسي التي تلاحقُنا كظلٍّ لا يفارق.

مع تباشير الفجر الأولى، وخيوط الشمس الذهبية، هرولت إيناس ونهى كفراشتين مذعورتين، تتبعهما خطوات وسام الثقيلة بعد لحظات معدودة. وقف الجميع أمام المنزل، كأنهم تماثيل من رخام، عيونهم شاخصة، وقلوبهم تخفق بعنف، يحاولون استيعاب المشهد المروع الذي يتكشف أمامهم.

لم أستطع النطق، كأن لساني قد عُقد. صعد إخوتي جميعاً، متجهين نحو الشرفة كقطيع من الغزلان المذعورة. حشرت نفسي بينهم وجلسنا جميعاً نشاهد أفراد الشرطة والطب الشرعي تصطحب الجثة الهامدة وهي في طريقها إلى مثواها الأخير. كان مشهداً بشعاً، نُقش في ذاكرتي كوشم لا يمحى.

تناثرت الأقاويل بعدها كأوراق الخريف، وطالتني بعض الإشاعات المغرضة. اجتمع إخوتي، بمن فيهم وسام، معلنين بحزم: "لابد من بيع البيت. يكفي ما حدث، ولا يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك".

جاء المشتري كغراب ينعق بالشؤم، أمهلنا شهراً واحداً لمغادرة المنزل. دفع ثمن البيت نصف مليون جنيه، بعد أن تمت زيادة المبلغ إلى خمسمائة وخمسين ألف جنيه. حجز الخمسين ألفاً الباقية على أن يتم تسليمها لنا بعد ترك البيت.

قرر الجميع، بعد إقناع منّة، أن تتزوج دون احتفال. استعدت منّة لذلك بعد موافقة أهل خطيبها. استسلمت أنا لرغبتهم، فبعد رحيل أبي وحادث زوجة عواض، أصبح المكان يثير في نفسي الرعب والخوف.

توجهت إلى صديقتي، واستأجرت شقة في بيتهم. لم أحمل معي سوى مرتبة وتلفاز صغير وبعض الأغراض البسيطة. رحلت أنا وديمة من البيت، تاركةً خلفي ذكريات عمري كلها. تركت العمل عند أختي وابن خالتي، فأصبح معي ما يكفي من النقود لأعيش عيشة ميسورة، ولكنها خالية من الدفء العائلي الذي كنت أنعم به يوماً.

بقي الوضع هادئاً، لكنه كان مُرًّا كالعلقم، حتى اتصلت بي الدكتورة سلمى مخبرةً أن سفرها سيطول. أعطتني رقم طبيب آخر لمتابعة حالتي، فوافقت. لكنني في المقابل أصررت على دفع أتعاب الأستاذ فوزي المحامي كاملة من مالي. وبعدما تأكدت الدكتورة أنني لن أتراجع عن قراري، رضخت لطلبي، قمت بعدها بدفع أتعابه بالكامل. ثم توجهت إلى الطبيب الجديد مباشرة.

بعد الفحوصات والأشعة، طلب مني الاستعداد لعمليةٍ خلال أيامٍ معدودة. قلبي يخفق بعنف، فلا يزال يتبقى خمسة عشر يوماً على موعد جلسة

محاكمة أسامة. لكنّ الطبيب أكّد لي خطورة الأمر، وأنّه لابد أن أدخل المستشفى في أقرب وقتٍ ممكن. حياتي في خطر، والأمر بالغ الصعوبة. كلما تأخرت، ازداد الخطر المُحدق بي.

ضاقت بي الدنيا كأنّها سجنٌ بلا نوافذ. ماذا أفعل؟ لم أفكر في نفسي بل تذكرت ديمة. ماذا ستفعل من بعدي؟ وماذا لو تم تأجيل جلسة محاكمة أسامة مرةً أخرى أو... أو حُكم عليه؟ يا لقسوة هذه الجملة على قلبي المكلوم!

(٣٧)

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى بيت أبي. نظرت إليه نظرةً أخيرة متأملةً الجدران بشروخها، مستنشقةً رائحته العبقة. تمنيت لو أرى أبي وأمي في تلك اللحظة. جلست مع منّة التي كانت تستعد لزفافها بعد يومين. المنزل فارغٌ من كل شيء، حتى من روح الأسرة التي كانت تملؤه يوماً.

فجأةً، اقتحمت إيناس المكان، صراخها يشق السكون كسيفٍ حاد. نهضنا أنا ومنّة لمعرفة ما حدث. قالت بصوتٍ متهدج، وهي تنظر إليَّ بغلٍّ ودموعها تنهمر: "كل شيءٍ ضاع! المصنع احترق!" صاحت منّة بذهول: "كيف حدث ذلك؟" فردّت إيناس بحدة: " أنتِ السبب في كل ذلك يا غادة!

سألت منّة باستنكار: "وما دخل غادة بالموضوع؟" فأجابت إيناس وهي منهارة من شدة البكاء: "زوجة عاطف، أي طليقته، هي من قامت بحرق المصنع انتقاماً منه على ما فعله بها. وهذا كله لأنه يحبك أنتِ يا غادة!" قالتها وهي تحاول خنقي بيديها.

نهضت منّة ودفعتها بعيداً، واقفةً حائلاً بيننا. جاء زوجها مسرعاً وأخذها، مغادراً دون كلمة. وأنا واقفةٌ مذهولة، عاجزةٌ عن الحركة أو الكلام. ماذا أفعل؟ لقد تركت المصنع، ومع ذلك يحملونني المسؤولية!

قالت منّة بحيرة: "ماذا يحدث لنا يا غادة؟" ثم أخبرتني أنه بالأمس اتصلت بها وسام، منهارةً، لتخبرها أنها اكتشفت زواج زوجها منذ سنة من أخرى. كاشفها بالأمر صراحةً، ثم غادر المنزل تاركاً إياها خلفه ورحل ليعيش مع زوجته الجديدة، وهي لا تدري ماذا تفعل.

صُعقت بما سمعت. ماذا أفعل؟ تركتُ منّة وأنا لا أدري ماذا أفعل. الأمور تسير بسرعةٍ نحو الهاوية. هل هذا غضبٌ من الله علينا لعدم رضا والدينا؟ أم ماذا؟ وإن كان هذا ذنباً اقترفاه في حقي، فأُشهد الله أني سامحتهما.

توجهتُ إلى المدرسة، أخذتُ ديمة ورجعنا إلى مسكني الجديد. نظرتُ إليها، جلستُ معها، أحدثها عن أشياء كثيرة منذ ولادتها، كل ما خطر ببالي عن حياتها الغضة. طلبتُ منها ألا تغضب مني أبداً، وأن تدعو لي إن وافتني المنية.

سألتني بعينين بريئتين أن أذاكر لها دروسها، فأجبتُها بصوتٍ متهدج وقلبي يعتصر: "أنا لا أفهم المنهج يا حبيبتي. عمك ماجد وجدتك إنعام هم الأجدر بذلك." فسألتني بلهفة: "هل سنعود للعيش في بيتنا مرة أخرى يا أمي؟" أجبتُها والحزن يعتصر قلبي: "لا يا صغيرتي، لكنكِ ستذهبين للعيش معهم وحدك".

صرخت: "لا! لن أعيش مع أحدٍ إلا أنتِ يا أمي!"

حاولتُ تهدئتها: "إنها فترة قصيرة يا حبيبتي، وسأعود لأخذك..." قاطعني رنين الهاتف. كانت منّة، تبكي بحرقة، تخبرني أنه تم إلقاء القبض على زوج نهى ومعه كمية من مخدر الحشيش. لم يعد هناك من يحضر معها مراسم الزواج، ولا يمكن تأجيل الزواج من ذلك.

لتقول صارخة: "لقد تدمر كل شيء يا غادة! الجميع اختفى، تحولت حياتهم إلى مأساة. لم يبقَ إلا أنتِ. لابد أن تأتي وتحضري مراسم زواجي!" حاولتُ إقناعها بالتأجيل، لكنها هددت بقتل نفسها إن لم آتِ. رضختُ لها قائلة" حسنا سوف أتى يوم الزفاف"، فأنا أعلم أنها متهورة وقد تفعلها.

أنهيتُ المكالمة لتقول ديمة بدهشة: "كيف ستتزوجين ابن خالتك الآن وأنتِ قلتِ لي قبل ذلك أنه لا يمكن ذلك؟" أجبتُها بحزم: "لا، أنا لن أتزوج إلا أسامة وديمة." فقالت بسذاجة: "كيف ونحن اثنان!" فأجبتُها بصوتٍ خافت: "لا يا حبيبتي، غادة وأسامة وديمة واحدٌ فقط".

في صباح اليوم التالي، حزمتُ أمتعة وأغراض ابنتي ديمة في حقيبة كبيرة. توجهتُ بخطى ثقيلة إلى ذلك البيت الذي كان يومًا ما مأواي والذي سُلب مني عنوة. وقفتُ أمام الباب، وفي قلبي غصة وفي عيني دمعة أحاول كتمانها بصعوبة بالغة. فتحت إنعام الباب، فقلتُ لها بصوتٍ متماسك: "لقد حضرتُ لتنفيذ الاتفاق. ها هي ديمة، أعطيني إيصال الأمانة." ناولتني الإيصال قائلة: "مبروك عليكِ الزواج." تجاهلتُ كلماتها وقلتُ: " اعتنِ بها."

كل ذلك وديمة ممسكة بملابسي، مندهشة من الحديث. في نظرها أصبحتُ خائنة لا محالة. نادت إنعام على ابنتها شذى، التي جاءت من الداخل وحملت ديمة. لم تفعل ديمة شيئاً سوى أن نظرت في عيني وكأنها تسألني: " ألم تقولي لي إننا واحد؟

غادرتُ المكان بخطواتٍ مسرعة، وجملة " ألم تقولي لي إننا واحد؟ " بصوت ديمة ترن في أذني كأجراس الموت. ما إن دخلتُ الشقة حتى أنهرت في البكاء، يا رب، هل هذا هو القدر الذي كُتب علي؟ أن أترك فلذة كبدي، وأحمل هذا الألم وحدي؟ ألهمني الصبر يا رب، وارحم ضعفي وقلة حيلتي. آمين. ووقعتُ على المرتبة فاقدة الوعي.

نهضتُ على صوت الهاتف، عيناي مثقلتان بدموعٍ جفت. نظرتُ إلى الساعة فوجدتُ أن أربع ساعاتٍ قد مرت عليَّ في هذه الحال. أصبحتُ وحيدةً، مجردةً من كل شيء.

كان المتصل هو الطبيب. وجدتُ بعدها رسالةً منه يؤكد لي أنه تم حجز غرفةٍ لي في المستشفى، وأنه من الغد يجب عليَّ الذهاب إليها. أعددتُ نفسي، وكأنني أُعِدُّ روحي للقاء ربها، وذهبتُ إلى المستشفى. جلستُ في غرفتي، في انتظار ما كتبه الله عليَّ.

أكد لي الطبيب بعد ذلك أن العملية ستكون بعد حوالي عشرة أيام. ما كان مني إلا أن تذكرتُ موعد محاكمة أسامة. طلبتُ منه أن تأجل يوم آخر، أي بعد أحد عشر يوماً. وبعد نقاشٍ به تعاطفٌ من قِبَله لحالي وافق على طلبي.

أغلقتُ هاتفي، ولم أجد في هذه الأيام العشرة الطويلة إلا أن أكتب حكايتي في هذه الفترة العصيبة منذ يوم القبض على أسامة. وعندما لم يتبقَ إلا يوم واحد، اتصلتُ بمنّة. أخبرتني أنها تزوجت، ولكن بمفردها. لم يأتِ معها أي شخص، ذهبت هي بمفردها إلى شقتها في زيجةٍ غريبة. طلبتُ منها أن تسامحني على عدم حضوري، وأن الأمر خارج عن إرادتي. رغم غضبها، تفهمت ذلك لأنها تعلم أنني لا أحب الكذب أو تهويل الأمور.

اتصلتُ بعدها بالمحامي، أؤكد عليه أن جلسة محاكمة أسامة غداً. قال لي: "كل شيء على ما يرام، ولا ينقص سوى الدعاء".

جلستُ طوال الليل في غرفتي أدعو لأسامة وديمة، وأنا في انتظار معرفة ماذا سيكون مصير أسامة. لم تغفل عيني ما بين الدعاء والصلاة وقراءة القرآن. دخل الطبيب إلى غرفتي الساعة الواحدة ظهراً وقال لي: "لابد من دخول غرفة العمليات الآن".

فقلتُ له بصوتٍ متهدج: "لابد من الانتظار لمدة حوالي ساعتين إضافيتين." تجمع حولي أكثر من طبيب، وكل ما يدور في رؤوسهم هو خوفي من دخول غرفة العمليات. ولكني شرحتُ لهم أن هناك خبراً أنتظره تتوقف عليه حياتي كلها، ولن أستطيع دخول غرفة العمليات قبل معرفة ماذا سيحدث.

رضخ الجميع لطلبي بعد أن تمسكتُ به، وتدخلت الدكتورة سلمى هاتفياً، التي تفهمت الموقف، كما شرحت لها أنى كتبتُ كل شيء حدث لي خلال

تجربتي هذه منذ يوم حبس أسامة، وأنه في حالة وفاتي لابد أن تُعطى هذه المذكرات إلى أسامة. فهذا عهدٌ بيني وبينها.

وهكذا، أجلس هنا، على حافة الحياة والموت، أنتظر خبراً قد يغير مجرى حياتي كلها. قلبي يخفق بعنف، وروحي تتأرجح بين الأمل واليأس. يا رب، إن كنتَ كاتباً لي الحياة، فاجعلها حياةً كريمة مع من أحب. وإن كنتَ كاتباً لي الموت، فاغفر لي وارحمني واجمعني مع أحبتي في جنتك. آمين.

اللحظات الأخيرة تمر ثقيلة كالجبال، وأعصابي تنهار ما بين النظر إلى الساعة والهاتف الصامت. أرجوه أن ينطق، أن يرن، أن يحمل لي بشرى أنتظرها على أحر من الجمر.

وفجأة، كأنما استجاب الكون لدعائي، دوى صوت رنين هاتفي. كان صوته كممحاة محت كل ما كتبته من هموم وأحزان. إنه الأستاذ فوزي وصوته يحمل نبرة الفرح والانتصار:

"أسامة حصل على البراءة"

يا الله! أسامة بريء! دبت في جسدي الحياة مرة أخرى، كأنما نفخ الله فيَّ روحاً جديدة. شعرت بالقيود تنفك من رقبتي ويديَّ وقدميَّ. لم أعد زوجة رجل مسجون، بل أصبحت الآن زوجة أسامة فؤاد الشايب. زوجي وحبيبي وأبو ديمة.

دموع الفرح انهمرت من عيني كشلال دافق، وقلبي يخفق بقوة كأنه يريد أن يطير من صدري. رفعت يديَّ إلى السماء، وهمست بصوت مرتجف:

"الحمد لله... الحمد لله... يا رب لك الحمد والشكر على نعمتك وفضلك".

نظرت إلى الأطباء المحيطين بي، وابتسمت ابتسامة مشرقة. قلت لهم بصوت ملؤه الثقة والأمل:"أنا الآن مستعدة لإجراء العملية".

وبينما كانوا يعدونني لغرفة العمليات، كنت أشعر بسلام عميق يغمر روحي. مهما كانت نتيجة هذه العملية، فقد تحقق حلمي الأكبر. أسامة حر، وديمة ستكون بين ذراعي أبيها قريباً.

يا رب، إن كنتَ كاتباً لي الحياة، فاجعلها حياةً مليئةً بالحب والسعادة مع عائلتي. وإن كنتَ كاتباً لي الموت، فاغفر لي وارحمني واجعل قبري روضةً من رياض الجنة. فإني راضية بقضائك، شاكرة لنعمتك.

وما أن تركني الأطباء وتوجهوا إلى غرفة العمليات، وبينما كانت الممرضات يقمن بتحضيري لإجراء العملية، طلبتُ منهن بصوت خافت أن يتركنني لحظات لأكتب آخر سطوري هذه:

وبينما أستعد لوضع القلم جانباً، أشعر بسلام عميق يغمر روحي. لقد واجهتُ الحياة بكل ما فيها من تحديات وصعاب، وها أنا الآن أقف على عتبة مرحلة جديدة، إما حياة جديدة مع أسامة وديمة، أو رحلة إلى الآخرة حيث الراحة الأبدية.

وإلى كل من سيقرأ كلماتي هذه يوماً ما، أقول: تمسكوا بالأمل مهما اشتدت الظروف. فالحياة، رغم قسوتها أحياناً، تحمل لنا دائماً بصيص نور في نهاية النفق.

لتكن صفحتنا زوجة رجل مسجون، على الفيسبوك، يا رفيقات الدرب ومشاركات الهم، منارة تشع نورًا في ظلمات الحزن، ومنبرًا ساميًا يرتقي إليه صوت كل امرأة أثقلتها الأيام بغياب حبيبها السجين، أن كان زوج، أبن، أخ، أب، أو حبيب، أو حتى مجرد صديق. فلنجعل من هذا الفضاء الرقمي واحة للأمل، ينبع منها عزاء القلوب المكلومة وتتدفق فيها ينابيع التضامن والمؤازرة.

هذه الصفحة ليست ملكًا لفرد، بل هي ملك لكل قلب خافق بحب غائب ولكل روح تتوق للقاء عزيز محبوس. فلتكن كلماتنا هنا بلسمًا يداوي الجراح، وأيادينا الممتدة عبر شاشات الهواتف جسورًا للمحبة والدعم.

دعونا نحول دموعنا إلى حبر نكتب به قصص الصمود، ونحوّل آهاتنا إلى نسمات أمل تهب على كل من أنهكها الانتظار. فمن رحم المعاناة تولد أقوى حكايات البطولة، ومن ظلام السجون يسطع نور الحرية الأبدي.

فلنتشبث بالأمل، ولنجعل من هذه الصفحة شعلة لا تنطفئ، تضيء دروب العائدين، وتبشر بفجر قريب يلمّ الشمل، ويعيد البسمة إلى شفاه الصابرات المنتظرات.

وأخيراً، أستودع الله أمري، وأسلم روحي لخالقها، راضيةً مرضية واثقةً بأن الله لن يخذلني أبداً. اللهم إني أستودعك نفسي وأهلي وكل من أحب. اللهم احفظهم واحمهم وارزقهم السعادة في الدنيا والآخرة.

آمين يا رب العالمين.

أرجو من الجميع في النهاية أن يدعوا لي في حالة وفاتي بأن يغفر الله لي ذنوبي. إن كنتُ قد قصَّرت في شيء في حياتي، فهذا ليس بقصد مني. وأتمنى من الله ألا تمر أي فتاة أو امرأة أو سيدة بهذه التجربة العصيبة.

**الحب غريزة...**

**غادة حمدي أبو العلا**

## نبذة عن المؤلف

**الاسم: هشام سلامة سلمان**

**السن: ٤٣ سنة**

**المهنة: مهندس مدني** (خريج كلية الهندسة- جامعة عين شمس)

**صدرت له**

**١- رواية خيوط الخيانة سنة ٢٠١٩**

**٢- ورواية ألف ليلة وليلة ٢٠٢١ عن قصة ألف ليلة وليلة ولكن حكاية جديدة مختلفة من وحي خيال الكاتب**

**للتواصل**

**البريد الإلكتروني**

hishamsalman1001@gmail.com

**الفيسبوك: الروائي-هشام سلامة سلمان**

**صفحة زوجة رجل مسجون**

https://www.facebook.com/profile.php?id=61571999300449

**جروب زوجة رجل مسجون**

https://www.facebook.com/groups/1662310901348367/?mibextid=NSMWBT